الرواية الأكثر مبيعا في العالم

باكس

رحلة العودة

سارة بينيباكر

رسوم جون كلاسن

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

الغلاف الأمامي

الرواية الأكثر مبيعا في العالم
باكس
رحلة العودة
سارة بينيباكر
رسوم جون كلاسن
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

حقوق الطبع والنشر

سارة بينيباكر

باكس

رحلة العودة

رسوم جون كلاسن

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

حقوق النشر

- لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .
- إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاءً شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- رجاءً عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

الطبعة الأولى 2025

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.

Copyright © 2025. All rights reserved.

Text copyright © 2021 Sara Pennypacker
Illustrations copyright © 2021 Jon Klassen

للتعرف على فروعنا نرجو زيارة www.jarir.com

إذا كانت لديكم أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على:

jbpublications@jarirbookstore.com

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

SARA PENNYPACKER

PAX

ILLUSTRATED BY

JON KLASSEN

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

BALZER + BRAY
An Imprint of HarperCollinsPublishers

الأغلفة الداخلية

مر عام منذ آخر لقاء بين بيتر وثعلبه الأليف باكس. وعلى الرغم من أن كلًا منهما كان مرتبطًا بالآخر ولا ينفصلان أبدًا، أصبحا يعيشان الآن حياة مختلفة تمامًا. تزوج باكس من بريسل وأنجبا مجموعة من الثعالب الصغيرة، وكان شغلهما الشاغل هو توفير الحماية لأسرتهما في هذا العالم المحفوف بالمخاطر. أما بيتر – الذي قُتل والده مؤخرًا في الحرب وأصبح يعاني الشعور بالذنب والوحدة – فقد قرر مغادرة المنزل الذي كان يقيم فيه بصحبة فولا للانضمام إلى مجموعة محاربي تلوث المياه؛ وهي مجموعة من الأشخاص العازمين على تخليص الأرض من الآثار المدمرة للحرب.

وعندما يُصاب أحد صغار باكس بمرض شديد، يلجأ إلى الشخص الوحيد الذي يعرف أنه يمكنه الوثوق به.

وعلى الرغم من محاولات بيتر لرأب صدع قلبه المحطم وتقويته ليصبح جامدًا كالصخر، فإن الحب لا يفشل في أن يجد طريقه إليه. ويشرع هو والثعلب في شق طريقهما مرة أخرى نحو المنزل، والتعافي واللقاء مرة أخرى.

تقدم الكاتبة الشهيرة سارة بينيباكر، مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا التي حصدت عدة جوائز تتمة رواية باكس التي طال انتظارها. وتستكشف هذه الرواية الجذابة متقنة الصنع موضوعات مثل الانضمام إلى عائلات نختارها بمحض إرادتنا، بالإضافة إلى توضيح مدى تأثير القوة العلاجية للحب.

سارة بينيباكر

هي مؤلفة العديد من الروايات الرائعة التي حصدت العديد من الجوائز، والمصنفة ضمن الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز، ومن بينها سلسلتي *Clementine* و *Waylon* المقتبستين منها. وتمتد مساهماتها الأدبية إلى الروايتين اللتين لقيتا استحسانًا كبيرًا، وهما *Summer of the Gypsy Moths* و *Here in the Real World*. وهي تقضي وقتها ما بين كيب كود وماساتشوستس وفلوريدا.

جون كلاسن

نشأ جون في منطقة شلالات نياجرا، كندا، ويعيش الآن في لوس أنجلوس، كاليفورنيا. وهو المؤلف والرسام صاحب الأعمال الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز، وصدرت له العديد من الكتب الرائعة من بينها *I Want My Hat Back* و *This Is Not My Hat*، وقد حاز عن الأخير جائزة كالديكوت. كما فاز اثنان من كتبه المصورة *Sam and Dave Dig a Hole* و *Extra Yarn* بوسام كالديكوت الشرفي (وقد فاز عن كتاب *Extra Yarn* بجائزة بوسطن جلوب هورن للكتاب) وكلا الكتابين من تأليف ماك بارنيت.

مؤلفات أخرى بقلم سارة بينيباكر

كتب للناشئين

باكس

Here in the Real World

Summer of the Gypsy Moths

سلسلة: ***The Clementine***

سلسلة: ***The Amazing World of Stuart***

Stuart's Cape

Stuart Goes to School **و**

Dumbstruck

كتب مصورة

Meet the Dullards

Sparrow Girl

Pierre in Love

ملاحظة المؤلفة

التواصل بين الثعالب عملية معقدة تنطوي على عدة عناصر مختلفة، مثل الأصوات، والإيماءات، وإفراز الرائحة والتعبيرات. ينقل «الحوار» المكتوب بخط مائل في جميع أجزاء فصول هذا الكتاب لغتها المعبرة بكل وضوح.

إهداء

إهداء إلى دونا براي

تقديرًا لرعايتها الممتازة للثعالب.

ـــــ سارة بينيباكر

1

ركض باكس مسرعًا.

يبدو أنه لم يتوقف عن الركض، فعلى الرغم من مرور عام تقريبًا منذ خروجه من ذاك القفص الذي أعده له بيتر، ظلت ذكرى ما أمضاه به من وقت متأصلة في خلايا جسده، وتجلت من خلال رغبته في الركض بحرية وانطلاق.

لكنه كان يركض بشكل مختلف هذا الصباح؛ فعلى الرغم من آثار الشتاء التي لا تزال باقية، استشعر باكس قدوم الربيع، واستنشق نسماته العليلة عبر أرضية الغابة الصلبة المغطاة بطبقة كثيفة ومتشابكة من النباتات، والثلوج المتبقية التي تكسو الأرض تحت الظلال الكثيفة لأشجار الصنوبر، ورقائق الثلج التي تغطي أسطح البرك. وقد أضفى قدوم الربيع حياة جديدة على لحاء الأشجار التي ازدهر لونها، والبراعم التي ظهرت على فروع النباتات، وشملت تلك الحياة الجديدة جحور الحيوانات التي خرجت لتشهد العودة الوشيكة للربيع. وكانت الاستجابة الغريزية لهذه الحياة الجديدة الناشئة هي الانطلاق بكل حيوية ونشاط.

لكنه توقف فجأة؛ إذ شم رائحة أرانب.

كانت زوجته بريسل تشعر بالجوع الدائم هذه الأيام.

تتبع باكس الرائحة حتى قادته إلى جحر للأرانب، بدا له أنه قد هُجر منذ وقت ليس ببعيد، ربما خلال الساعات القليلة الماضية فقط. وبينما كان يستكشف الوضع في الداخل، وجد جثتي أرنبين كان أحدهما قد فارق الحياة منذ عدة أيام، بينما نفق الآخر خلال الليلة الماضية فقط.

ومن المثير للدهشة مصادفة باكس على مدار الأيام الثلاثة الماضية جثث حيوانات صغيرة ميتة في ثلاثة أماكن مختلفة من الغابة؛ حيث عثر في المكان الأول على مجموعة من الفئران الصغيرة النافقة في جحر فأر الحقل. وقد أحضر إلى مكان معيشته أحدث تلك الفئران نفوقًا ما أثار اشمئزاز بريسل التي رفضت تمامًا تناولها.

أما المكان الثاني فكان عشًّا لسنجاب، حيث عثر باكس على مجموعة من صغار السناجب نافقة. بيد أن بريسل رفضت تناول أي منها أيضًا؛ لذا لم يكلف باكس نفسه عناء اصطحاب أي من الأرنبين الصغيرين النافقين معه. لقد انتابه شعور مفاجئ بالإرهاق؛ لذا غير وجهته متجهًا نحو المزرعة المهجورة التي يقيم فيها مع كل من بريسل ورانت الآن، بعد أن غادر ثلاثتهم المكان السابق الذي عاشوا فيه بعد أن تعرض رانت هناك لحادث أدى إلى فقدانه إحدى أرجله.

غابت بريسل عن نظر باكس؛ لكنه كان يستشعر وجودها بالقرب منه. سار مقتفيًا أثرها حتى وصل إلى سقيفة صغيرة. وعثر أسفل درجات السلم المؤدي لها على حفرة شُقَّت حديثًا؛ إذ كان التراب الناتج عن الحفر متناثرًا حولها. دخل باكس إلى هذه الحفرة مسترشدًا برائحة بريسل.

كانت بريسل تنام على الأرض بالجزء الخلفي من الجحر الجديد متكورة على نفسها، بينما علقت الرمال بفروها اللامع مكونة بعض الكتل المتفرقة من الشعر. فتحت إحدى عينيها

الناعستين ناظرة إلى باكس، وما إن اطمأنت لوجوده حتى عادت لتضع رأسها على قائمتيها الأماميتين مستسلمة للنوم.

انتاب باكس شعور بالحيرة بعض الشيء. استيقظ صباحًا حيث كانت نسمات الهواء دافئة، ولا يبدو أن الجو ينذر باقتراب أي عاصفة. أما ما أثار حيرته أكثر، فكان هو تلك الرائحة الجديدة المنتشرة في الجحر التي وجدت طريقها إلى أنفه؛ رائحة لم يصادفها من قبل. بيد أنه شعر بأنها مألوفة بالنسبة له؛ إذ كانت تشبه رائحة بريسل، لكنها كانت تختلف عنها بعض الشيء.

اقترب باكس من بريسل ودفع رقبتها بأنفه مشيرًا إليها بتتبع تلك الرائحة المنتشرة في الهواء، وسألها: هذه رائحة جديدة، أليس كذلك؟

أكدت بريسل وجود هذه الرائحة: نعم. جديدة. إنها تنتمي لنا.

لم يفهم باكس مقصدها.

استلقت بريسل على ظهرها فتمدد بطنها المستدير، ثم قالت له: إن صغارنا على وشك المجيء إلى هذه الحياة قريبًا. ثم عادت لتستلقي في وضع مريح ملتفة حول نفسها.

راقبها باكس بعناية حتى غطت في سبات عميق.

وما إن تأكد من نومها حتى تراجع للخلف خارجًا من الجحر، وأطلق صيحة واحدة.

ثم أطلق لأرجله العنان مدفوعًا برغبة ملحة في إطلاق سراح مشاعر قوية كانت تختلج داخله.

2

انحنى بيتر فوق لوح الأرضية، ومرر أصابعه متتبعًا ذلك النتوء البسيط الذي يمتد على طوله كله. أكدت له فولا أن الألواح مسطحة ومستوية بدرجة كافية، وأن بإمكانه بدء عملية صقل الخشب. بيد أنه كان يرغب في الحصول على أرضية مستوية بشكل مثالي، وخالية من أي عيوب أو نتوءات، ما يجعل فولا تقر بذلك دون أدنى تردد.

وبالفعل ضبط بيتر شفرة المسحاج بحيث تبرز بما يكفي لإزالة طبقات رقيقة من الأرضية في سُمك الورقة. وفي حين كان بإمكانه إزالة طبقة سميكة دفعة واحدة، فضل إزالة طبقة رقيقة تلو أخرى من أجل الحصول على نتائج أفضل.

أحب بيتر استخدام المسحاج كثيرًا لتنعيم الخشب وصقله، واعتبرها أفضل المهارات التي تعلمها خلال عملية بناء هذا الكوخ. وكان يرى أنها تتطلب قدرة بدنية حقيقية على عكس مفك البراغي على سبيل المثال؛ حيث يستخدم الشخص كامل قوته البدنية عند العمل بها. كما كان يرى أنها أداة تناسب الرجال أكثر لا الصبية، لما تتطلبه من قوة عضلية كبيرة.

وضع بيتر المسحاج على حافة اللوح، وقام بمحاذاته بدقة، ثم أمسك المقبض بيده اليمنى وضغط بكامل جسده عليه، ثم وجَّه المسحاج بمهارة إلى الأمام مستخدمًا يده اليسرى.

وانخرط في سحج خشب الصنوبر الأصفر القديم الذي يمتد عمره قرنًا من الزمان، وكان قد حصل عليه من حظيرة أحد الجيران. وشرع في إزالة طبقات رقيقة من الخشب التي شكلت في النهاية رقائق ملفوفة حول نفسها بشكل مستوٍ تنبعث منها رائحة منعشة كرائحة الخشب المقطوع حديثًا. وكم أحب بيتر قابلية الخشب للتشكل مرارًا وتكرارًا، كأنه على استعداد دائم لبداية جديدة في كل مرة.

وبشكل غير متوقع، توقف المسحاج فجأة حين واجهته عقدة بارزة في الخشب، ما أدى إلى إفلات يد بيتر التي كانت تمسك بالمقبض، الأمر الذي تسبب في كشط طبقة الجلد الخارجية لراحة يده.

تراجع بيتر إلى الخلف بخطوة سريعة وقوية، وهو يكيل اللعنات. وتساءل إلى متى سيظل يرتكب الأخطاء أثناء سحج الخشب؛ فدائمًا ما تكون العقد مختبئة تحت السطح، كان لا بد أن ينتبه لذلك. وعندما رأى الدم يتدفق ببطء على معصمه، خطرت في ذهنه مقولة هذا العمل بُذل فيه العرق والدماء. وقد لقيت تلك المقولة صدى لديه في تلك اللحظة؛ حيث تذكر الساعات التي لا تعد ولا تحصى من العمل الشاق والمجهود البدني الذي خصصه لبناء هذا الكوخ البسيط. فقد سالت منه كميات كبيرة من العرق في كل ركن منه، ومن ثم رأى أن ظهور بعض قطرات الدماء الآن إضافة جيدة للحدث ككل. ثم ضغط بيده المصابة على اللوح الخشبي، فلاحظ تدفق الدم عليه، في شكل خيط رفيع أشبه بذيل الثعلب.

سرعان ما أبعد بيتر يده عن الخشب؛ إذ داهمته بقوة ذكرى كان لها تأثير كبير عليه. حيث تذكَّر عودته في العام الماضي إلى المكان الذي اضطر إلى التخلي عن ثعلبه الأليف باكس فيه، وقطعه ربلة ساقه حتى سالت منها الدماء التي استخدمها لرسم ذيل ثعلب على ساقه، ثم قطع وعدًا على نفسه قائلًا سأعود يومًا لاصطحابك يا باكس أعدك بذلك.

وضع بيتر يده الجريحة على منتصف صدره بحثًا عن بعض الهدوء والطمأنينة، بعد أن أثارت تلك الذكريات مشاعر دفينة داخله. دائمًا ما تتربص الذكريات بالإنسان، وتتحين

الفرصة لتباغته على حين غرة، فتثير ما دفنه في قلبه من مشاعر وأحاسيس ود لو لم يتذكرها.

لكنه على أي حال كان يعلم ما يجب عليه فعله لإخماد هذه الجذوة المشتعلة من الذكريات الموجعة؛ إذ اعتاد كل مرة يتذكر فيها باكس أن يمارس تمرينًا ذهنيًّا محددًا وضعه لنفسه، وكان يرى أن عليه القيام به الآن.

لذا أغمض بيتر عينيه، واستحضر إلى ذهنه ما حدث في فترة ما بعد الظهيرة، عندما وجد ثعلبة نافقة على جانب الطريق. تذكر ما حدث بالتفصيل، حيث رفع جسدها المتصلب والمغطى بالطين، وأخذ يبحث عن مكان مناسب لدفنها فيه، ثم اكتشف في النهاية بقعة رملية بالقرب من جدار حجري، فاستخدم حذاءه لحفر مثوى صغير لها.

وهنا شعر بانقباض صدره بقوة، وهو رد فعل مألوف لهذه الذكرى، لكنه أجبر نفسه على تذكر ما حدث لاحقًا، حيث عثر عندئذ على فتحة مؤدية إلى جحر ثعالب. شعر باضطراب تنفسه بشكل واضح في تلك اللحظة، لكنه استحضر باقي المشهد في ذهنه على الفور متذكرًا عثوره على مجموعة نافقة من الثعالب، وبينها ناجٍ واحد فقط كان يرتجف بشدة.

التقطه بيتر، وتبين له أنه ثعلب ذكر. فضمه إلى صدره، وإذا به يشعر بإحساس بالراحة كأن هذا الثعلب قد ملأ فراغًا عاطفيًّا لديه لم يكن يدرك أنه موجود من الأساس. لكنه استدعى في تلك اللحظة ذكرى مختلفة تتعلق بالنصيحة التي وجهها إليه والده بشأن ما كان يجب عليه فعله حيال ذلك الأمر.

فقد قال له والده: «كان من الأفضل أن تتركه يموت مع باقي عائلته، وما كان عليك سوى أن تجعل عملية موته تتم بأقل قدر من الألم».

شعر بيتر بالاستياء الشديد، وقال لوالده باكيًا وهو يضم الثعلب إلى صدره: «لقد فات الأوان، وقد أخذته لأعتني به، لا لأنهي حياته».

وعلى الرغم من أن والده شعر بالانزعاج في البداية، لاحظ بيتر تعبيرات مختلفة بادية على وجهه تنم عن الاحترام، ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يلاحظ شيئًا كهذا على والده.

لقد تبين له الآن أن والده كان محقًّا فيما قاله. كان يجدر به أن يترك باكس يموت وسط عائلته، ما كان سيجنبهما معًا المعاناة الشديدة التي شعرا بها بعد خمس سنوات حين افترق أحدهما عن الآخر.

وفي النهاية تصور بيتر مشهدًا مغايرًا تمامًا لما حدث في الواقع، حيث تخيل نفسه وهو يزيل بالقوة حجرًا ضخمًا من أعلى الجدار، ويضعه عند مدخل الجحر، ثم ينطلق مسرعًا دون أن ينظر وراءه أبدًا.

ثم قال في قرارة نفسه: افعل ذلك. امضِ قدمًا، ولا تنظر وراءك.

لو أنه كان قد نفذ ذاك الفعل في الماضي، لكان قد جنَّب نفسه ألمًا عميقًا ترسخ داخله.

كرر بيتر ذلك التمرين مرتين إضافيتين. فقد قرأ من قبل أن إعادة برمجة المخ لترسيخ شيء جديد داخله تتطلب التدرب على هذا الشيء ثلاث مرات على الأقل.

وقد استشعر بالفعل مدى فاعلية التمرين حقًّا؛ إذ وجد نفسه يفكر في باكس بشكل أقل. ولو كان بإمكانه تجنب رؤية حيوان الراكون الخاص بفولا، لظل عدة أيام دون أن يتذكر أنه كان يمتلك حيوانًا أليفًا في السابق.

نهض بيتر من مكانه، ثم وضع المسحاج جانبًا. ومع أن جرحه توقف عن النزيف، لكنه قرر التوقف عن استخدام المسحاج مرة أخرى بعض الوقت؛ لمنع ذكرياته من الظهور إلى السطح والتأثير فيه بشدة.

أحضر بيتر قطعة من قماش جلدي متين من حاوية موضوعة في إحدى زوايا الكوخ. ثم وضع فوقها بعض الطحالب المجففة، بالإضافة إلى رماد الموقد وبعض الطين، وأضاف بدقة الماء تدريجيًا حتى تشكل لديه مزيج متماسك بعض الشيء. ثم وضع جزءًا من هذا الخليط في دلو، وبدأ ملء الفجوات بين جذوع الأشجار في الجدار الشمالي للكوخ.

وبينما كان يعمل على وضع اللمسات الأخيرة في هذا المكان، لم يستطع إلا أن يبدي إعجابه بهذا العمل الذي قام به بنفسه. فقد قرر بناء هذا الكوخ في سبتمبر، عندما عاد إلى المنزل بعد انتهاء أول يوم دراسي، ووضع كتبه على طاولة مطبخ فولا، ورأى مدى صعوبة الموقف. كان كوخ فولا مناسبًا لها هي فقط، وكان أصغر من أن يسع كليهما. كما أنهما اتفقا على أنه يحتاج إلى مساحة خاصة به تضمن له بعض الخصوصية. لذلك ساعدته فولا على تصميم مكان مناسب للنوم والدراسة، تبلغ مساحته ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار ونصف أي مساحة كافية لوضع سرير، ودولاب، ومكتب، وكرسي. وقد راقته كثيرًا بساطة التصميم وروعته.

قطع جذوع الأشجار بنفسه، ونشر كلًّا منها ليصل إلى الطول المطلوب، وأحدث في كل منها فتحات مناسبة لربطها معًا بشكل ملائم. وشكَّل بنفسه كل العوارض الخشبية المائلة الأفقية والرأسية. ثم غطى السقف بألواح رقيقة، ووضع فوقها مادة القطران. وكان قد عثر خلال الأسبوع الماضي على ثلاث نوافذ وباب في ساحة الخردوات، فاشتراها بالأموال التي كان يرسلها إليه جده شهريًّا. وعقد العزم على بدء وضعها في مكانها المناسب بحلول الغد، بعد انتهاء يومه الدراسي.

ساعده الجيران على وضع جذوع الأشجار في مكانها المناسب، فيما عدا ذلك كان يكمل كل مهمة بمفرده. أما فولا، فقد اكتفت بتقديم الإرشادات له دون مشاركته في أي نشاط بدني. وكان ذلك بناء على رغبته في القيام بكل شيء بمفرده، وقد احترمت فولا رغبته، وقدَّر هو امتثالها لرغبته بكل تأكيد.

وفي تلك اللحظة ظهرت فولا وهي تسير في الطريق كأنها شعرت بأنه يفكر فيها. وبدت غير مرتاحة أثناء سيرها؛ حيث أخذت تعدل تنورتها باستمرار كأنها لم تكن معتادة بعد ارتداء الملابس الرسمية في الأيام التي تذهب فيها إلى المكتبة.

صعدت على العتبة الخرسانية الصغيرة التي أعدها لها خصيصًا عند مدخل الكوخ؛ فعلى الرغم من مهارتها في السير على ساقها الاصطناعية، كان صعود الدرجات العالية شاقًّا ومحرجًا بالنسبة لها. ثم طرقت على جذع الشجرة لتستأذن منه للدخول، وكان ذلك شيئًا آخر يقدِّره فيها وهو احترامها خصوصيته ومساحته الشخصية.

أسرع واضعًا قطعة من القماش لتغطية الأرضية غير المكتملة، ثم سمح لها بالدخول، وسألها: «كيف كان يومك؟».

ابتسمت فولا قائلة: «إن تلك الفتاة الصغيرة من عائلة ويليامز تكاد تثير جنوني، لكنها تتمتع بموهبة طبيعية في التحكم في الدمى المتحركة. كما ترسل بيا تحياتها إليك، وتخبرك بأنها قد أرسلت في طلب الكتاب الجديد الذي يتحدث عن الأشجار، الذي نال إعجابك. لا أظن أن هناك كتبًا عن الأشجار لم تقرأها بعد. يا إلهي! كدت أنسى إخبارك بأن هناك إشعارًا على لوحة الإعلانات في الخارج عن بعض الجراء المتاحة، وهي مزيج من سلالات اللابرادور والإسبانيل، أعتقد أن ...».

اضطربت أنفاسه فجأة، واستدار مبتعدًا عنها، وصاح: «لا...». لقد تذكر باكس مرة أخرى. فتناول أداة المَسطرين سريعًا، وقال لها: «لا بد أن أعود إلى العمل».

أحست بأنه قد شعر ببعض الضيق، فقالت له: «كنت أفكر فقط في أن يكون لديك بعض الرفاق عندما تبدأ العيش هنا بمفردك...».

قال لها بنبرة حادة: «لا، أنا لا أريد». وقد اندهش من تحدثه إليها بهذه الطريقة.

تراجعت فولا إلى الخلف، وقالت له: «حسنًا. يبدو أن هذا الاقتراح سابق لأوانه. لقد تفهمت الأمر».

شك بيتر في أن فولا قد فهمته حقًّا؛ إذ إنه لم يفهم حقيقة مشاعره حتى الآن. لكن كل ما كان يعرفه هو أن مجرد فكرة امتلاك حيوان أليف مرة أخرى تصيبه بالضيق.

ابتسمت ابتسامة لطيفة في محاولة منها لتهدئة الموقف.

أومأ بيتر برأسه، ووضع طبقة من الملاط الذي صنعه على الحائط. تمنى لو تغادر الآن؛ حتى يتمكن من ممارسة تمرينه الذهني المعتاد في مثل هذه الظروف، وإلا فإن هذه الذكرى ستترسخ بعمق في رأسه، ولن يستطيع التخلص منها. ثم أخذ في وضع كمية من الملاط بالتساوي على طول الجدار.

تلاشت ابتسامة فولا، وقالت له: «لقد أخبرتك أمس بألا تضع طبقة كثيفة من الملاط على الجدار هكذا».

عض بيتر خده من الداخل محاولًا السيطرة على مشاعره في تلك اللحظة، ثم أضاف طبقة أخرى كثيفة، وقال لها: «أحاول منع البرد من التسلل إلى داخل الكوخ».

قالت له: «لكنك هكذا ستمنع الهواء والضوء من الدخول أيضًا».

لكنه استمر في سد الفجوات الموجودة في الجدار دون أن يلقي لها بالًا.

قالت له بنبرة أهدأ: «لكن الأشخاص قد يموتون إن لم يحصلوا على ما يكفيهم من الهواء والضوء».

قال لها دون أن ينظر إليها: «أعرف ذلك، لكنهم يموتون من البرد أيضًا».

3

مشى باكس جيئة وذهابًا، بينما كانت الأفكار تتسارع في رأسه.

ساد طقس دافئ في الأسبوع الماضي، أما اليوم، وتحديدًا في منتصف الليل، فانخفضت درجات الحرارة بشكل كبير، ما أدى إلى تكوُّن بلورات الصقيع التي تلألأت بفعل انعكاس ضوء القمر عليها. راقه هذا الجو الآسر، وشعر بانجذاب كبير نحو ذلك البدر المكتمل الذي توسط السماء مزينًا إياها، بيد أنه لم يتوقف عن التفكير في بريسل التي كانت أقوى جاذبية له.

وفي اليوم التالي، وتحديدًا عند الغسق، استعدت بريسل لعملية المخاض، فشقت طريقها إلى الجُحر الذي أعدته أسفل السقيفة، بينما كان بطنها يتحرك بشكل ملحوظ، كأن صغارها يتعجلون الخروج إلى تلك الحياة. استمع باكس إلى حركتها، وهي تحاول العثور على مكان مريح لتضع جرَاءها، حيث كانت تتحرك بشكل دائري، ثم تحفر في الأرض، بدت مضطربة وقلقة إلى حد كبير. تغلب الفضول على باكس عندما سمعها تلهث من فرط المجهود، فاقترب من الجحر بحذر، ودس أنفه خلاله، لكنها زمجرت معلنة رغبتها في ابتعاده عنها، وقالت له مضطربة الأنفاس: لا تدخل، ولكن ابقَ قريبًا.

بدأ باكس بحراسة المنطقة المحيطة بالسقيفة، بالإضافة إلى المرج الممتد أمامها، المزين بالبراعم الخضراء النضرة التي كانت تشق طريقها هي الأخرى نحو حياة جديدة. أمضى ساعات في حراسة المنطقة بكل جد، ولم يصادف أي دخلاء خلال هذه الفترة. لكنه سمع في تلك اللحظة تحديدًا وقع أرجل مألوفة بالنسبة له.

كان القادم هو رانت، شقيق بريسل الذي كان يمشي مشية مضطربة بعض الشيء بعد أن فقد ساقه الخلفية في الربيع الماضي، وأصبح يسير على ثلاث أرجل فقط. لكنه على الرغم من هذه الإعاقة، أثبت براعة في الصيد؛ إذ يبدو أن القوة المتزايدة لحاسة السمع والبصر لديه قد عوضته عن فقدان ساقه. ظهر من خلف الشجيرات الكثيفة حاملًا طائر سمان سمينًا بين فكيه، ثم وضعه عند مدخل الجحر.

أطرق رانت السمع محاولًا تبين مصدر ذلك الصوت الآتي من الجحر أسفل السقيفة.

وقبل أن يتمكن باكس من تحذيره لعدم الدخول، اندفع رانت إلى الداخل بتهور. ثم ما لبث أن سمع باكس صوت صيحات غاضبة، وبعد ثوانٍ معدودة ظهر رانت مرة أخرى متقهقرًا للخلف وهو يتأوه بشدة. وظل يبتعد بحذر إلى أن استقر بالقرب من قاعدة شجرة بلوط على مسافة آمنة من الجحر.

ثم تبعه باكس، واستلقى بجانبه. وبينما لف رانت ذيله فوق خطمه مغمضًا عينيه، ظل باكس يقظًا، مركزًا نظره على جحر بريسل. ولم يحاول الدخول حتى تطلب هي منه ذلك، فقد كشرت له عن أنيابها من قبل، ولم يكن مستعدًّا ليشهد ذلك ثانية، لكنه مع ذلك شعر برغبة قوية في حمايتها هذه الليلة بالتحديد.

ومع اقتراب بزوغ فجر يوم جديد، حملت نسمات الهواء رائحة دماء.

فزع باكس واندفع مسرعًا نحو الجحر.

ملأ الدفء جنبات المكان على الرغم من برودة الجو. ولم تكن رائحة تلك الدماء السابحة في الهواء آثارًا لجرح، أو دلالة موت، وإنما كانت تحمل أخبارًا سارة تنبض بالحياة. وعندها فقط شعر باكس بأنها تناديه لتزف إليه خبر وصول صغاره إلى الحياة.

دخل باكس إلى الجحر.

أخذت بريسل تلعق بلسانها صغارها الثلاثة. كانت أجسام الجراء صغيرة للغاية وهي تتلوى يمينًا ويسارًا، ذات ملمس ناعم، ولون داكن، ومغطاة بمادة لزجة لامعة. وما إن تمكن باكس من استيضاح الرؤية حتى لمح سيقانًا نحيلة تمتد من كومة الصغار الملتفين حول أنفسهم، كما رأى أرجلًا وردية صغيرة مجعدة، وأنوفًا وردية صغيرة مرتعشة، وآذانًا وردية تنبض بحياة جديدة

قالت بريسل بنبرة ناعمة خافتة: ها قد وصل صغارنا إلى الحياة أخيرًا. وهم الآن في أمان.

تمدد باكس على الأرض، ولف جسده حول عائلته، شاعرًا بالإيقاع اللطيف لقلوب الجراء الصغيرة التي تنبض في انسجام، وتندمج مع نبضات قلبه. وقال نعم. إنهم الآن في أمان تام. فهم صغارنا الذين وصلوا بسلام إلى الحياة.

4

قال بيتر: «لقد عقدت العزم».

حوَّل جده انتباهه بعيدًا عن التلفاز، وقد بدت عليه علامات الانزعاج، وسأله: «على أي شيء بالتحديد؟».

أجابه: «لقد قررت أن آخذ الصندوق الذي يحوي رماد أبي».

ألقى الجد نظرة سريعة على صندوق الورق المقوى الموضوع على الرف فوق المدفأة.

وُضع ذاك الصندوق بجوار أربع صور مؤطرة ومصطفة بعضها بجوار بعض، وظل الوضع كذلك دون تغيير منذ فترة طويلة حسبما يتذكر بيتر. كانت الصورة الأولى لجده وهو في الثامنة عشرة من عمره، بينما كان يرتدي زيًّا عسكريًّا فخمًا، ويقف على عتبة المنزل، وتبدو عليه علامات الفخر والاعتزاز، وإلى جواره والداه اللذان لم يقابلهما بيتر في حياته من قبل.

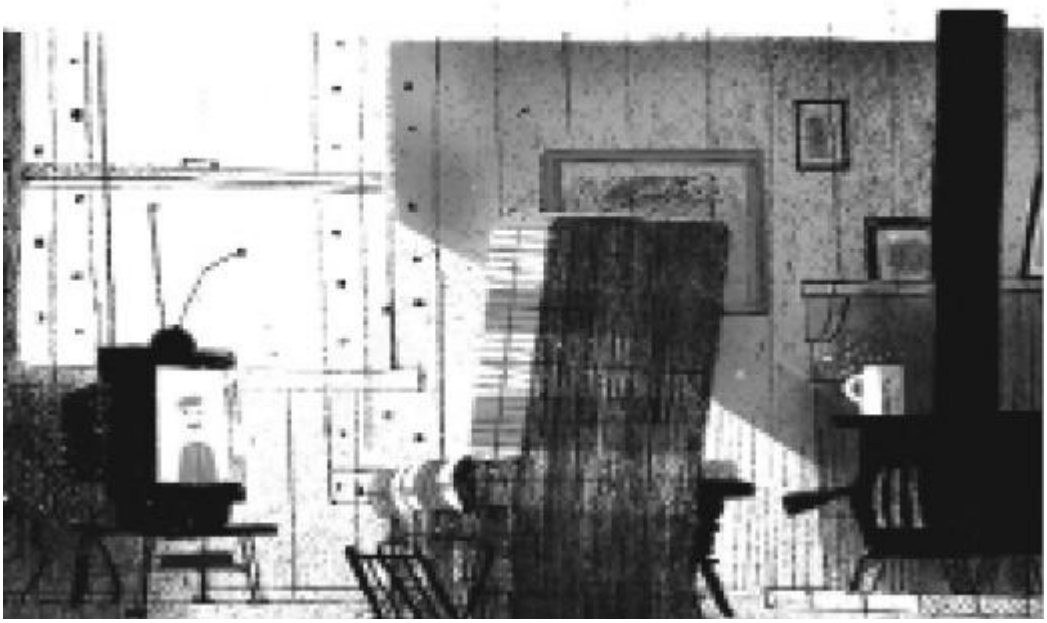

وبجوارها كانت صورة زواج جده بجدته التي لا يكاد يتذكرها بيتر. أما الصورة الثالثة، فكانت تظهر الزوجين وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامة فرحة بينما كانا ينظران إلى طفلهما الذي تبين أنه والد بيتر. أما الصورة الأخيرة، فكانت صورة بيتر نفسه، حيث يظهر وهو صبي صغير ذو أذنين بارزتين، يرتدي بدلة ويقف بين أمه وأبيه، بينما كان جده واقفًا على الجانب. وتنقل المشاهد الملتقطة في هذه الصور الأربع أحداثًا رائعة، وغير تقليدية، ربما لم يشهد بيتر معظمها، لكنها تمثل جزءًا حقيقيًّا من حياة جده.

ضيق الجد عينيه متأملًا، وأدرك بيتر أنه يفكر في أمر حصوله على الرماد. وكان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو من الأحق برماد الشخص المتوفى، الأب أم الابن؟ وعندئذ وقف بيتر بشكل أكثر استقامة مظهرًا إحساسًا بالحزم والإصرار.

أدار الرجل العجوز مقعده المهترئ، وشرع في ربط حذائه. وخفض صوت التلفاز تاركًا مقدم برنامج الألعاب يومئ بحماس دون صوت. وهنا سأل الجد بيتر قائلًا: «ما الذي تخطط لفعله بهذا الرماد؟».

أجابه بيتر بنبرة صارمة: «أريد أن أنثره بجوار قبر أمي، فهذا الرماد يخص زوجها»، قال ذلك لجده وهو ينظر في عينيه مباشرة، الشيء الذي تجنبه دائمًا؛ حيث كان دائمًا ما يشعر بالنقص والتلعثم لدى رؤية انعكاس صورته في عيني جده.

أصبحت نظرات بيتر أكثر حدة وجدية، ما أظهر عزمه الشديد على المضي قدمًا في تحقيق مطلبه؛ إذ شعر بأنه مدين لوالدته بذلك. فلم يعد الشعور بالذنب يفارقه في الآونة الأخيرة؛ إذ أحس بأن أمه كانت تتوقع منه القيام بشيء ما، ويعتقد أنه خذلها. وقد رأى أن نثر الرماد بجوار قبرها هو الأمر الذي يمكنه معالجة شعوره بالذنب، ومنحه إحساسًا بتلبية توقعاتها منه.

بدا الرجل العجوز على وشك التحدث محاولًا تقديم حجة مقنعة، بيد أنه حوَّل نظره إلى يد المقعد، وخدش بظفر إبهامه بعض بقايا الطعام الجافة الملتصقة به. وقد شعر بيتر باضطراب جده، الأمر الذي أوضح له أنه قد انتصر في تقديم حجته.

ثم نطق جده أخيرًا: «معك حق. متى ستغادر إذن؟».

أجاب بيتر: «عند انتهاء العام الدراسي، وأظنه سينتهي في وقت مبكر هذه السنة ما يسمح للطلاب الراغبين بالانضمام إلى كتيبة صغار محاربي تلوث المياه ...».

قاطعه الجد قائلًا: «نعم. نعم. أعرف تلك المؤسسة. يا له من أمر مضحك، إنهم ليسوا سوى مجموعة من الأفراد الذين يشاركون في الأنشطة الاجتماعية، ويتظاهرون بأنهم ينتمون لقوة عسكرية حقيقية، ويستغلون الأطفال من خلال تخصيص كتيبة خاصة بهم».

كان بيتر يختلف مع وجهة نظر جده بخصوص هذا الأمر، ويتفق مع فولا بأن النهج الصحيح الذي يجب اتباعه في هذا الصدد هو الاستفادة من التدريب العسكري، والمعدات، والأفراد لمعالجة الدمار الذي سببته الحرب خاصة فيما يتعلق بتلوث المياه. كما يرى أن فكرة كتيبة صغار محاربي تلوث المياه جيدة أيضًا؛ إذ تتضمن إشراك الأطفال في جهود

الحفاظ على المياه، وجعلها نظيفة تحت توجيه كبار المسئولين هناك وإرشادهم. لكنه عض على شفتيه في تلك اللحظة في تردد؛ إذ كان باله مشغولًا بشيء آخر، وهو الحصول على الرماد.

بذل الجد بعض الجهد أثناء نهوضه من المقعد مصدرًا تأوهًا خافتًا، ثم توجه نحو رف المدفأة. لكن بدلًا من أن يلتقط الصندوق المصنوع من الورق المقوى، أخرج ظرفًا بنيًّا من تحته، ثم قال: «لقد وصل أخيرًا بعد أن طال انتظاره».

رأى بيتر طابع البريد العسكري الملصق على الظرف من مكانه في الغرفة، فقال على الفور: «يا إلهي! هل ذكروا أخيرًا...»، ثم توقف قليلًا، وابتلع ريقه بصعوبة مضيفًا: «ملابسات وفاة ...».

فأجابه جده: «نعم. هل تريد أن تعرف ما حدث بالضبط؟».

أومأ بيتر برأسه في البداية رغبة في معرفة ملابسات وفاة والده، لكن التعبيرات التي بدت على وجه جده أربكته وجعلته يتراجع عن رغبته هذه. كان يدرك أن والده لم يمت بطلًا أثناء القتال، وهي الحقيقة التي باتا يعرفانها جيدًا. ما أثار بعض التساؤلات عن الغموض المحيط بحقيقة وفاة والده وملابساتها، وهو ما استمر طيلة ستة أشهر حتى الآن. كانت المعلومات الوحيدة المتوافرة لديهما هي أن والده أصيب بقذائف هاون معادية على بعد 160 كيلومترًا تقريبًا من قاعدته العسكرية. ويبدو أن بيتر قد وجد بعض العزاء في عدم وجود إجابة محددة فيما يتعلق بوفاة والده، ورأى أن ذلك أفضل من مواجهة الحقائق القاسية المتعلقة بوفاته. لذا لم يتردد، وقال لجده: «لا، لا أريد أن أعرف».

تقدم جده إليه وهو يمد يده بالظرف نحوه بصرامة وحزم، وقال له: «ربما ينبغي لك قراءته؛ كي لا تكرر خطأ والدك، فقد مات نتيجة حماقته وافتقاره لحسن التصرف. لذا عليك أن تقرأ ما فيه، لعلك تتعلم منه درسًا».

رفض بيتر تناول الظرف ودفعه بعيدًا، ثم قال: «لقد مات أبي في الحرب، وهذا هو كل ما في الأمر». لقد أخبر الجميع في المدرسة بهذه المعلومات، وأصبح معتادًا تكرارها. ونظرًا لأنه من الطبيعي أن يموت بعض المشاركين في الحرب، فلا حاجة لذكر أي تفاصيل إضافية متعلقة بظروف موتهم.

قال له جده عندئذ: «افعل ما يحلو لك، ولا تقرؤه إن شئت. لكن انتبه لما أقوله، كن حذرًا في التعامل مع الآخرين، ولا تتقرب منهم أكثر من اللازم».

طمأنه بيتر: «حسنًا يا جدي، لا تقلق، فسأفعل ما نصحتني به».

قال له جده: «كن قويًّا، ولا تستسلم للتحديات أبدًا، هل فهمت؟».

أجابه بيتر: «حسنًا يا جدي، فهمت». ثم توجه نحو رف المدفأة والتقط الصندوق. كان أثقل من المتوقع، لكنه مع ذلك كان أصغر من أن يستوعب رفات شخص بالغ بكل آماله ونجاحاته السابقة ما عكس له مدى ضآلة هذه الحياة. وضعه بيتر تحت ذراعه، وأحكم قبضته حوله. ثم قال في طريقه نحو الباب: «من الأفضل أن أعود إلى منزل فولا في أقرب وقت، فقد أوشك الليل أن يحل».

قال له جده: «انتظر!».

توقف بيتر بينما كانت يده على مقبض الباب. اعتقد أن جده قد يقترح عليه مرافقته لنثر الرماد، ورأى أنه سيكون اقتراحًا رائعًا للغاية. فقد توترت علاقته بجده منذ أن اختار العيش مع فولا، وهو ما يتضح من نظرات الازدراء التي كان يرمقه بها دائمًا. وربما يمكن لهذه الرحلة رأب صدع علاقتهما، والسماح لهما بأن يفهم أحدهما الآخر بشكل أكبر. إذا أبدى جده رغبته في مرافقته، فسيوافق بيتر على الفور.

لكن الأمر لم يكن كذلك؛ إذ اقترب منه جده، ووضع شيئًا ما في حقيبة ظهره، وقال له: «خذ هذا أيضًا».

ودون أن ينظر خلفه، علم بيتر أن هذا الشيء هو الظرف الخاص بوالده. كان ينوي التخلص منه لاحقًا. أدار مقبض الباب، لكن يبدو أن جده كان لديه المزيد ليقوله.

نصحه قائلًا: «كن حذرًا طوال الوقت قدر الإمكان، فقد امتلأ العالم بالأشخاص المخادعين المشاكسين».

قال له بيتر وهو يفتح الباب مانحًا الإذن للهواء البارد المنعش بالدخول: «حسنًا يا جدي، لا تقلق. فأنا لا أتخلى عن الحذر طوال الوقت».

5

جلس باكس على صخرة بجوار الممر الذي يسلكه للابتعاد عن السقيفة، وألقى أرضًا ذاك الفأر الذي أحضره معه إلى المنزل بعد أن نجح في اصطياده. وعلى الرغم من شعوره بالإرهاق نتيجة ليلة طويلة قضاها في الصيد، واستمتاعه بأشعة الشمس الدافئة على ظهره، ظل يقظًا، ولم يستسلم للنوم.

وكانت زوجته وصغاره قد خرجوا من الجحر.

اعتادت بريسل وضع صغارها في تلك المنطقة الرملية الواقعة بالقرب من مدخل الجحر في أيام الطقس المعتدل. ومع أنها على بعد خطوات بسيطة من جحرهم الآمن، أدرك باكس جيدًا الخطر الذي يمكن أن يشكله صقر طائر، أو ذئب متسلل. ومن ثم جلس في مكانه هذا حتى يتمكن من تهيئة الأجواء الآمنة لعائلته، راصدا بعينيه الثاقبتين أي خطر وشيك يترصدها أرضًا كان أو جوًّا.

أتى صباح هذا اليوم حاملًا معه نسمات الربيع العليلة التي تعلن عودة الحياة إلى تلك المزرعة المهجورة. تغلغلت رائحة زهرة العسل الأجواء، حيث تسلقت برشاقة سطح السقيفة ما أضاف لمسة من الجمال البري إلى ذاك الهيكل الخشبي. كما نما زهر البرسيم

برائحته الطيبة، وضيق الممرات تدريجيًّا بانتشاره على نطاق واسع. وشاركت طيور السنونو والسناجب بدورها في هذا المشهد النابض بالحياة متخذة من الحظيرة موطنًا لأعشاشها.

وجد الجميع الراحة والأمان بين جنبات هذه المزرعة، وكان الوادي الفسيح الذي سكنوه من قبل رائعًا أيضًا ومناسبًا لهم. غير أن وصول هؤلاء الأفراد المتعطشين للحرب إلى واديهم الآمن قد أدى إلى زعزعة الأمن والاستقرار فيه. فأصبحت هذه المزرعة المهجورة والمزارع الأخرى المجاورة ملاذًا آمنًا لجميع الحيوانات والطيور المتضررة؛ إذ لم تطأها قدم بشرية على الإطلاق حتى الآن.

حوَّل باكس انتباهه لمراقبة صغاره الذين اندهش من تصرفاتهم كثيرًا؛ حيث كانوا يسيرون بخطوات مترنحة، ثم يسقطون فجأة دون سبب واضح، وأحيانًا يقفزون إلى أعلى على نحو مفاجئ. بيد أنه مع كل ذلك، كان يشعر بقوة جذب كبيرة تشده إليهم.

بات بإمكانه الآن التمييز بينهم ولو من مسافة بعيدة.

كان أكبرهم، ذكرًا يشبه في تحركاته ولد الدب. فكان يتجول بثقة وجرأة في محيط المنطقة الرملية المخصصة للعب، ثم لا يلبث أن يعود إلى أمه في خطوات متثاقلة.

أما أصغر هذه المجموعة فكان ثعلبًا ذكرًا أيضًا، يغلب عليه التردد وسرعة القلق والتوتر، ويميل إلى الحذر الشديد؛ حيث يفر هاربًا لدى شعوره بأي تهديد محتمل، مسموعًا كان أو مرئيًّا.

أما الثالثة، فكانت الأنثى الوحيدة، ودائمًا ما تميل إلى الانطلاق خارج المساحة المخصصة للعب متوجهة نحو عشب المرج الأخضر اليانع بمجرد خروجها من الجحر. ودائمًا ما ترفع ذيلها إلى الأعلى منتصبًا مع توجيه أذنيها إلى الأمام في إصرار وحزم.

رمقها باكس في تلك اللحظة وهي تبتعد عن أخويها، حيث كانا ملتفين حول أمهما يرضعان. طرفت برموش عينيها سريعًا لدى تعرضها لأشعة الشمس، ثم أخذت تشم الروائح المنبعثة من جميع الاتجاهات كأنها تفكر في الرائحة التي يجب أن تتبعها، ثم اتخذت قرارها أخيرًا منطلقة في المسار الذي حددته.

نهضت بريسل على الفور، وأمسكت بابنتها من مؤخرة رقبتها، وأعادتها مرة أخرى إلى المنطقة الرملية المخصصة للعب. ثم استلقت مجددًا، وتبعها الثعلبان الذكران على الفور، بيد أن تلك الصغيرة المشاكسة عادت للابتعاد عن أمها مرة أخرى.

نهضت بريسل بسرعة مجددًا، فاندفع ابناها جانبًا على نحو مفاجئ، وتبعت ابنتها إلى أن أعادتها مرة أخرى.

لاحظ باكس تسلل تلك المغامرة الصغيرة مرة أخرى بعيدًا عن أمها وأخويها، وسيرها في المسار الذي سلكته من قبل. بيد أن بريسل لم تتبعها هذه المرة، وإنما نظرت إلى باكس الذي فهم مقصدها على الفور.

نهض من فوق الصخرة التي كان مستلقيًا عليها، ثم استلقى على جانب الطريق مادًّا إحدى رجليه الأماميتين منتظرًا مرور ابنته للإمساك بها بلطف ومنعها من التقدم أكثر من ذلك.

توقفت الصغيرة ثلاث مرات في طريقها؛ لتتفحص دودة، ثم جوزة بلوط، ثم ريشة متساقطة، لكنها كانت ترفع رأسها سريعًا في كل مرة معاودة استكمال طريقها.

وعندما وصلت إلى المكان الذي كان يستلقي فيه باكس، توقفت. ثم رفعت رأسها وأمالته قليلًا إلى الجانب، وهي تنظر إلى والدها لحظة. وما لبثت أن تسلقت سريعًا رجله الأمامية حتى وصلت إلى تلك المنطقة من الفرو الأبيض الممتد أسفل رقبته.

عدل باكس من وضعيته قليلًا حتى تتمكن ابنته من الوقوف عليه بثبات، لكنها سقطت فجأة على صدره برفق، واستقرت فوق قلبه مباشرة، كأنها وجدت أخيرًا الملاذ الآمن الذي

كانت تتوق إليه. وما لبثت أن غطت في نوم عميق، بينما مدت أرجلها الأربع ورفعت ذيلها لأعلى.

وظل باكس كما هو تمامًا جامدًا بلا حراك.

وعلى الرغم من خفة وزن تلك الصغيرة ذات الفرو الرمادي المستلقية على صدره، شعر باكس بقدر كبير من المسئولية يلقى على عاتقه كأن صخرة ضخمة تجثم عليه.

وتعهد بأن يلتزم بتلبية احتياجات هذه الصغيرة مهما كانت.

6

عندما لاحظ بيتر اقتراب فولا من الكوخ قادمة من ناحية الحظيرة، أخذ يتفحص أرضية الكوخ مرة أخرى. وكان قد غطى الأرضية المصنوعة من ألواح خشب الصنوبر بطبقة من الشمع، وعمل على تلميعها ثلاث مرات، ما منحها مظهرًا لامعًا بشكل مذهل.

فتح الباب بقوة وحماس، فغمرت شمس الظهيرة المكان، وألقت وهجًا دافئًا على جزء من ألواح الأرضية المستطيلة، ما أضاف إليها لونًا عسليًّا رائعًا. وهنا غمر بيتر شعور كبير بالفخر لما بدا عليه كوخه من جمال وروعة.

وقفت فولا على العتبة الخرسانية الصغيرة واضعة يدها على إطار الباب. ثم قالت وهي تتفحص بعينيها أرضية الكوخ في حالتها النهائية: «أخيرًا، يُسمح لي برؤية المكان». اتسعت حدقتا عينيها دهشة وإعجابًا، ومع أنها لم تقل إلا: «أووه، يا إلهي!»، فإن هذه الكلمات مصحوبة بتعابير وجهها كانت تعكس مدى إعجابها بجمال الكوخ، وثنائها على حسن صنيع بيتر.

تراجع بيتر إلى الخلف قليلًا مفسحًا المجال لفولا، ثم قال لها: «تفضلي بالدخول، فالأرضية جافة تمامًا».

تجولت في جميع أرجاء المكان متفحصة عمله بدقة، تمامًا كما تمنى أن تفعل.

وعلى الرغم من الصعوبات التي شكلتها ساقها الاصطناعية، جثت على ركبتيها، ومررت أصابعها المتمرسة على نقاط الاتصال بين ألواح الأرضية لتفحص مدى نجاح بيتر في محاذاة الألواح وربطها معًا، ثم قالت: «لقد تفوق التلميذ على المعلم».

سألها بيتر: «ماذا تقصدين بذلك؟».

أجابته: «أقصد أنك لم تكتف بمحاذاة ألواح الأرضية بإحكام بل تجاوزت التوقعات من خلال ترتيب الألواح الخشبية بطريقة تحافظ على المظهر الموحد للأنماط الطبيعية في الخشب، بالإضافة إلى غرز رءوس المسامير أسفل سطح الخشب قليلًا للحفاظ على نعومة السطح، وسد الثقوب والفجوات البارزة. أنا مندهشة حقًّا لما حققته».

أدار بيتر رأسه سريعًا محاولًا إخفاء ابتسامة الرضا التي بدت على وجهه، بيد أن فولا تمكنت من رؤيته.

بادلته الابتسام قائلة: «لا يجدر بك إخفاء فخرك بنفسك، إنك تستحق ذلك بجدارة؛ فقد شيدت منزلًا رائعًا خاصًّا بك».

وهنا تلاشت ابتسامة بيتر، وقال في دهشة: «لكن هذا ليس منزلي».

نهضت فولا على رجليها قبل أن تجيبه، ربما لأنها أرادت إظهار الحزم والثقة بإجابتها، ثم قالت له: «بالطبع، إنه منزلك، الخاص. ففي النهاية، أنت من صنعته بنفسك. فهل توقفت يومًا للتفكير في سبب إصراري على قيامك بكل خطوة في هذه المهمة بنفسك؟».

هز بيتر كتفيه قائلًا: «لأنني أردت تعلم كيفية القيام بكل الخطوات بمفردي، لذا طلبت منك أن تدعيني أقوم بكل شيء بنفسي».

قالت فولا له: «هذا صحيح. لكنني أردت أيضًا أن تربطك علاقة وطيدة بهذا المكان، وتشعر بالارتباط القوي تجاهه. فيعيش داخلك كما تعيش داخله».

قال بيتر: «لا، لا، هذا لا يهم. سوف أنام وأدرس هنا طوال فترة إقامتي معك. لكنني أريد أن أؤكد أن هذا ليس منزلي، بل إنه منزلك، وهذه أرضك وموطنك».

ردت عليه فولا: «حسنًا، بخصوص الأرض، كنت أنوي مناقشة ذلك الأمر معك. ويبدو أن هذه هي اللحظة المناسبة».

توجهت فولا نحو رف الأدوات المعلق على الجدار البعيد في الكوخ، واتكأت عليه، ثم قالت بنبرة متأنية واثقة تعكس إعدادها الجيد لما أرادت قوله الآن: «لقد فقدت كثيرًا من الأشخاص والأشياء على الرغم من أنك لا تزال في سن صغيرة يا بني، وأنا بصدد إعداد المستندات القانونية اللازمة لمنحك نصف ممتلكاتي. أريد منك فقط أن تكون مطمئنًا لمعرفة أن هناك مكانًا خاصًّا بك تلجأ إليه مهما حدث لك، وأينما قادتك الحياة، وسواء كنت أنا على قيد الحياة أم لا».

اندهش بيتر لدى سماعه هذا العرض غير المتوقع. فقد أثار هذا الأمر داخله مشاعر خوف وقلق مثلما حدث له بالضبط في تلك المرة التي كان يلعب فيها مع أصدقائه على نهر متجمد، ووجد نفسه فجأة واقفًا على طبقة رقيقة من الجليد. إن الرهبة الشديدة النابعة من إدراكه المفاجئ وجود مياه مظلمة وشديدة البرودة يمكنها ابتلاعه في أي لحظة لا تزال عالقة في ذهنه. وقد تردد في داخله الآن صدى الذعر والرهبة اللذين شعر بهما آنذاك.

قالت فولا: «لقد قررت أن أمنحك نصف الممتلكات الأقرب إلى الأماكن الحضرية»، ثم أضافت، وهي تهز رأسها بحزن واستنكار: «يبدو أنني لم أتغير أو أغير تفضيلاتي وأولوياتي على الرغم من محاولتي تحري العدل في هذه القسمة، أليس كذلك؟».

قال لها بيتر: «لا، أنا لا أريد أي شيء».

قالت فولا: «أنا أحاول التخطيط لمستقبلك يا بيتر. فقد أوشكت على إتمام الرابعة عشرة من عمرك. وربما ستلتحق بالجامعة قريبًا، وربما لا تعود إلى هنا مرة أخرى، لكن إن عدت...» ثم أشارت بكلتا يديها في جميع أنحاء الكوخ ، وأضافت: «يمكنك أن تضيف إلى هذا الكوخ البسيط، مطبخًا، وغرفة نوم في الخلف تطل على أشجار الخوخ. وعلى الرغم من تفضيلي أسلوب الحياة البسيط، فإنني لن أمنعك بكل تأكيد من استخدام الكهرباء وأدوات السباكة اللازمة».

رفض بيتر عرضها مجددًا، وقال لها: «لا، أنا لا أريد أيًّا من ذلك».

ضحكت فولا قائلة: «حسنًا، حسنًا. يمكننا التغاضي عن موضوع الكهرباء في الوقت الحالي. لكنني أعتقد أننا قد نناقش الأمر لاحقًا».

أدار بيتر ظهره مبتعدًا عن فولا، وقال لها: «لا، بل أقصد أني لا أريد أيًّا من الكوخ أو الممتلكات».

سمع وقع رجلي فولا وهي تقترب منه، ثم قالت له: «إن كثيرًا من الأشخاص في هذا البلد على استعداد تام لفعل أي شيء مقابل الحصول على المقومات المعيشية الجيدة التي نتمتع بها. فنحن لدينا مياه نظيفة تنبع مباشرة من باطن الأرض، ومن غير المرجح أن يتغير ذلك في المستقبل».

حافظ بيتر على موقفه الرافض قائلًا: «هذا لا يهمني على الإطلاق».

قالت له فولا محاولة إقناعه: «أعتقد أن امتلاكك مكانًا تحبه ويوفر لك الشعور بالأمان والطمأنينة، هو ما يرغب فيه والداك بشدة».

شعر بيتر بنوبة من الذعر والخوف تنتابه، وعلى الرغم من عدم وضوح السبب الدقيق وراء هذه المشاعر، كانت تزداد قوة بمرور الوقت. وعندئذ استجمع بيتر شجاعته، وقال لها: «لكنني لا أحب أي شيء في هذا المكان».

قالت له فولا بنبرة هادئة واثقة: «لكن هذا ليس صحيحًا. فقد شهدت علامات حبك لهذه الأرض، وهذا المكان، من خلال ما قمت به في كل من الغابة والبستان».

عارضها بيتر: «لا، ليس الأمر كذلك إطلاقًا».

قالت له: «لا، بل شاهدتك وأنت تقطع الأخشاب وتشكلها، وتشيد هذا الكوخ. لقد قمت بذلك بكل حب وشغف، وإنني قادرة على تبين عاطفتك القوية وحبك لكل هذه الأشياء».

واصل بيتر معارضته لها قائلًا: «أنا لا أُكن أي حب لأي من هذه الأشياء. ولا أرغب في أي شيء منها. لا الأرض، ولا الخشب، ولا...». ثم أخذ ينظر حوله بنظرات محمومة وهو يتجول بعينيه في أرجاء المكان، ملاحظًا كل عمل بسيط قام به في سبيل تشييد هذا الكوخ على أكمل وجه. وأدرك في تلك اللحظة أنه غامر من البداية بإقدامه على هذا العمل، فكان كمن سار على جليد رقيق قد ينهار في أي لحظة. فأمسك الفأس وألقاها بقوة على الأرض اللامعة ما أحدث شقًّا صغيرًا خشنًا بها، وأضاف أخيرًا: «هذا المكان الحقير».

مدت فولا ذراعيها نحوه لاحتضانه في محاولة لتهدئته، وسألته في دهشة: «ماذا هناك يا بني، ما الذي قلته وأزعجك هكذا؟». وقد جعلته كلماتها وتصرفاتها يدرك جيدًا الأمر الذي كان يزعجه.

تراجع بيتر على الفور مبتعدًا عنها: «أنت لستِ أمي!».

جفلت فولا، ثم سحبت ذراعيها على الفور، وعقدتهما فوق صدرها، ثم قالت موضحة: «أعلم ذلك. أعلم ذلك. لكنني كنت أقصد أن ...».

قال بيتر محاولًا التخفيف من حدة كلماته: «لست بحاجة لمساعدة أي أحد على الإطلاق».

لكن كلماته كانت قد تركت أثرًا سيئًا في نفس فولا التي أخذت تنظر إليه بنظرات تملؤها الشفقة والتعاطف، أكثر مما كانت تشعر به تجاه نفسها. شعر بيتر بعدم الارتياح وانسحب

مبتعدًا عنها، وقال في قرارة نفسه هيا! لا تتردد! ابتعد، ولا تنظر خلفك!

سمع بيتر التنهيدة العميقة التي أطلقتها وهي تلتقط الفأس من الشق الذي أحدثته في الأرض، ثم سمع صوتها وهي تضعها بعناية على الرف، وتتأكد من محاذاتها بشكل صحيح مع الأدوات الأخرى كما علمته. سمع وقع خطواتها وهي تسير نحو الباب، ثم وهي تهبط العتبة الخرسانية الصغيرة، وأخيرًا وهي تغلق الباب خلفها. لكنه مع كل ذلك لم يلتفت خلفه.

وعندما انقطعت الأصوات تمامًا، ولم يعد يسمع أي شيء، أسرع نحو النافذة.

رآها وهي تسير في الطريق مبتعدة عن الكوخ بينما بدا ظهرها متصلبًا ما عكس توترها بعض الشيء. شعر ببعض الألم يعصف به، فانحنى إلى الأمام ممسكًا بصدره الذي كان يؤلمه بشدة حتى شعر بأنه سيموت من شدة الألم.

7

تمشى باكس على مهل عائدًا إلى جحره، ومستمتعًا بالنسيم العليل والأصوات العذبة التي ملأت الأجواء في ليلة ربيعية رائعة. لكن مع اقترابه من أطراف المزرعة المهجورة، دفعه القلق على عائلته الصغيرة إلى زيادة سرعته عبر الجزء المتبقي من الغابة، بينما كانت أشعة الفجر الأولى تتسلل تدريجيًّا لتنير الأفق.

وما إن لاحت السقيفة في الأفق حتى توقف باكس مكانه. كانت بريسل قد وسَّعت أمس الجحر بعض الشيء ليستوعب صغارها الآخذين في النمو. وتلألأت حبات الرمال المحفورة حديثًا مثل ذرات الصقيع على العشب. كان الهدوء يسود الحقول المحيطة بالمكان، لكن باكس آثر المكوث على الأرض ومراقبة محيط السقيفة بتيقظ.

بدأت مجموعة الصغار هذه الأيام محاولة استكشاف محيطها خارج الجحر. وقد خططت بريسل لاصطحابهم إلى نبع المياه في ذلك المساء، لتعليمهم كيفية الشرب بشكل مستقل. وكان من المفترض أن يذهب باكس بصحبتهم؛ إذ تتطلب رعاية هؤلاء الصغار والسيطرة عليهم جهود كلا الوالدين الآن.

وفي تلك اللحظة لاحظ باكس بعض الحركة بالقرب من أسفل درجات سلم السقيفة. انتابه شعور شديد بالتوتر اقشعر له شعر ظهره، لكن بعد المراقبة الدقيقة تبين له أن تلك الحركة ناتجة عن جسم صغير ورقيق يتحرك حركات متقطعة غير متزنة، وليست حركة حيوان مفترس، واتضح له أن أحد الصغار كان في الخارج بمفرده.

لم تكن بريسل لتسمح بذلك على الإطلاق.

وكانت تلك الصغيرة المشاكسة هي الوحيدة القادرة على تحدي والدتها ومخالفة تعليماتها.

أخذ باكس يلاحظ حركاتها لحظة. فرأها تخفض رأسها نحو الأرض ثم تتوجه نحو الجزء الخلفي من السقيفة مسترشدة بحاسة الشم لديها. تقدمت بحركات حذرة ومدروسة واضعة ساقًا أمام الأخرى، ثم شقت طريقها في البداية نحو مجموعة من الشجيرات، ثم غيرت اتجاهها نحو أجمة من أشجار التوت.

أدرك أن الصغيرة كانت تتبع المسار نفسه الذي سلكه هو قبل ساعات قليلة عندما غادر. ويبدو أنها كانت تتعقب رائحته.

نادى عليها.

فاستدارت ناظرة إليه، ثم أصدرت صوتًا رقيقًا. وبدأت التحرك نحوه بخطوات خفيفة مرحة.

اندفع نحو الصغيرة مسرعًا، قاصدًا أن يوبخها على عصيانها ويعيدها إلى الجحر مع أخويها. ولكن ما إن وصل إلى المكان الذي كانت تقف فيه حتى انقض عليها طائر كبير ذو جناحين قويين. مشرعًا مخالبه الحادة التي اخترقت الظلام مستهدفة رأس الصغيرة.

قفز باكس مسرعًا، وتمكن بالفعل من الإمساك بفكه، بالبومة ذات القرنين من فخذها المليء بالريش، بينما كانت تطير إلى أعلى، ولكن لسوء الحظ كانت البومة لا تزال تمسك الصغيرة

بقوة بمخالبها الحادة.

نقرت البومة ببراثنه باكس، لكنه لم يدعها تفلت.

شعر باكس بأن البومة تسحبه لأعلى بينما كانت ترفرف بجناحيها القويين، لكنه ظل صامدًا، ورفع قائمتيه الخلفيتين لأعلى محاولًا خدش بطن البومة ببراثنة، لكنها ظلت مع ذلك ممسكة بقوة بفريستها بين مخالبها.

شدد باكس قبضته وغرس أسنانه في رجل البومة حتى شعر بأنها تخترق عظمها المجوف وتكاد تحطمه. ثم وجه لها ضربة قوية برأسه حتى أطلقت البومة صرخة عالية وحررت الصغيرة من بين مخالبها.

سقطت الصغيرة على الأرض بأمان بينما طارت البومة بعيدًا وهي ترفرف بجناحيها.

فحص باكس ابنته بعناية، ولم يجد سوى بعض الجروح التي سببتها مخالب البومة في كتفيها، وبخلاف ذلك لم تصب بأي أذى، بيد أنها كانت ترتجف من شدة الخوف.

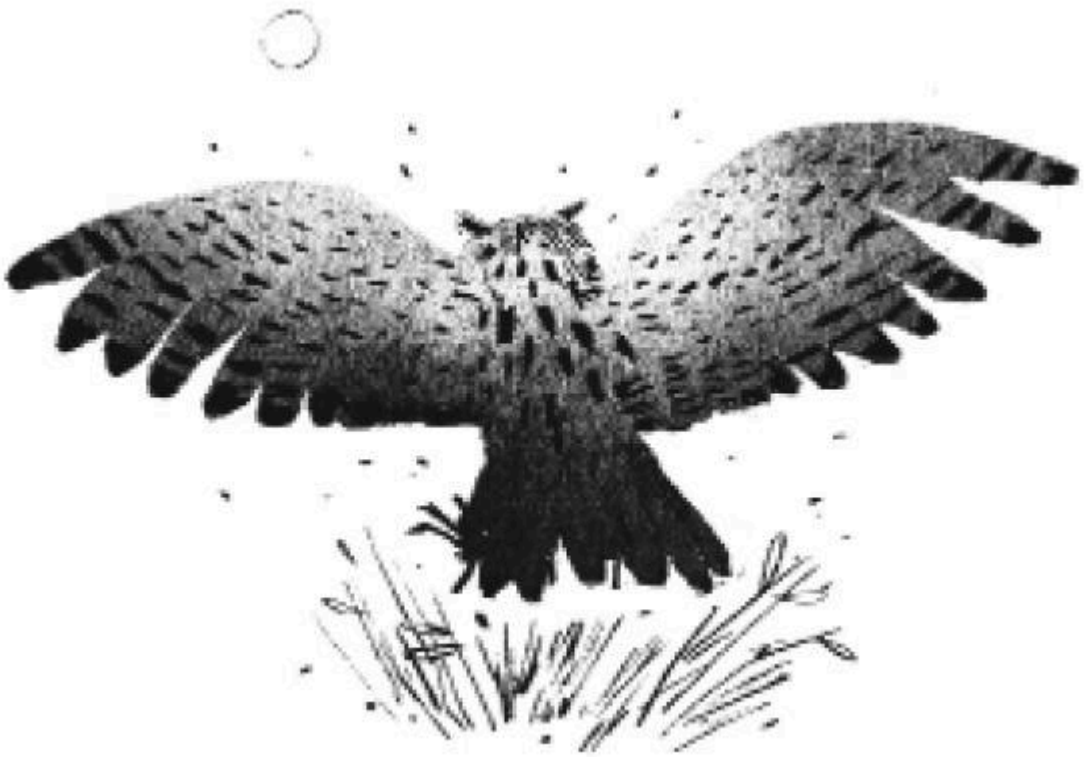

لعق باكس جروحها بلطف، ثم لفها بجسده، ما منحها بعض الدفء والطمأنينة، لكنها مع ذلك ظلت ترتجف، وقلبها ينبض من شدة الخوف والقلق.

كان قلب باكس يخفق بشدة أيضًا، لكنه كان يخاف شيئًا مختلفًا تمامًا عما كانت تخافه ابنته.

قال لها لا بد أن تنظري دائمًا للأعلى، فالخطر القادم من هذا الاتجاه عادة ما يكون صامتًا.

لكن مع ذلك لم تكن هذه النصائح كافية لحمايتها، ففي الحقيقة لن يكون هناك أي شيء كافٍ لضمان سلامتها المطلقة.

8

صاح بن: «هيا بنا، نحن هنا لنتدرب».

هب بيتر واقفًا، وهو يشعر بالحرج، ثم قال: «أنا آسف، حسنًا هيا فلنبدأ». دائمًا ما كرر هذا الفعل مرارًا وتكرارًا. إذ على الرغم من أنه لم يشعر بأي رغبة في مشاهدة التلفاز في منزل فولا، كان كلما ذهب إلى منزل بن مكث في غرفة المعيشة محدقًا إلى شاشة التلفاز في ذهول حتى يكزه بن في كتفه مذكرًا إياه بالهدف من وجودهما هنا معًا.

نهض بيتر والتقط قفازه وتبع بن إلى الخارج.

انضمت إليهما أستريد وهي أخت بن البالغة من العمر خمس سنوات، كما كانت تفعل دائمًا. وقد أطلق عليها بيتر سرًّا لقب «إيكو»[1]؛ لم يكن ذلك فقط لأنها تقلد كل ما يقوله أو يفعله شقيقها، أو لأنها كانت نسخة مصغرة منه بشعرها الأشقر، وجلدها المنمش وطبيعتها الحازمة، وإنما لأنها كانت أقل نشاطًا وانخراطًا في العالم من حولها، وأكثر ميلًا لتقليد كل شيء. بدا الأمر كأنها لم تكن حاضرة في الحياة اليومية بشكل كامل، وكانت تبدو غير مبالية بأي شيء، باستثناء حقيقة أنها كانت تعشق بن بكل إخلاص.

رفعها بن ووضعها على إحدى درجات الشرفة، ووضع بجانبها كيسًا من بذور دوار الشمس، ثم قال لها: «ابقي هنا، وراقبي أغراضنا جيدًا، وكوني منتبهة، حيث سنقوم برمي الكرة بقوة».

امتثلت لأوامره قائلة: «حسنًا».

خلع بيتر سترته الثقيلة، وكان الربيع قد حل الأسبوع الماضي بأجوائه الدافئة، ما جعل الطقس مناسبًا للعب البيسبول. كما كان الممر الصخري مثاليًّا أيضًا للعب الكرات الأرضية المرتدة. انخرطا في سلسلة من الرميات المنخفضة الموجهة بشكل دقيق نحو كل منهما، وتمكنا من التقاط الكرة في معظم الأوقات، على الرغم من عدم القدرة على توقع مسارها، وعدم دورانها بشكل ثابت. كان اللعب مع شخص يشارك بيتر حبه العميق للبيسبول، ويتمتع بمستوى مماثل من التركيز، تجربة ممتعة للغاية. كان كل منهما يسخر من الآخر بطريقة هزلية متى لم يتمكن أي منهما من الإمساك بالكرة. وكانا يستمتعان كثيرًا بهذا الأمر، فقد أصبح مثل هذا المزاح مألوفًا بينهما منذ عام تقريبًا.

انحرفت إحدى الكرات المتدحرجة بشكل غير متوقع، واصطدمت بزاوية المنزل قبل أن تتدحرج إلى المزارع القريبة. وسرعان ما ذهب بن لإحضارها، وفي طريق عودته صاح قائلًا: «سيتفاجأ فريق ويستفيل بأدائنا في المرة المقبلة».

خلع بيتر قفازه، وتظاهر بتعديل الرباط الخاص به، ثم قال: «لن أشارك في بطولة البيسبول للهواة خلال هذا الصيف».

سأله بن متعجبًا: «ما الذي تتحدث عنه؟».

التقط بيتر الكرة الخاصة به، ووضعها بدقة في قفازه. كان التدريب على وشك الانتهاء نظرًا لما سيقوله بعد قليل، وهو القرار الذي كان قد اتخذه الليلة الماضية: ثم نطق أخيرًا: «لقد قررت الانضمام إلى كتيبة صغار محاربي تلوث المياه».

ضحك بن: «لا، أنت لن تنضم إليهم بالتأكيد. إنهم لن يأتوا إلى هنا، إن مياهنا جيدة، ولا تحتاج إلى جهودهم على الإطلاق. ارتدِ قفازك ثانية» ثم عاد مسرعًا إلى مكانه.

قال له بيتر: «لا، اسمعني فحسب. أعلم أنهم لن يأتوا إلى هنا، وإنما أنا من سيذهب إليهم. سأغادر يوم السبت».

تسمر بن في مكانه بلا حراك، واضعًا يده في خصره، وسأله: «ستذهب إلى أين؟».

أجابه بيتر: «سأعود إلى موطني». لقد خطرت بباله هذه الفكرة الليلة الماضية تحديدًا، عندما علم أن المسئولين في كتيبة محاربي تلوث المياه قد خططوا لمعالجة المياه في أحد المواقع في بلدته القديمة، وقرروا الاستعانة بجهود صغار المحاربين، لذا لم يعد بحاجة إلى قبول عرض فولا بالحصول على منزل، لأن لديه واحدًا بالفعل هناك. ومن المفترض أن يقضي فترة من الوقت مع أعضاء صغار محاربي تلوث المياه هناك حيث سيكون على مسافة قريبة من منزله.

قال له بن: «لكن هذا المكان تفصله مسافة كبيرة عن هنا، نحو 160 كيلو مترًا».

قال له بيتر: «لا، بل 483 كيلومترًا تحديدًا».

فسأله بن: «وهل ستدعك فولا تفعل ذلك؟».

هز بيتر كتفيه في تشكك قائلًا: «سأخبرها الليلة بما أنوي فعله، ولا بد أنها ستدعني أذهب».

استدار بن مبتعدًا عن بيتر، ثم ألقى كرة البيسبول فوق سقف المرأب.

فهم بيتر الرسالة غير المعلنة التي نقلتها تصرفات بن؛ فقد خلق حبهما المشترك للبيسبول رابطًا فريدًا بينهما، ما مكنهما من التواصل بفاعلية فيما بينهما. فمن خلال رمي الكرة والتقاطها، اكتسب كل منهما فهمًا جيدًا لحركات الآخر، وتمكنا من التعبير عن مشاعرهما الحقيقية بكل صراحة ما داما منخرطين بنشاط في اللعبة، ومركزين بشكل كبير على

حركة الكرة أثناء اللعب. كان لسان حال بن في تلك اللحظة يقول حسنًا، أريد قضاء بعض الوقت بمفردي للتفكير في هذه الأخبار.

شعر بيتر فجأة بعدم الرغبة في ترك بن بمفرده؛ فدائمًا ما كان هو الداعم الرئيسي له منذ يومه الأول في المدرسة، حيث كان يشعر بالتوتر كونه تلميذًا جديدًا في بيئة جديدة، بالإضافة إلى شعوره بالوحدة بعد أن فقد باكس.

قال بيتر دون أي تفكير: «يمكنك أن تأتي معي، حيث نتشارك خيمة واحدة، فقد سمعت أن هناك العديد من الأنشطة التي يمكننا القيام بها هناك، مثل قيادة بعض آلات الحفر الصغيرة، والتجديف وجمع بعض العينات، و...».

قاطعه بن: «لا، لا أستطيع الذهاب معك».

قال بيتر عندئذ: «لا، بل تستطيع المجيء ما دمت تجاوزت الثانية عشرة من عمرك، ووقع والداك بالموافقة على الأوراق المقدمة إليهما».

قال بن مشيرًا إلى الشرفة حيث تجلس أخته التي كانت تصب بذور دوار الشمس على رأسها: «لا، لا أستطيع. فهي تحتاج لإجراء عملية ولا بد أن أكون معها».

هبطت أستريد سريعًا من الشرفة وتوجهت نحوهما كأنها أدركت أنهما كانا يتحدثان عنها. ترك بن كرة البيسبول التي كان يحملها، واحتضنها بحرارة، ثم بدأ بإزالة بذور دوار الشمس من شعرها.

تراجع بيتر إلى الخلف قليلًا، ثم قال: «يا إلهي! هل تعني أنها قد...؟».

قال بن وهو يطوق أخته بذراعيه بقوة أكبر: «ستكون على ما يرام، لكنها ستشعر بالخوف الشديد إن لم أكن معها لدعمها».

رددت أستريد كلامه: «سأشعر بالخوف الشديد بالفعل». لكن بيتر رأى الابتسامة مرسومة على شفتيها، بينما بدت علامات الرعب والخوف على وجه بن.

أدرك فجأة في تلك اللحظة أنه أصبح محصنًا ضد الشعور بالخوف نتيجة تعرضه للكثير من الخسائر من قبل، فقد خسر كلًّا من أمه وأبيه حتى ثعلبه المفضل باكس. وهنا أدرك أن خسارة كل ما كان يحبه يعني أنه لم يعد لديه ما يخسره.

ومن ثم بعد أن أصبح الآن في الثالثة عشرة من عمره، لم تعد الحياة قادرة على إلحاق الأذى أو الألم به مرة أخرى.

لكنه مع ذلك نصح صديقه قائلًا: «توخَّ الحذر دائمًا. فما زال هناك الكثير من الأشياء التي تحملها لك الحياة».

رفع بن نظره إليه، وسأله: «ماذا تعني بذلك؟».

لاحظ بيتر كيف أمسك بن بشعر أخته من الجذور حتى لا يؤلمها وهو يلتقط بذور دوار الشمس منه. ورأى بيتر مع ذلك أنه ما زال أمام صديقه الكثير من التحديات ليواجهها، والخسائر التي لا بد أن يتعرض لها. وأنه لا بد سيمر بتجربة الألم المريرة حتمًا.

أما هو، فقد مر بها بعد أن فقد كل ما كان يخاف عليه، ثم قال: «لا شيء». وسحب طرف قبعته للأسفل قليلًا، وأسرع نحو دراجته، وقال أخيرًا: «أراك لاحقًا». ثم انطلق سريعًا عبر الممر.

صاح بن: «مهلًا! ربما أستطيع أن آتي معك إن تمكنت من العودة في الوقت المناسب...».

قال له بيتر: «لا عليك. لا أريد صحبة على أي حال». ثم تحدث في قرارة نفسه قائلًا هيا! لا تتردد! ابتعد، ولا تنظر خلفك!

أخذ يفكر وهو في طريق عودته إلى منزل فولا فيما حدث في الحال، وكيف تجنب بصعوبة احتمالية أن يكون معه رفيق في رحلته. فقد أدرك أن آخر ما يحتاج إليه هو أن يرافقه أحد خلال هذه الرحلة، بل أن يتخذ رفيقًا في الحياة بشكل عام.

أشارت فولا إلى موقع محدد على خريطة منشورة في إحدى الصحف كانا يطلعانها معًا. ثم قالت له: «لقد أنشأ أفراد كتيبة محاربي تلوث المياه قاعدتهم هنا. بالقرب من بحيرة اصطناعية، تقع على بعد ثمانين كيلومترًا من منزلك السابق».

أومأ بيتر برأسه ردًّا على ذلك دون أن ينطق بكلمة، فعلى الرغم مما قاله لـ بن، وما سببه لـ فولا من ضيق وألم في اليوم السابق، اندهش كثيرًا لرد فعلها لدى علمها برغبته في العودة إلى موطنه الأصلي. فقد توقع منها أن تجادله، أو تقاوم رغبته هذه، لكن كل ما قالته هو: «إن هذه مسافة بعيدة للغاية، لكنني أتفهم رغبتك».

تتبعت فولا مسارًا على الخريطة بإصبعها قائلة: «إن أفراد الكتيبة يعملون حاليًّا في اتجاه مجرى النهر. وبعد الانتهاء من مهمتهم عند البحيرة التي من المتوقع أن تستغرق أسبوعًا تقريبًا، سيتجهون جنوبًا على طول النهر».

راقب بيتر إصبع فولا وهي تشير إلى موقع محدد على الخريطة، وتحديدًا المكان الذي يتسع فيه النهر بجوار المصنع القديم. كان هذا هو المكان الذي وجد فيه باكس مرة أخرى في الربيع الماضي بعد أن تخلى عنه، وهو المكان الذي هجره فيه أيضًا إلى الأبد. وكذلك المكان الذي شارك فيه والده مع غيره من أفراد آخرين في تجهيز عبوة ناسفة تسبب انفجارها في حدوث اضطراب كبير في مجرى النهر ما أدى إلى فقدان ذلك الثعلب صغير الحجم إحدى أرجله. وهو المكان الذي رأى فيه والده وصديقه باكس آخر مرة.

على الرغم من أن البقاء في مثل هذا المكان يمثل تحديًا صعبًا بالنسبة له، لكنه رأى أنها فرصة لقضاء شهر كامل بمفرده. كما قرر الذهاب بعد ذلك إلى منزله القديم حيث يجد الشعور بالأمان، ويكون قادرًا على فحص أفكاره وعواطفه. كانت إحدى المهمات الضرورية

التي كان ينوي إنجازها زيارة قبر والدته، ونثر رماد والده هناك، وهي لفتة شعر بأنها ضرورية لتعويضها وتكريم ذكراها.

قالت له فولا: «لكن هذه المنطقة ستحتوي على الكثير من المخاطر، أنت تعلم بالطبع كيفية إنشاء جهاز التقطير الشمسي، تأكد من استخدام قطرات اليود باستمرار، و...».

بالطبع كان بيتر على دراية بكل هذه المعلومات، حيث إن مادة سلامة المياه أصبحت الآن مادة إلزامية في جميع المدارس في أنحاء البلاد. كما أن معظم أفراد كتيبة محاربي تلوث المياه خبراء معترف بهم في هذا المجال. ومع ذلك، استمع باهتمام إلى فولا لأنه فهم أنها تسعى إلى الطمأنينة من خلال التأكد من إلمامه بمثل هذه المعلومات.

ثم أردفت قائلة: «حتى لو وجدت نفسك في مكان بعيد، فمن المهم ألا تفترض أن المياه نقية وصالحة للاستهلاك. فهناك احتمال أن تكون المواد الكيميائية الضارة قد لوثت المياه الجوفية، ما يؤثر في نوعية المياه. كما قد تصادف بركة تبدو مياهها نقية وصافية للغاية، لكنها في الواقع ملوثة».

قال لها بيتر: «أعرف ذلك، حيث يرجع صفاء المياه ونقاؤها إلى عدم عيش أي كائنات حية بها».

أضافت فولا وهي تشير إلى الخريطة مرة أخرى: «ألقِ نظرة على هذا، تقول التقارير إنه لا يوجد أي نسل من أي فصيلة من الحيوانات في المنطقة كلها هذا العام؛ إذ لا يستطيع الصغار العيش مع وجود مياه مسمومة».

سمح بيتر لنفسه باستحضار صورة باكس، مع أن ذلك يعني العودة إلى ممارسة التمرين الذهني المرتبط بشعوره بالألم لدى تذكره صديقه القديم، لكنه اعتاد ذلك، ولم يعد ذلك التمرين الذهني يسبب له أي ألم على الإطلاق. ثم قال: «ربما ما زال باكس يعيش في المنطقة المجاورة هناك، فهو لم يعد صغيرًا، بل من المفترض أن يبلغ ست سنوات الآن».

قالت له فولا: «أنا لست قلقة على ثعلبك يا فتى، أنا قلقة عليك أنت. فصغار جميع فصائل الكائنات الحية تشمل البشر أيضًا، ومن ثم يجب ألا تجازف».

قال لها: «أعلم، سأكون حذرًا بالتأكيد»، ثم قام وطوى الصحيفة.

أضافت فولا أخيرًا: «هناك نقطة إضافية يجب وضعها في الاعتبار: لن يكون الوضع في معظم المناطق خلال هذه الرحلة كما هو هنا، حيث يمكنك الحصول على كل ما تحتاج إليه في أي وقت. لذا، لا بد أن تغتنم الفرصة لجمع كل ما تحتاج إليه كلما سنحت لك الفرصة».

1 تعني هذه الكلمة باللغة الإنجليزية الصدى.

9

في تلك الليلة المقمرة، انطلق باكس وبريسل في رحلتهما إلى البحيرة برفقة صغارهما.

استغرقت الرحلة وقتًا طويلًا؛ حيث توقف الثعلبان الصغيران لاستكشاف أي شيء جديد يواجهانه، وقد واجها الكثير من الأشياء الجديدة، بما في ذلك حذاء جلدي ذو رائحة غريبة، وقرون نبات الصقلاب التي تخرج منها عند تفتحها أزهار صغيرة متلألئة، وملفوف الظربان ذو الطعم الكريه تمامًا كرائحته. كشف كل منعطف في الرحلة عن اكتشافات مذهلة وغير متوقعة.

انشغل الثعلب الأصغر بمطاردة خنفساء، ما قاده إلى كتلة كثيفة من الشجيرات الشائكة غير القابلة للاختراق. فاندفع باكس وبريسل بسرعة لإنقاذه من هذه الشجيرات. وبينما كانا يفعلان ذلك انطلق الثعلب الأكبر مدفوعًا بفضوله نحو حيوان الظربان الذي كان يسير ببطء وبطريقة متثاقلة، فأسرع باكس لإنقاذه من أي خطر محتمل.

كانت الأنثى الصغيرة هي الأكثر تعاونًا من بين الصغار الثلاثة. فلم تكن تبتعد عن باكس إلا للتحقق من شيء أشار إليها به. ثم تعود فور انتهائها من مهمتها لتسير تحت صدر أبيها، وتحديدًا بين رجليه، ما يتسبب في تعثر كل منهما وإبطاء تقدمهما. وكلما دفعها للسير

بجانبه، بدا عليها القلق، وأخذت تنظر إلى أعلى بشكل متكرر حتى ينتهي بها الأمر بالتعثر والسقوط.

أدرك باكس أن العالم مليء بالعديد من التجارب التي تنطوي على لحظات ممتعة ومخاطر محتملة. كما أدرك جيدًا أيضًا المسئولية التي تقع على عاتقه هو وبريسل لتعليم صغارهما المعلومات الأساسية التي تساعدهم على العيش في هذا العالم. فقال لابنته في تلك اللحظة صحيح أنكِ لا بد أن تنظري إلى الأعلى، لكن في الوقت ذاته عليك أن تحرصي على النظر إلى المكان المحيط بك.

وجه باكس انتباه ابنته إلى فراشة كبيرة الحجم ذات لون أخضر شاحب تقف على اللحاء الرقيق لشجرة البتولا. كما أشار أيضًا إلى منطقة صغيرة ينمو فيها شجر التوت بكثرة، وأخبرها بأنها عندما تذهب للاستمتاع بتناوله خلال فصل الصيف، سيترك من وفرته بقعًا داكنة على فروها. كما أشار إلى حقل قريب وأخبرها أنه حين ذهابها إليه للاستلقاء في ضوء شمس الخريف الدافئة سيتساقط التفاح حولها بكل سهولة. ثم قال لها هناك وفرة من المناظر الجميلة والطعام اللذيذ التي يمكنك رؤيتها أينما نظرت.

وصلوا في تلك اللحظة إلى السياج الشبكي الذي يحيط بالبحيرة، وهنا انتابت باكس بعض المشاعر المزعجة؛ فقد أثار ذلك السياج في نفسه ذكريات مؤلمة عن الوقت الذي أمضاه في القفص بمنزل بيتر. لكن على الرغم من ذلك كانت البحيرة هي التي أثارت في نفسه انزعاجًا أكبر.

أثارت ضخامة هذه البحيرة واتساعها بعض الحيرة في نفس باكس، فعلى عكس المسطحات المائية الأخرى التي رآها، لم يستطع رؤية الشاطئ المقابل بغض النظر عن مدى ركضه على طول الشاطئ الحالي. وكانت هذه تجربة غير مألوفة تمامًا بالنسبة له، فلم يسبق له أن صادف مثل هذه المساحة الشاسعة من المياه دون وجود خط ساحلي مرئي على الجانب الآخر. كما أنها محاطة بمبانٍ وجدران خرسانية طويلة في بعض الجوانب

منها على عكس المسطحات المائية المألوفة بالنسبة له. ونتيجة ذلك، اصطدم سطح الماء بتلك الجدران الخرسانية محدثًا صوتًا عاليًا مضطربًا.

أما ما زاد حيرته، فهو أنه لم تكن هناك أي رائحة مميزة تنبعث من هذه البحيرة. فخلال العام الذي نال فيه حريته، أدرك باكس أن المياه في أي مسطح مائي تتأثر بالبيئة التي تتدفق خلالها، والعناصر المحيطة التي تتفاعل معها. فعادة ما تحمل مياه الأمطار التي تتجمع في أي مسطح رائحة السماء وأوراق الشجر التي تلامسها. كما تفوح من الأنهار رائحة الطحالب وسمك السلمون المرقط الفضي. كما تفوح الينابيع برائحة جذور النباتات التي تنمو في التربة المحيطة. لكن المياه في هذه البحيرة تخلو من أي رائحة، وأي مظهر من مظاهر الحياة على الإطلاق. فلم تكن هناك أي أسماك تسبح في أعماقها، ولا أي من السلطعون الذي ينطلق على طول مياهها الضحلة، كما لم يوجد أي محار يسكن قاعها الموحل. كانت العلامات الوحيدة للحياة هي أعواد القصب الذابلة المصطفة على حافة الشاطئ.

انتظر باكس حتى لحقت به بريسل وصغارهما، ومروا جميعًا عبر جزء من السياج السلكي كان مرفوعًا لأعلى بعض الشيء.

وعندما اقتربوا من البحيرة، استشعرت بريسل بعض الخطر، فأطلقت صيحة تحذيرية، عندها انبطح باكس أرضًا على الفور، وأمر باقي أفراد عائلته بأن يحذوا حذوه.

ثم تقدم إلى الأمام بخطوات حذرة حتى تتسنى له رؤية مصدر التهديد بشكل أوضح.

شاهد أضواء ساطعة على مسافة بعيدة من الشاطئ بالقرب من المباني. وهنا قال لباقي المجموعة ابقوا مكانكم. سأذهب لأرى ما هناك.

أصدرت الصغيرة صوتًا ناعمًا منخفضًا لا يخلو من الحزن أثناء ابتعاد والدها خلسة، لكن باكس أمرها بالمكوث مكانها والتزام الصمت. وبالفعل استجابت لأمره، وجلست بجانب

والدتها.

تحرك باكس في مسار دائري، وكان حريصًا على السير في اتجاه الريح. وعندما اقترب، شم رائحة دخان الخشب، وسمع بعض الأصوات البشرية.

على عكس بريسل، لم يكن باكس يخشى البشر؛ حيث عاش من قبل مع صبي، وأحبه حبًّا جمًّا، وتعلم الكثير عن طرق عيش البشر وكيفية تعاملهم، وأصبحت عاداتهم مألوفة بالنسبة له خلال جزء كبير من حياته. اقترب باكس بحذر من مجموعة البشر، مختبئًا في بعض الشجيرات الكثيفة لمراقبتهم.

كانوا مجتمعين حول جذوة من النار، وكان من بينهم نساء وشباب، لكنهم جميعًا كانوا يرتدون ملابس مشابهة للزي البالي الذي ارتداه هؤلاء المتعطشون للحرب الذين قابلهم باكس قبل عام. وصلت شاحنة، تعرف عليها باكس على الفور، وهي مركبة خضراء كبيرة تنبعث منها رائحة المعدن المحروق والزيت.

ثم عاد أدراجه مرة أخرى، حيث كانت عائلته تنتظره.

قال باكس لزوجته يبدو أن هؤلاء المتعطشين للحرب قد أتوا إلى هنا. كان يفهم هو وزوجته جيدًا أنه أينما حل مثل هؤلاء الأفراد، حلت معهم الكثير من المخاطر المحتملة، حيث يمكن أن تحدث انفجارات دون سابق إنذار، حتى إن الهواء نفسه يمكن أن يشكل خطرًا إذ قد يحمل بعض العناصر المتفجرة المتطايرة. ومن ثم يمكن أن تفقد الثعالب أرجلها، بل يمكن أن تفقد حياتها تمامًا.

لم يعد جحرهم في تلك المزرعة المهجورة مكانًا آمنًا بعد الآن.

تحولت بريسل بنظرها نحو صغارها، ثم قالت لـ باكس: لا بد أن ننقل عائلتنا من هذا المكان على الفور.

أدرك باكس أيضًا ضرورة القيام بهذا الأمر، ونظرًا لأن بريسل لن تستطيع المغادرة وترك الصغار وحدهم، فسوف يذهب هو للبحث عن جحر جديد لعائلته. لكنه قال لها دعينا لا نقُم بذلك الأمر هذه الليلة، فقد جئنا لتعليم صغارنا كيفية الشرب.

هبط كل من باكس وبريسل بعناية إلى مكان آمن على الشاطئ المرصوف بالحصى. واقتربا بحذر من المياه الهادئة، وأظهرا لصغارهما كيفية الشرب عن طريق لعقها بألسنتهم.

قفز الصغار بحيوية إلى ضفة البحيرة، ثم ضربوا المياه بأرجلهم بشكل هزلي، وارتدوا للخلف سريعًا لدى شعورهم بطبيعتها السائلة غير المستقرة. ثم أخذوا يقفزون إلى داخل المياه، ويخرجون منها بمرح وسعادة. وانتشروا على طول حافة البحيرة محدثين رذاذًا زاد من استمتاعهم، وأخذوا أخيرًا يغمر بعضهم بعضًا بالمياه في مرح.

وفي هذه الأثناء تراجع باكس وبريسل خطوة للخلف لمراقبة الصغار من كثب، ومع ذلك ظلت بريسل يقظة ومنتبهة جيدًا للجانب الآخر من البحيرة، حيث كانت تتمركز المجموعة البشرية.

لاحظ باكس التحولات الواضحة التي طرأت على صغاره، حيث تحول فراؤهم الرمادي تدريجيًّا بمرور الأيام إلى اللون الأحمر. كما ظهرت بقع جديدة من الفرو الأبيض على ذيولهم ووجوههم. وقد أصبحت أرجلهم داكنة وأكثر طولًا. وأصبحوا أقوى بما يكفي للعب بشكل أكثر قوة معًا.

وبعد فترة وجيزة هدأ الصغار في النهاية، وتعلموا مهارة الشرب من البحيرة.

وانطلاقًا من شعورهم بالحماس لما حققوه من إنجاز، ونظرًا لشعورهم بالعطش الشديد من الرحلة الطويلة التي قطعوها، شرب الصغار بلهفة وبشكل متكرر ليرووا عطشهم.

10

قال بيتر: «إنه لن يأتي».

لم تنظر فولا، التي كانت مشغولة ببسط عجينة البسكويت إليه، لكنها قالت بثقة: «بل سيأتي».

قال بيتر: «إنه لم يفعل ذلك قط».

قالت له فولا: «حسنًا، لكنه سيفعل ذلك هذه المرة، فحفيده الوحيد سيغادر في الصباح، وسيغيب مدة شهر. قطِّع هذا الجزر إلى شرائح، ثم جهز الطاولة لثلاثة أفراد».

التقط بيتر سكينًا، ووضع جزرة على لوح التقطيع، ثم سألها: «ما الذي يجعلك متأكدة إلى هذا الحد من مجيئه؟».

نثرت فولا بعض الدقيق فوق العجين، ثم أجابت: «حسنًا، لأنني لم أدعه هذه المرة، وإنما أخبرته بأن العشاء سيكون في الساعة السادسة والنصف حتى أجبره على المجيء».

لكن هذا الأمر أثار قلقه أكثر، ثم قال لها بنبرة تحذيرية: «إنه ليس من النوع الذي يحب أن يخبره أحد بما يجب عليه فعله».

هزت فولا كتفيها، وبدأت تقطيع العجين لصنع البسكويت باستخدام كوب، ثم قالت له مؤكدة: «ربما يكون منزعجًا لأنك اخترت العيش هنا بدلًا من العيش معه. ومع ذلك تظل أنت حفيده الوحيد، بل عائلته الوحيدة، أليس كذلك؟ وبما أنك ستغادر، فمن المرجح أن يأتي لتوديعك».

تمنى بيتر لو أنها كانت محقة في توقعها، نظرًا لما بذلته من مجهود كبير في إعداد طعام خاص لهذه المناسبة. فقد وضعت البطة المحشوة بالجوز والبصل لتشوى في الفرن. كما جمعت أمس الدفعة الأخيرة من البطاطس، والدفعة الأولى من البازلاء. فيما أرسلت بيتر في وقت مبكر هذا الصباح ليجمع الجرجير لإعداد السلطة. وقد اكتشف لدى عودته أنها مشغولة بإعداد فطيرة الخوخ.

كانت الفطيرة جاهزة وموضوعة على حافة النافذة، وملأت رائحتها الشهية الأجواء، حتى إن بيتر شمها من كوخه، إذ كان مشغولًا بتثبيت آخر ألواح السقف. انبعث البخار ذو الرائحة الشهية من الفطيرة على طول الطريق، فكان أشبه بالبخار المنبعث من الفطائر اللذيذة في أفلام الكارتون.

تساءل عما إذا كانت فولا لا تزال تتذكر أن الخوخ أول طعام تناوله عندما وصل إلى هنا قبل عام حين كان جائعًا ومصابًا بكسور في العظم. فقد التهم حينها جرة كاملة من الخوخ. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، شاركت معه قصة شخصية مرت بها عندما كانت فتاة صغيرة، حيث أخبرته بأنها تسللت خلسة إلى البستان ليلًا، ووضعت كومة من الخوخ على بطنها، وانخرطت في تناولها تحت ضوء القمر.

ولدى نضوج ثمرات الخوخ في الصيف الماضي، حاول القيام بعمل مماثل، حيث غامر بالخروج خلسة في منتصف الليل، بيد أن ضوء القمر لم يكن حاضرًا في هذا المشهد، وإن

كان هناك عدد لا يحصى من الحشرات المضيئة التي ملأ نورها الأجواء. وانخرط في تناول ثمرات الخوخ الناضجة حتى غطت عصارتها اللزجة وجهه.

في تلك الليلة، ولأول مرة منذ تخليه عن باكس، سمح لدموعه بالتدفق على خديه، فامتزجت هذه الدموع بعصارة الخوخ على وجهه تحت هذا الظلام. ولدى عودته، كانت فولا لا تزال مستيقظة. رأى في تعبيرات وجهها أنها أدركت أنه كان يبكي، لكنها آثرت أن تتركه يضمد جراحه بنفسه في صمت.

يبدو أن فطيرة الخوخ هذه قد أثارت داخله مشاعر مضطربة، فقد ذكرته بالدفء الذي شعر به دائمًا في هذا المكان الذي قرر مغادرته، والرعاية التي تلقاها هنا أيضًا. وتلك المرأة التي ألحق بها الأذى عن غير قصد، عندما دعته للبقاء، فيما أصر هو على الرحيل. لكنه حاول مقاومة التأثير العاطفي لتلك الذكريات التي أثارتها داخله هذه الفطيرة، فتوجه بالحديث إلى فولا قائلًا: «أنت مخطئة، إنه لن يأتي، وسنضطر إلى الذهاب إليه في صباح الغد للحصول على إذن كتابي للسماح لي بالمغادرة والانضمام إلى كتيبة صغار محاربي تلوث المياه».

قالت فولا مؤكدة: «بل سوف يأتي»، ثم وضعت صينية البسكويت في الفرن، وأغلقت بابه بحزم كأنها تؤكد أن حضوره أمر حتمي ومؤكد.

وقد ثبت أنها محقة بالفعل، فبعد مرور خمس عشرة دقيقة فقط سمع الصوت المألوف لسيارة جده من طراز شيفروليه وهي تقف إلى جوار سيارة فولا. فأسرع بيتر نحو النافذة للتحقق من الأمر، ثم ألقى نظرة سريعة على المنطقة المحيطة بالكوخ.

ساد المكان جو من الدفء والجاذبية، حيث توهجت نيران المدفأة، وأضيئت جميع مصابيح الزيت، فانعكس الضوء على الأثاث ومنحه لونًا ذهبيًّا لامعًا. وكانت الأرضية قد لُمعت بطبقة شمعية ما منحها مظهرًا مصقولًا وملمسًا ناعمًا. نُظفت الطاولة جيدًا، وزُينت بأرقى أنواع الخزف الصيني الخاص بفولا. كما وضعت مجموعة مبهجة من أزهار النرجس

البري في إبريق أصفر على الرف المثبت فوق الموقد، ما أضفى لمسة من الألوان النابضة بالحياة على الغرفة. بدت التلال في الخارج عبر النوافذ مغمورة بوهج ساحر مائل إلى الزرقة مع حلول الغسق.

نهض بيتر وتوجه نحو الباب ليفتحه لجده، ولاحظه وهو يتمدد بشكل مسرحي ليطقطق ظهره، ربما نتيجة إرهاقه بعد قيادته السيارة فترة من الوقت. ثم تجول الجد بنظره متفقدًا المكان. شعر بيتر بالفخر وهو يتصور كيفية نظر جده لهذا المكان الرائع، حيث البستان الجذاب بأزهاره البديعة، وحديقة الخضراوات بصفوفها المنظمة من النباتات الخضراء النابضة بالحياة التي تتناقض مع لون التربة الحمراء الخصبة، بالإضافة إلى كوخه الذي يقع خلف الحظيرة العامرة.

عندما بدأ شق طريقه عبر الممر الحجري، لاحظ بيتر مدى اهتمام جده بمظهره، حيث صفف شعره بعناية في خصلات أنيقة فوق جبهته، كما كان وجهه ينبض باللون الوردي ما يدل على أنه عاد إلى المنزل بعد العمل، واستحم، وحلق ذقنه.

صاح بيتر بحماقة إلى حد ما: «لقد أتيت. أنا سعيد للغاية».

تذمر جده قائلًا: «لا أستطيع البقاء فترة طويلة، فلديَّ عمل والتزامات أخرى»، وتوقف عند عتبة الباب المصنوعة من الجرانيت المتين. ونظر إلى الداخل بدهشة مماثلة لتلك التي عاشها بيتر في يومه الأول هناك. حيث كان يتوقع أن يتماشى التصميم الداخلي للكوخ مع المظهر الخارجي الريفي والبدائي.

حثته فولا على الدخول، بينما كانت تقف في المطبخ، قائلة: «تفضل بالدخول».

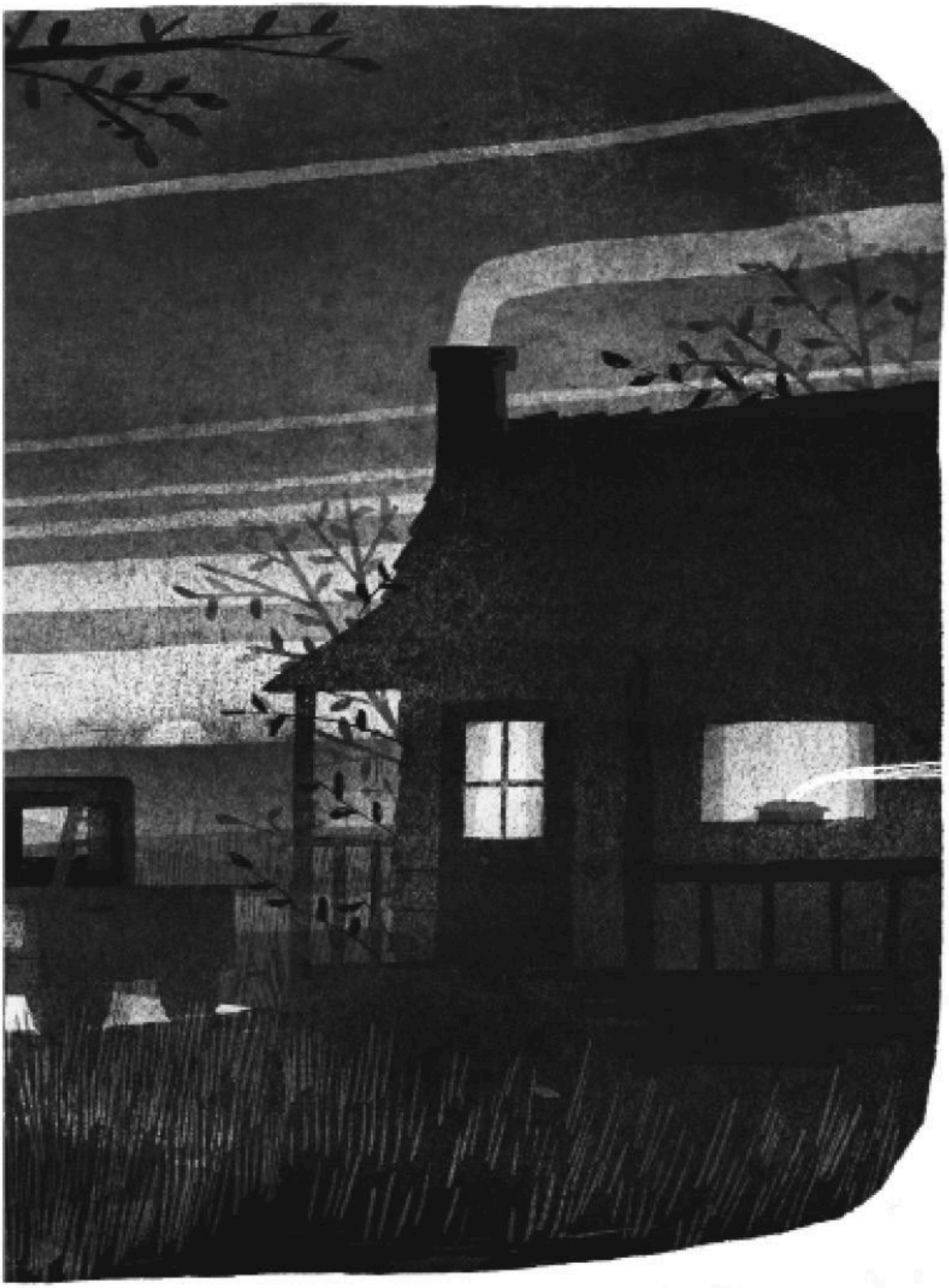

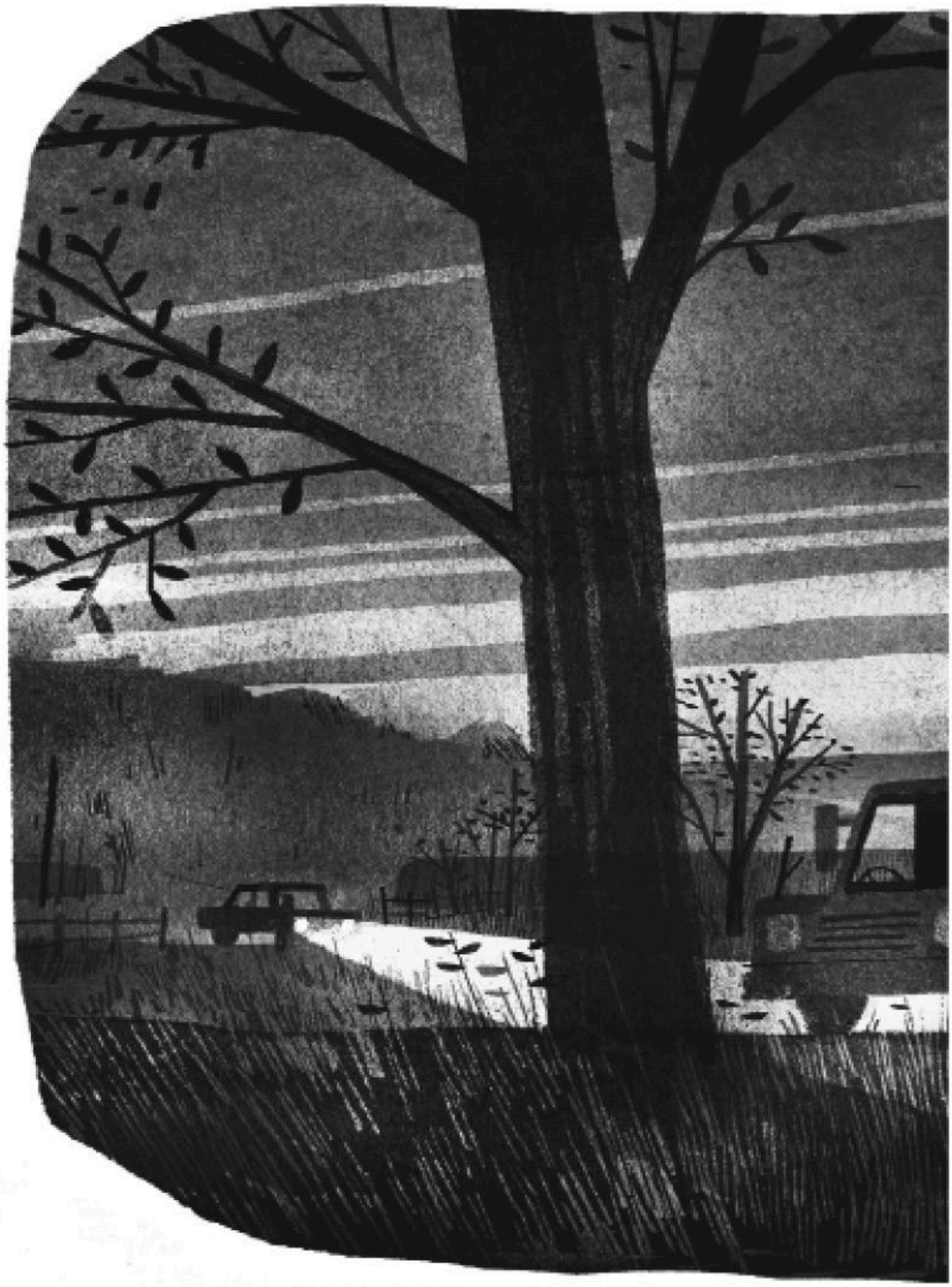

ثم قال له بيتر: «أتمنى أن تكون جائعًا».

كان بيتر يعلم أنه سيشعر بالجوع حتمًا، فقد اعتاد تناول كيس من رقائق البطاطس، بالإضافة إلى المياه الغازية لدى عودته إلى المنزل بعد انتهائه من العمل، ثم يقوم بإعداد العشاء من خلال تسخين الأطعمة المعلبة. لكنه لن يقاوم رائحة الأطعمة الشهية التي امتلأ بها منزل فولا وتشبه رائحة المطاعم الفاخرة.

وضعت فولا الطعام سريعًا على الطاولة، وملأت أطباقهم بسخاء، حتى إن المرق فاض من الحواف. ثم انخرطت في محادثة بسيطة وغير رسمية مع الجد، وناقشت موضوعات مثل الطقس، وتفوق بيتر وحصوله على درجات مرتفعة، وإنجازاته في الانضمام إلى فريق البيسبول. وبينما كان الرجل العجوز يتناول وجبته، كان يجيب في الغالب بمجرد إيماءة من رأسه، ويمضغ طعامه وهو يستمع إلى المحادثة.

بعد ذلك أضافت فولا حصة أخرى من الطعام إلى أطباقهم جميعًا ثم قالت: «حسنًا، سيذهب حفيدك في الغد إلى مقر كتيبة محاربي تلوث المياه».

هنا وضع بيتر شوكته.

واسترسلت فولا: «سوف أوصله إلى هناك بنفسي. فقد أقنعني بشراء هذه السيارة، لذا من الأفضل أن أستخدمها. سأقوده إلى البحيرة في لاندسبورج، ومن هناك سيواصل رحلته مع باقي أعضاء الكتيبة».

لوح الرجل العجوز بيده باستخفاف قائلًا: «ماذا؟ كتيبة محاربي تلوث المياه! ليس لديهم حق في استخدام مثل هذه المصطلحات العسكرية، فهم ليسوا عسكريين حقيقيين».

سألته فولا بفضول: «ولمَ ذلك؟».

أجاب الجد بحزم: «لقد خدمت في الجيش، ومن قبلي والدي، وكذلك والد هذا الفتى، جميعنا خدمنا هناك. فالجيش الحقيقي هو...»، ثم رفع قبضتي يديه بقوة إلى الأعلى في إشارة إلى قوة التحديات والأنشطة القتالية التي تواجه كتائب الجيش الحقيقي.

وهنا تدخل بيتر، وقال: «وقد خدمت فولا في الجيش أيضًا».

نظر الرجل إلى ساق فولا، ثم قال: «صحيح، صحيح» ثم استطرد: «أنت تعلم ما أعنيه جيدًا. فكلمة محاربين تتعلق بالمقاتلين وليس بمجموعة من فاعلي الخير».

قالت فولا بنبرة هادئة ومتزنة: «حسنًا، لكنني لا أعتقد ذلك»، كانت لهجتها تخلو من أي تحدٍّ أو انتقاد تجاه شخص لديه اعتقاد مختلف.

وقد قدر بيتر دائمًا طريقة فولا في النقاش، إذ كانت تعمل على تهدئة الموقف المتوتر مع توضيح وجهة نظرها دون الدخول في صراع مع الطرف الآخر المعارض. بيد أنه شعر مع ذلك باضطراب شديد في معدته، وتصلب في عضلات بطنه، ولم يكن قد شعر بمثل هذا الشعور منذ عام تقريبًا.

غيرت فولا موضوع المحادثة بأن التقطت إبريق عصير التفاح، وأعادت ملء الكئوس. وبدلًا من أن تعيده إلى مكانه، رفعته لأعلى، ثم قالت: «أهداني حِرفي قريب هذا الإبريق المصنوع من الفخار المحلي. مقابل بعض الحطب الذي زودته به عندما نفد منه مخزونه». شعر بيتر ببعض الارتياح لدى تغييرها للموضوع.

أعرب جد بيتر عن إعجابه بقصة هذا الإبريق.

واصلت فولا حديثها: «إنني أتساءل كم عامًا استغرقه لاكتساب مهارته هذه؟ وكم عدد الساعات التي استغرقها لصناعة هذا الإبريق؟ وكم مرة أفادنا هذا الإبريق في ملء أكوابنا بمختلف أنواع العصير؟».

التقط بيتر شوكته مرة أخرى عندما شرع جده في تناول طعامه.

لكن فولا لم تكن قد انتهت من حديثها عن الإبريق، فأضافت: «إن بإمكاني إظهار قوتي من خلال حمل هذا الإبريق وضربه في الحائط. لكن كسر أي شيء أمر سهل، ويستطيع أي أحد القيام به. لكنني أحترم قوة من يبني لا من يهدم». ثم وضعت الإبريق على الطاولة مرة أخرى، والتفتت إلى بيتر، ورفعت كأسها نحوه، ثم تابعت: «وإنني لأكن كل التقدير والاحترام لمن يعيد بناء شيء ما من جديد».

توقف جد بيتر عن مضغ الطعام، وأومأ برأسه على مضض بالموافقة.

ثم حاولت فولا جعل الأمر أكثر وضوحًا لجد بيتر لطمأنته، قائلة: «بالإضافة إلى كل ذلك، سوف يتعلم بيتر مهارات مفيدة، مثل تركيب خطوط الأنابيب، حيث يحظى العاملون في هذا المجال بتقدير كبير. بالإضافة إلى حفر الآبار، وهؤلاء الأشخاص أيضًا لهم أهمية كبيرة في عالمنا. ومن غير المرجح أن يتغير هذا في المستقبل القريب».

تمتم الرجل العجوز مبديًا موافقته على كلامها في محاولة منه لحفظ ماء الوجه، ثم قال: «من المفيد بالطبع أن يتعلم الفتى بعض المهارات المهمة». أمسك الرجل العجوز بمنديله بطريقة خرقاء، ما أدى إلى انزلاقه من يديه. وفي محاولة منه لاستعادته أسقط ملعقته من فوق الطاولة عن غير قصد ما أحدث بعض الجلبة.

انحنى بيتر إلى الخلف بينما كان لا يزال جالسًا على كرسيه حتى وصل إلى درج الفضيات من خلفه، ودون أن ينظر إلى الدرج، أخرج ملعقة جديدة، ووضعها بجوار طبق جده.

تناول الجد الملعقة، لكن بدت عليه بعض علامات التعجب والاندهاش، وسرعان ما أدرك بيتر ما فهمه جده، لقد رأى أن حفيده كان يألف هذا المكان كثيرًا، حتى إنه لم يكن مضطرًّا للبحث عن مكان المعالق، ووجده بمنتهى السهولة دون أن ينظر قط.

كان يود أن يقول له: هذا ليس منزلي، لكنه قال بدلًا من ذلك: «أريد توقيعك على إذن بالانضمام إلى معسكر صغار محاربي تلوث المياه والبقاء معهم، فأنت الآن ولي أمري وكل عائلتي».

وقد آتت هذه الكلمات بثمارها، فقد بدت علامات الارتياح على وجه جده، بل بعض علامات الفخر أيضًا. وبالفعل بدأ البحث عن قلم في جيبه، ووقع له على التصريح المطلوب.

حملوا فطائر الخوخ الخاصة بهم إلى الشرفة، وأضاء بيتر المصابيح. وبينما كانوا يستمتعون بوجبتهم مع وضع أرجلهم على سور الشرفة ومراقبة ظهور الهلال الصغير في السماء، بدأ الجد التحدث بمزيد من الارتياح والانفتاح؛ حيث شاركهما بعض القصص عن المخاطر التي واجهها أثناء خدمته العسكرية، وقدم نصائح خاصة لبيتر عن الأخطاء التي يجب عليه تجنبها خلال رحلته، الأمر الذي أثار دهشة بيتر إلى حد كبير.

لم يعتقد بيتر أن تكون النصائح التي يقدمها جده وتعود إلى جيلين مضيا ذات فائدة بالنسبة له الآن، لكنه سمح له بمشاركته مزيدًا من الأفكار والنصائح على أي حال. وكان سلوك جده يشبه سلوك الجد النموذجي، حيث ظل يقدم له التعليمات والتوجيهات.

ثم قال في النهاية: «كن حذرًا، وحافظ على سلامتك دائمًا»، ثم وقف وشكر فولا على الطعام الشهي، وصافح بيتر. وانطلق مغادرًا.

وبعد أن ودعاه، قالت فولا: «أظن أنه سيأتي إلى هنا كثيرًا بعد الآن».

تركها بيتر دون أن يجيب، وذهب للداخل ليجمع الأطباق الفارغة، ثم وضع الفطيرة المأكول جزء منها فوقها بعناية.

تبعته فولا، وقالت له: «أنت تعرف يا بيتر، إنه يتقدم في السن. ويمكنك يومًا ما إذا أردت أن ...» ثم أشارت عبر النافذة إلى كوخه في الخارج والأرض الممتدة خلف البستان.

قاطعها بيتر قائلًا: «توقفي». كان يعرف ما ستقوله في الحال، لقد توقع أن تخبره بأن جده سيأتي عليه يوم ويحتاج إلى من يرعاه، وأن بإمكانه اصطحابه إلى هنا، وبناء مكان خاص به خلف البستان، وكان يعلم كذلك ما يمكن أن يحدث إذا قالت ذلك. إذ سيشعر بالراحة والأمان في ظل وجود عائلة تدعمه وتحبه. ما سيجعله يتخلى عن حذره، ويعود مجددًا للارتباط بالآخرين، والخوف من المرور بتجربة الألم مجددًا.

وقد أدرك أنه لا يمكن أن يفعل ذلك مرة أخرى.

أدرك فجأة في تلك اللحظة أن كل شيء هنا، بما في ذلك فولا، والكوخ الذي بناه، والمدينة التي كان يتعرف عليها تدريجيًا، بالإضافة إلى جده وصديقه بن، بل جميع الأشياء الأخرى هنا تشكل مستوى هائلًا من الخطر عليه.

وقرر أن قضاء شهر بعيدًا عن كل ذلك لن يمثل الحل النهائي. لذا قرر عدم العودة نهائيًا.

إذ بعد أن ينهي مهمته مع كتيبة محاربي تلوث المياه، سيعود إلى منزله القديم ليعيش بمفرده في أمان، ولن يعود إلى هنا أبدًا.

توجه نحو الشرفة الخلفية، وأحضر كيس النوم الخاص به. وأثناء مروره بالمطبخ، لاحظ قيام فولا بتغليف ما تبقى من طعام له. فقال لها: «سأقضي الليلة في الكوخ الخاص بي».

أومأت فولا برأسها موافقة، كأنها كانت تتوقع منه ذلك. ثم أعطته الجزء الذي تبقى من الفطيرة بعد أن غلفته بورق الشمع، وقالت له: «يمكنك تناولها إذا استيقظت جائعًا».

غادر بيتر، وبمجرد عبوره الحظيرة، ألقى بالفطيرة بالقرب من كومة أعشاب ذابلة متروكة على الأرض.

11

لقد حان الوقت.

مد باكس جسده، وهز فروه تحت أشعة الشمس الدافئة في آخر فترة الظهيرة. ساعده النسيم الذي يهب من ناحية الجنوب على إخفاء اقترابه ما جعل من الصعب على المخلوقات الأخرى اكتشاف وجوده، كما نبهه إلى ما قد يحدق به من مخاطر محتملة. وكان يتوقع غياب ضوء القمر ما سيساعده على الاختفاء وسط الظلام. وقد عمل على تأمين حاجة بريسل والصغار من الطعام أثناء غيابه، إذ اصطاد بطتين في الليلة السابقة، بالإضافة إلى وجود بعض البطاطس في الحقل، والكثير من الفئران في الحظيرة.

وقبل الانطلاق في رحلته شرع باكس في تجديد آثار رائحته في محيط المكان الذي توجد فيه عائلته لضمان سلامتها أثناء غيابه، ومنع أي كائن غريب من التسلل إليها، ثم شق طريقه نحو الجحر، حيث وجد الصغار يرضعون. لقد كبروا بشكل ملحوظ، حتى إن بريسل كانت مضطرة إلى مد جسدها لتوفير مساحة كافية لهم أثناء إرضاعهم. كان باكس يعلم أنهم سيخرجون من الجحر خلال دقائق قليلة، وستعمل بريسل جاهدة خلال ذلك على إبقائهم بالقرب منها وإبعادهم عن أي خطر محتمل.

لامس باكس خد زوجته بلطف، وقال لها إنني مغادر الآن.

ثم ودع صغاره مداعبًا إياهم بلطف، وأكد لهم أنه سيعود ثانية من أجلهم، وأمرهم بطاعة أوامر أمهم. وضع الصغار أنوفهم وكانت آثار الحليب لا تزال عالقة بها على خد والدهم لطبع قبلة رقيقة عليه، ثم عاد الذكران الصغيران إلى أمهما لمواصلة تناول وجبتهما.

لكن الصغيرة تمكنت من التسلل من بين أخويها، وتتبعت والدها حتى مدخل الجحر.

قال لها باكس لا. ابقي هنا. سوف أعود. ومن ثم غادر على مضض، ولكن قبل أن ينعطف عند السقيفة ألقى نظرة خاطفة إلى الخلف، فوجد ابنته تقف بجوار الدرج، وهي تحدق إلى أشعة الشمس اللطيفة. كان فروها الأكثر لمعانًا وجمالًا من بين ثلاثتهم، وكان يشبه تقريبًا اللون الأحمر الناري لفرو والدتها. رفعت الصغيرة أذنيها لأعلى، ثم اتبعت والدها.

عاد باكس سريعًا، وأمسك بالصغيرة من رقبتها بلطف، وأعادها إلى داخل الجحر. ومن ثم جذبت بريسل ابنتها إليها بضربة خفيفة، ووجهتها نحو بطنها لإكمال وجبتها، وثبتت إحدى أرجلها عليها بقوة حتى تمنعها من تتبع والدها، وغادر باكس مرة أخرى.

مضى ولم ينظر خلفه هذه المرة.

تنقل عبر حقول المزارع المهجورة القاحلة، ثم دخل إلى الغابة. تحرك في سرعة وصمت تام متبعًا المسارات المغطاة في الغالب بأوراق شجر الصنوبر النحيلة للغاية التي تشبه الإبر. لكن ما إن أرخى الليل سدوله، وعم الظلام المكان فيما عدا بصيصًا بسيطًا من الضوء ترسله النجوم المتناثرة في السماء، بدأ التحرك بأريحية وسهولة. وكان هذا المسار مألوفًا بالنسبة له، فقد سلكه في الرحلة التي قام بها برفقة بريسل ورانت في الاتجاه المعاكس قبل عام تاركين وراءهم الوادي الفسيح الذي كان في السابق موطنًا لبريسل.

رأى باكس هذا الوادي الفسيح لأول مرة بعد أن تخلى عنه صديقه بيتر. وحينها ظل منتظرًا قدومه لإنقاذه من الضياع، إذ لم يكن يعلم أنه ليس بحاجة لأن ينقذه أحد، وأن بإمكانه

العيش في البرية بشكل مستقل. وعلى الرغم من شعوره بمزيج من القلق والخوف خلال هذه الأيام الأولى، أحس بإثارة الحرية التي اكتسبها حديثًا. ومع وفرة الموارد الطبيعية في الوادي، بالإضافة إلى موقعه الإستراتيجي، قادته رغبته القوية في إيجاد بيتر إلى التوجه جنوبًا تاركًا الوادي وراءه.

سافر باكس برفقة جراي، ذلك الثعلب العجوز من ساكني الوادي الفسيح، وانطلق الاثنان حتى وصلا إلى موقع ينحدر فيه النهر، ثم يجري بشكل مستوٍ بجانب مصنع قديم. كان هذا هو المكان الذي أقام فيه هؤلاء الأفراد المتعطشون للحرب، وهو ذاته الذي لقي فيه جراي مصرعه. وقد قام رانت وبريسل، بتعقب باكس إلى هناك، حيث تسبب هؤلاء الأفراد في حدوث انفجار هائل أدى إلى فقدان رانت إحدى أرجله، وإصابة بريسل بحروق شديدة تركت ذيلها متفحمًا أشبه بالسوط الأسود.

وفي هذا المكان تحديدًا عاد صديق باكس الذي انتظره طويلًا.

في ذلك اليوم، جذبت آثار دماء رانت اثنين من الذئاب البرية اللذين تتبعاه إلى تلك المنطقة المفتوحة التي تقع أعلى معسكر البشر. طارد هذان الذئبان بريسل أيضًا حتى لجأت إلى شجرة للاحتماء بها، ولم يمضِ وقت طويل حتى تمكنا من اكتشاف مكان اختباء رانت، وسحباه للخارج. حاول باكس جاهدًا صد هجوم هذين الذئبين البريين لكن دون جدوى، وفي تلك اللحظة سمع صوت بيتر قادمًا من معسكر البشر. فصاح بصوت عالٍ طلبًا للنجدة، وأتى بيتر على الفور ملبيًا نداءه. وطارد الذئبين بشجاعة حتى تمكن من صد هجومهما.

شعر باكس بارتياح وفرح هائلين عندما اجتمع شمله بصديقه بيتر مرة أخرى، وكان يعلم أن بيتر يشعر بذلك أيضًا.

ومع ذلك، شعر باكس بالارتباك نتيجة مشاعر بيتر المتضاربة. فإلى جانب سعادته كان يحمل مزيجًا من الحزن العميق والشوق القوي، وكان ذلك واضحًا عليه بشكل خاص في ذلك اليوم على نحو خاص.

عندما أخرج بيتر اللعبة المألوفة، انتبه باكس وازداد حذرًا. فكثيرًا ما مارسا هذه اللعبة معًا في الماضي، حيث كان باكس يجري لاستعادة اللعبة التي يلقيها بيتر، ثم يصيح بصوت عالٍ على أمل أن يلحق به بيتر، لكن سرعان ما أدرك باكس أن هذه اللعبة ما هي إلا مجرد خدعة، وأصبح واعيًا لذلك تمامًا الآن.

ألقى بيتر اللعبة بعيدًا بالفعل.

تردد باكس، محاولًا تقرير ما إذا كان عليه أن يبقى مكانه أم يذهب لالتقاط اللعبة التي ألقاها صديقه، لكن عندما استدار بيتر مبتعدًا، أدرك باكس أن صديقه القديم يرغب في الانفصال عنه. ومن ثم انطلق مسرعًا إلى الأجمة لمطاردة اللعبة التي ألقاها بيتر.

لكن باكس هذه المرة لم يلتقطها ويصيح كما كان يفعل من قبل، وإنما عاد أدراجه في هدوء تام دون أن يلحظه بيتر.

ورآه من بعيد وهو يتحرك نحو الجانب البعيد من المعسكر البشري، ويعاني صعوبة أثناء السير نتيجة إصابة ألمت بساقه.

تبعه باكس ووقف يراقبه من مسافة قريبة عند حافة الغابة، وشاهده وهو يتعثر مرتين نتيجة محاولته السير سريعًا، ثم قابل أباه في النهاية، وتبادلا العناق فترة طويلة، ثم دخلا الخيمة معًا.

ثم عاد باكس، وانضم إلى بريسل ورانت وكوَّن عائلة معهما.

وأثناء فترة ما بعد الظهيرة، وجدت الثعالب الثلاثة ملاذًا آمنًا في شبكة من جحور جرذان الأرض التي كانت ملائمة لها، لكنها ضيقة بالنسبة للذئاب بحيث لا يمكنها الولوج إليها. ظلت الثعالب هناك في أمان عدة أيام، حيث استعاد رانت قوته وتكيف مع التحرك بفاعلية على ثلاث أرجل. وركزت بريسل على الاعتناء بذيلها المصاب، إذ كانت تتخلص باستمرار من الفرو المحترق الذي يغطي ذيلها، وذلك من أجل الوصول إليه مباشرة لتنظيفه، والتعجيل بعملية شفائه.

وأخيرًا عندما تمكن رانت من الركض مسافات قصيرة بسرعة، وشُفي ذيل بريسل المصاب، شعرت بالحاجة إلى إبعاد نفسها وعائلتها عن البشر وحروبهم المستمرة، ومن ثم اتخذ ثلاثتهم قرارًا بالعودة إلى الوادي الفسيح بحثًا عن بيئة أكثر أمانًا.

استقبلتهم زوجة جراي ورحبت بهم، وكانت قد وضعت ستة من الصغار، وخرج كل من باكس وبريسل لاصطياد الطعام لهم، ومع أن وجودهم كان مُرحبًا به، بالإضافة إلى أنه كان بإمكانهم بناء جحورهم والإقامة فيها، فإن اقتراب الحرب دفع باكس إلى قيادة عائلته الجديدة إلى الشمال. واجتاز بها غابتين أخريين، وكان يفصل بين الغابة والأخرى واديان، أحدهما ضحلًا لا توجد به أي منحدرات، والآخر صخري شديد الانحدار، حتى وصلوا في النهاية إلى المزرعة المهجورة. وهنا انتهت رحلتهم.

دخل باكس الآن إلى ذلك الوادي الضحل، حيث لاحظ وجود جدول متلألئ في الأسفل، يعكس ضوء النجوم الخافت. وعندما أنارت أضواء الفجر سماء المكان، عبر الجدول، وبدأ تسلق التلال التالية.

وعند وصوله إلى القمة شاهد الشمس تشرق فوق أشجار الصنوبر. وبدأ البحث عن مكان آمن ليرتاح فيه بضع ساعات، وأخيرًا، شم رائحة جديدة تفوح عبر الأشجار.

إنها رائحة نيران مشتعلة!!

12

أثناء جلوسه على الجدار العريض للبحيرة، شعر بيتر بإحساس مبهج عندما ترك ساقيه تتدليان بحرية عبر القضبان الفولاذية للسياج المحيط بالجدار. لقد شعر عندئذ بمزيد من الإثارة، إذ أدرك أنه من الآن فصاعدًا سيكون مسئولًا عن نفسه، وأنه بدأ فصلًا جديدًا من حياته هذه الليلة، بل هذه اللحظة.

وكان قد مر بشعور مماثل من قبل عندما كان في السابعة من عمره، حيث أدرك أن الحياة ستتغير بشكل كبير بعد وفاة والدته، وكان محقًّا. ومع ذلك، كانت نقطة التحول هذه المرة تبدو مختلفة؛ فقد اختار قرار التغيير بنفسه.

كما تكمن نقطة الاختلاف الأخرى في نظرته لمستقبله، حيث أصبحت إيجابية بعد أن كانت غاية في الكآبة. فقد رأى مستقبله أشبه بتلك البحيرة التي تمتد أمامه؛ حيث بدا متسعًا ومشرقًا، ويحمل إمكانات غير معلنة. كما رآه أيضًا مليئًا بالمفاجآت السارة وبكل ما يحتاج إليه، بالضبط مثل ذلك المكان الممتد من خلفه، الذي يوفر له كل ما يحتاج إليه من طعام، وملبس، ومأوى، ومهمات ضرورية تشغل وقته. والأهم من ذلك، أنه يوفر له حرية تنظيم علاقاته مع الآخرين، والسماح لهم بالاقتراب منه بالقدر الذي يرغب فيه.

شعر بالأمان هنا في هذا المكان، منذ اللحظة التي صافحه فيها مدير العمليات بحرارة قبل ساعات قليلة.

كانت الرحلة شاقة للغاية. وقد قرر بيتر عدم إبلاغ فولا بأنه لن يعود، واختار بدلًا من ذلك كتابة رسالة لها بمجرد عودته واستقراره في منزله القديم. ولم يستطع أن يحدد ما إذا كان هذا القرار نابعًا من شعور بالجبن أم باللطف.

أخذ يسترق النظر إليها مرارًا وتكرارًا وهي تقوده إلى هذا المعسكر، مدركًا أنه لن يراها مرة أخرى أبدًا. وعلى الرغم من تفكيره في العدول عن قراره، ظل حازمًا وعقد العزم على المضي قدمًا فيما خطط له. قالت له ذات مرة: «قد لا ترى أنني أمثل عائلة بالنسبة لك يا بيتر، لكنك تمثل كل عائلتي. لا يمكنك تغيير ذلك، لذا من الأفضل أن تتقبله، أليس كذلك؟»، أحس حينها بغصة في حلقه. وظل صامتًا، بل وشعر حينئذ بأنه يخدعها بصمته. ولدى وصولهما إلى وجهتهما النهائية، قالت له: «املأ كوبك دومًا كلما استطعت»، وقد أدرك هذه المرة أنها لم تكن تقصد الماء. فقد كانت تحثه على الاستفادة من كل الفرص التي تسنح له. لقد اغرورقت عيناه بالدموع وشعر بحنين غامر، لكنه استعاد رباطة جأشه وفتح باب الشاحنة.

ثم غادرت فولا، وبينما كان بيتر في طريقه إلى خيمة الاستقبال، شعر بالارتباك العاطفي وعدم التوازن.

شارك في الجولة الإرشادية المخصصة للمنضمين حديثًا إلى المعسكر، بينما كان يشعر ببعض التخبط وعدم التركيز. وقد تضمنت تلك الجولة زيارة للثكنات ومناطق العمل، بالإضافة إلى مشاهدة فيلم استرشادي عن المهمة. كما حصل على دليل إرشادي يوضح بالتفصيل الواجبات والالتزامات المحددة المتوقعة من الأفراد المشاركين في المعسكر. كما شارك الجميع اليوم في التنظيف وإعداد الطعام، وفي اليوم التالي، كان من المتوقع منه اختيار وحدة عمل للانضمام إليها مثل البنية التحتية، أو الاتصالات، أو الأنظمة البيئية.

ثم ذهب وتناول الطعام، ووضع متعلقاته بشكل آمن تحت سرير صغير يقع في نهاية صف الأسرة. وبدأ بعدها ممارسة أولى مهمات مسئولياته التي أسندها إليه المدير المسئول، وهي التعرف على باقي أفراد كتيبة صغار محاربي تلوث المياه، مع أنه لم يكن أمرًا واجب النفاذ.

نظر بيتر إلى المياه العميقة في الأسفل، بينما سمع صوت ثرثرة في الخلف تتخللها أحيانًا دفقات من الضحك. ثم لاحظ فجأة رائحة غير متوقعة تملأ الأجواء، كانت على الأرجح رائحة سكر يحترق.

عدل بيتر من وضعه قليلًا حتى يتمكن من رؤية الأفراد المتجمعين حول النار بشكل أفضل، وكان يجب أن يناديهم بالجنود كما طُلب منه. وكان معظمهم لا يزالون يرتدون ملابسهم القتالية ولم يغيروها بعد انتهائهم من مهماتهم. كانت المجموعة مكونة من رجال ونساء من مختلف الأعمار. كما لاحظ وجود ثلاثة آخرين من صغار محاربي تلوث المياه يجلسون على مقربة من باقي الأعضاء، بينما بدوا منخرطين في نشاط غير رسمي، حيث

كانوا يمررون شيئًا ما بينهم. لكن ما لفت انتباهه حقًّا كان شخصين محددين؛ شابًّا وفتاة، يبدوان في أواخر سن المراهقة أو أوائل العشرينيات. وقد أشارت طريقة جلوسهما وتفاعلهما معًا إلى أنهما قد يكونان مرتبطين.

شم بيتر رائحة السكر المحترق مرة أخرى حتى شعر بسيلان لعابه. نهض من مكانه، وشرع في السير على طول الجدار قبل أن ينزل الدرج إلى الأرض. وعند وصوله إلى المنطقة التي تجمعت فيها دائرة الأشخاص، تردد فترة وجيزة قبل اتخاذ قراره بالانضمام إليهم، لكنه اختار أخيرًا الجلوس معهم على أن يظل صامتًا، ويراقب الوضع فقط بدلًا من المشاركة في المحادثة.

اختار جذع شجرة مجاورًا للمكان الذي كان يجلس فيه الشاب والفتاة، حيث أدرك الآن على وجه اليقين أنهما كانا بالفعل مرتبطين، كما يتضح من خلال يد الشاب التي تستريح على ركبة الفتاة. وإدراكًا منه أنهما من المحتمل أن يعيراه اهتمامًا أقل، اختار الجلوس بالقرب منهما.

كانت الفتاة ترتدي وشاحًا مزينًا بالزهور حول شعرها الكثيف الداكن المجعد. واستقبلت بيتر بابتسامة لطيفة لدى انضمامه إليهم.

وفي الوقت ذاته، انحنى الشاب الذي كان يجلس بجوارها إلى الأمام، ما كشف عن رأسه المحلوق حديثًا، بالإضافة إلى وشم على رقبته، ثم لوح بيده تحية لـ بيتر، والتفت مرة أخرى إلى النار.

منحت الفتاة بيتر كيسًا من حلوى المارشميلو، بالإضافة إلى بعض الأعواد الخشبية التي كانت تحملها، وقالت له: «لقد منحنا إياها أحد الأشخاص هدية، فجميع الأشخاص الذين نقابلهم يتميزون بالكرم الشديد، فهم يشعرون بالامتنان لجهودنا في تنظيف المياه التي يشربونها. وقد منحتنا إياها تحديدًا امرأة عجوز في آخر بلدة كنا فيها، وذلك لدى علمها أنني وصامويل غالبًا ما نقضي وقتًا طويلًا في الهواء الطلق».

انحنى صامويل إلى الأمام مرة أخرى، وقال موضحًا: «أنا وجايد نعمل كفريق استطلاع متقدم في الكتيبة. وكانت تلك المرأة العجوز قد أخبرتنا بأن حفيدها كان جنديًّا مشاركًا في الحرب، وكان أكثر شيء يشتاق إليه حينها هو حلوى الخطمي».

أضافت جايد: «يحاول الأشخاص منحنا كل أنواع الهدايا، مثل الحلي أو الهدايا التذكارية الخاصة بأفراد عائلاتهم الذين لقوا حتفهم في الحرب. ومع ذلك، لا يمكننا سوى قبول الطعام».

بدأ أحد الرجال الجالسين حول النار في مشاركة حكاية عن شخص حاول إهداءه حصانًا. ثم أضافت امرأة تجلس على الجانب الآخر قصة عن حيوان الفأر الكيسي الذي تسبب في حدوث فوضى في خيمة الطعام، ما أثار ضحك المجموعة الملتفة حول النار. أما بيتر فقد شرد ذهنه، وهو يشاهد حلوى المارشميلو الخاصة به تُحمص على النار. وقد تناولها بالفعل بعد أن شويت وصارت مقرمشة من الخارج وتقطر سائلًا لزجًا حلوًا من الداخل. وشعر مجددًا بمدى تقديره المستقبل الذي ينتظره. فقد شعر بالرضا عن طريقة العيش هذه.

بيد أن جايد عكرت صفو هذه اللحظات الممتعة التي كان يعيشها بيتر، حين قالت: «لقد رأينا عائلة من الثعالب الأسبوع الماضي».

شعر بيتر بالتوتر، وتسمر في مكانه.

استرسلت الفتاة: «إنها عبارة عن أبوين وثلاثة من الأبناء، وقد بدت الثعالب رائعة للغاية».

مسح بيتر يديه في بنطاله قبل أن يضع العصا التي كان يحملها على صخرة بجواره، ثم سألها وهو يأمل ألا يفضح صوته مشاعره المضطربة: «كيف بدا شكلهما، أعني الوالدين تحديدًا؟».

تساءل صامويل وهو يلعق بقايا حلوى الخطمي على أصابعه: «كيف يبدو شكلهما؟! ألا تبدو جميع الثعالب ذات شكل متشابه تقريبًا؟».

رفع بيتر ركبتيه إلى أعلى وضمهما إلى صدره، وأجاب قائلًا: «نعم، صحيح». لقد أدرك أنه لم يكن عليه أن يسأل مثل هذا السؤال.

وهنا تدخلت الفتاة، وحاولت توضيح الأمر قائلة: «لا يا صامويل، إن الثعالب تبدو مختلفة حقًّا» ثم توجهت بالحديث إلى بيتر: «كانت الثعالب عند البحيرة، لذا كنا نراقبها من خلال المنظار الثنائي، لكنني أتذكر شيئًا ما، كان ذيل أحد الوالدين غريبًا بعض الشيء، كان مجردًا من الفرو وأشبه بالسوط».

تسارعت نبضات قلب بيتر؛ فقد رأى باكس آخر مرة برفقة ثعلبة ذات وجه حاد، وفراء نحاسي لامع، لكن ذيلها بدا كأنه محروق. فسأل الفتاة ثانية، محاولًا إخفاء إثارته: «هل تتذكرين كيف كان يبدو الثعلب البالغ الآخر؟».

أعربت جايد عن أسفها قائلة: «للأسف، كنت أراقب بشكل أساسي مجموعة الثعالب الصغار، كان من الواضح أنها لم تزَ الماء من قبل. ما جعلني أتساءل كيف سيكون شعورها عندما ترى المياه وتجربها لأول مرة؟» ثم حولت انتباهها إلى مياه البحيرة التي كانت تتلألأ في ضوء النجوم. وقالت أخيرًا: «تبدو المياه رائعة للغاية، أليس كذلك؟».

صمت جميع الأشخاص الجالسين، وكانوا يركزون اهتمامهم تمامًا على حديث جايد في تلك اللحظة.

تابعت جايد حديثها قائلة: «ثم بدأ الصغار التفاعل مع المياه بشكل أفضل. لقد تصرفوا تمامًا مثل أطفال البشر؛ فقد بدوا خائفين في البداية من المياه، لكن سرعان ما تغلب فضولهم على خوفهم. وبدأوا استكشافها، وغمسوا أرجلهم فيها، ثم تراجعوا بسرعة. ثم سرعان ما ألفوا المياه، وبدأوا الاستمتاع بها، والتحرك بنشاط خلالها ما أحدث رذاذًا حولهما، وأخذ كل منهم بدفع الآخر بشكل مرح. ثم هدأوا وتوجهوا للشرب. وقد شعرت بالسعادة كونها تجربتهم الأولى لشرب المياه، ولأننا ساعدنا على جعل هذه المياه نظيفة للغاية».

سألها بيتر: «هل كانت نظيفة بالدرجة الكافية؟».

أجابت جايد: «نعم. نظيفة بما يكفي بحيث لا تسبب أي ضرر . لقد أزلنا منها السموم والملوثات. وكل ما تبقى الآن هو استعادة نظام بيئي متوازن في المنطقة».

أشارت جايد إلى كيس حلوى المارشميلو الخاص بـ بيتر، لكنه هز رأسه معربًا عن رفضه تناول أي منه الآن، فلم يكن قادرًا بالفعل على تناول أي شيء في تلك اللحظة.

واصلت جايد حديثها، بينما كانت تعبث بأحد طرفي وشاحها من خلال لفه حول إصبعها: «كان الأمر ممتعًا للغاية. فنحن نفعل الشيء ذاته في كل مرة، حيث نذهب إلى مكان توجد فيه مياه ملوثة، وننظفها، ثم نتحرك باتجاه مجرى النهر. وهكذا نكرر هذا العمل مرارًا وتكرارًا. فكما تعلم أنه بالإضافة إلى عودة البشر إلى تلك المناطق مرة أخرى، واستفادتهم من تلك المياه النظيفة، يعني هذا أن الحيوانات في تلك المنطقة ستتمكن من شرب مياه نظيفة أيضًا، ومن ثم البقاء على قيد الحياة. وهذا أمر رائع بالطبع. لكن هذه هي المرة الأولى التي ألمس فيها أهمية ما نقوم به حقًّا، ومدى تأثيره على أرض الواقع. والفضل في ذلك يرجع لعائلة الثعالب هذه. إنني أشعر الآن بأن تلك العائلة تخصني».

قال لها صامويل بنبرة متشككة: «تتحدثين كأن بإمكانك امتلاك ثعلب لتربيته».

هنا قال بيتر بهدوء: «كنت أمتلك ثعلبًا ذات يوم»، ثم توقف وانتظر حتى هدأ الاختناق الذي شعر به، كأن أحدهم يقبض على عنقه بكلتا يديه. وما إن هدأ قليلًا، استرسل قائلًا: «في الحقيقة لم أكن أمتلكه، فهذه ليست الكلمة الصحيحة التي تصف الموقف بدقة»، وكان يعرف الكلمة الصحيحة، وهي أحبه، لقد أحب باكس كثيرًا، وأحبه باكس كذلك. لكنه لم يقل هذه الكلمة، وإنما قال في النهاية: «لقد كان أليفًا».

انضم إليه الآخرون، وتشاركوا الحديث عن حيواناتهم الأليفة. ثم انتقلوا إلى موضوعات مختلفة.

لكن بيتر لم يستطع تجاوز هذا الموضوع، ومناقشة غيره.

لقد كانوا على بعد ثمانين كيلومترًا فقط شمال المكان الذي افترق فيه عن باكس آخر مرة، ولم تكن هذه مسافة كبيرة بالنسبة لأي ثعلب. علاوة على ذلك، لا يوجد بالتأكيد كثير من الثعالب التي لها ذيل محروق أليس كذلك؟ ماذا لو كانت تلك الثعالب التي رآها هذان الشخصان هي في الواقع باكس وزوجته وأولاده؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن باكس أصبح لديه عدد من الصغار الآن.

لم يستطع بيتر تصور باكس سوى ثعلب صغير كما رآه أول مرة. لقد تذكر بوضوح تلك اللحظة التي التقط فيها ذلك المخلوق الصغير ذا الفرو الجميل بلطف من جحره. أعادت ذكرى إمساكه بباكس وضمه إليه موجة عارمة من المشاعر التي اجتاحته تمامًا؛ فقد تذكر بوضوح شعوره بنبضات قلب الثعلب القوية والسريعة للغاية عبر الصوف الناعم لقميصه بينما كان يحتضنه.

نظر إلى الغابة المظلمة التي تقع بالقرب منه، وشعر بنبضات قلبه تتسارع، بينما كان يفكر في احتمالية أن يكون الثعلب الذي رآه هذان الشخصان هو صديقه القديم باكس. ربما يقيم باكس وعائلته هنا بالفعل على مقربة منه.

شعر عندئذ بالارتباك والاضطراب الشديدين؛ فقد أدرك أنه سيظل يفكر في صديقه القديم كل دقيقة تقريبًا، وأنه لن يغيب عن باله أبدًا. ففي كل مرة يشهد فيها أي حركة، أو يلمح فروًا بنيًّا مائلًا إلى الحمرة في الغابة، يملأ الأمل قلبه، لكنه لا يلبث أن ينسحق بعد لحظات. يبدو أنه سيضطر إلى ممارسة التمرين الذهني الذي كان يلجأ إليه لدى تذكره باكس مئات المرات في اليوم، لكنه لن يؤتي بثماره.

قاطع حديث جايد وصامويل، فقد كانا يتحدثان معًا في تلك اللحظة، وتساءل: «متى سنغادر؟».

هز صامويل كتفيه قائلًا: «معظم الأفراد سينتهون من عملهم هنا في غضون أسبوع تقريبًا».

رأى بيتر أن أسبوعًا - الذي قد يمتد إلى عشرة أيام - هو فترة طويلة للغاية.

أضافت جايد: «سيبقى بعض الأفراد هنا لتزويد البحيرة بالأسماك والمحار والنباتات المائية. وتستغرق هذه المهمة أسبوعًا إضافيًّا ما يعني أن البعض سيمكث هنا أسبوعين تقريبًا».

لن يطيق بيتر الانتظار أسبوعين، فقد يُجن من كثرة التفكير. فعاود السؤال مرة أخرى: «تقولان إنكما ضمن فريق الاستطلاع، ما يعني أنكما ستكونان ضمن الأفراد الذين يغادرون أولًا. فمتى ستغادران إذن؟».

أجابه صامويل: «غدًا، ولكن...».

هنا قال بيتر على الفور: «سأغادر معكما، سوف أنضم إلى فريقكما».

قالت جايد: «لا. لا يمكنك الانضمام إلى فريقنا، فنحن لا نسمح بانضمام صغار المحاربين عديمي الخبرة إلينا. فنحن نعمل في ظل ظروف صعبة للغاية».

هنا قال بيتر: «لقد خضت ظروفًا صعبة بالفعل؛ فقد عشت في غرفة من دون كهرباء طوال العام الماضي، كما يمكنني الطهو على النار، واستخدام البوصلة للملاحة، وبناء جهاز التقطير الشمسي لتنقية المياه. أنا بارع في كل شيء تقريبًا».

ترددت جايد لحظة، ثم هزت رأسها أخيرًا معربة عن رفضها قائلة: «لا. لا يمكنك. فمع أن العيش في غرفة من دون كهرباء مدة عام أمر يظهر مستوى معينًا من الاعتماد على الذات، لكن وجهتنا التالية تمثل تحديًا مختلفًا؛ حيث يتميز المكان بتضاريسه الوعرة، الأمر الذي يتطلب مهارات محددة، بالإضافة إلى ضرورة السفر بأقل قدر من الأمتعة والمعدات».

هب بيتر واقفًا، وعقد ذراعيه على صدره، وقال لها: «لكنني لا بد أن أذهب! أرجوكما. أنا أعرف هذه المنطقة جيدًا، فهي المنطقة التي نشأت وتربيت فيها. وقمت برحلة إلى هناك العام الماضي. بدءًا من المنحدرات في الغرب، ثم مرورًا بالغابات، وقطعت مسافة خمسة وستين كيلومترًا تقريبًا للوصول إلى المصنع القديم الذي يقع بجوار شلالات النهر، حيث تركزت القوات. وقد قمت بهذه الرحلة بمفردي، بالإضافة إلى...».

وهنا قال صامويل بنبرة حازمة: «للأسف. لا أقبل أنا أو جايد بانضمام المبتدئين عديمي الخبرة إلى فريقنا».

أضاف بيتر: «لقد قمت بهذه الرحلة بمفردي مستخدمًا عكازين».

نظر إليه كل من جايد وصامويل، ثم سأله الأخير في دهشة: «هل تقول باستخدام عكازين؟».

أوضح بيتر لهما الأمر: «لقد كُسرت ساقي، ومع ذلك قطعت مسافة خمسة وستين كيلومترًا. ونصبت خيمة صغيرة للإقامة بها فترة قصيرة، وتسلقت المنحدرات، وعبرت النهر، كل ذلك باستخدام العكازين».

رفع صامويل يديه إلى أعلى، مع توجيه راحتيهما إلى الخارج في إشارة إلى مطالبة بيتر بالتوقف واستسلامه لحججه المقنعة. كما ابتسمت جايد ابتسامة استحسان. ثم قالت أخيرًا: «عليك أن تنام الآن، فسوف نغادر في الفجر».

13

وقف باكس عند أعلى التل يحدق إلى الأسفل متفحصًا النيران المشتعلة التي تقع على بعد أربعمائة متر من موقعه الحالي.

اشتعلت النيران على طول حواف المنطقة البيضاوية المتفحمة الواقعة أسفل الوادي. ومع أن تلك النيران بدأت التهام العشب مصدرة صوتًا هادئًا خفيضًا، وليس صوتًا مرتفعًا مخيفًا، كان الدخان الناتج عن الحريق كثيفًا وخانقًا. ثم سمع باكس بعد دقيقة صياح أحد الرجال، ورد رجل آخر عليه، فعلى الرغم من أن الدخان قد سلبه قدرته على اكتشاف رائحة البشر، لم يفاجأ باكس بوجود هؤلاء؛ فدائمًا ما ارتبط وجودهم بالحرائق.

انزعج باكس واقترب من النيران أكثر حتى تمكن من تمييز رجلين، ثم اثنين آخرين، متمركزين على الحافة البعيدة للنار المشتعلة؛ لكنه ما لبث أن شعر ببعض الارتياح؛ حيث أدرك أنه على الرغم من القوة الهائلة للنار، فإنها في النهاية أداة تخدم البشر في بعض الأحيان، ولديهم القدرة على السيطرة عليها وإخمادها عند الضرورة. شاهد باكس صديقه القديم وهو يساعد على إطفاء النيران من خلال سكب المياه فوقها.

كانت لدى باكس ثقة بقدرة البشر على السيطرة على النار في فترة قصيرة، كما يفعلون دائمًا. وقد قرر أنهم إن وجَّهوا النار نحو أعلى التل، فسوف يغادر باتجاه النهر، حيث يعرف أن النيران لا يمكن أن تصل إلى هناك. لكنه قرر الآن نيل قسط من الراحة، وتناول بعض الطعام.

شق طريقه عائدًا إلى أعلى التل، حيث كان الهواء أكثر نقاء. ومن ثم نزع لحاء شجرة صنوبر ملقاة على الأرض ثم تناول اليرقات الموجودة أسفله. واحتمى في أغصان الشجرة التي كانت لا تزال مغطاة بالأوراق الكثيفة، وتراجع إلى الداخل تمامًا حتى لم يعد ظاهرًا منه سوى وجهه. وقد قرر الاستراحة في هذا المكان حتى تنطفئ النيران، ثم يستأنف السفر جنوبًا مرة أخرى.

ظل باكس مستلقيًا فقط دون أن ينام حتى منتصف فترة ما بعد الظهر. وعندما بدأ استكشاف ما يحيط به من الخارج، لاحظ أن البشر قد توجهوا غربًا، وأخذوا نيرانهم معهم. ولم يرَ في الأسفل حيث كانوا سوى ومضات صغيرة متوهجة من النيران.

غامر باكس بالتوجه نحو الحافة الخارجية للمنطقة المحترقة، ولاحظ أن الأرض تحته أصبحت أكثر سخونة. كما لاحظ أن بعض الشجيرات الخشبية المنتشرة في المنطقة لا تزال تنبعث منها بعض النيران الخافتة، بينما فاحت رائحة العشب المحروق والتربة المحترقة في الهواء. كما شم أيضًا بعض اللحم المحترق، وعندما تقدم قليلًا لاحظ بالفعل بعض الفئران المتفحمة بفعل النيران، لكنه تجاهلها. وبعدها اكتشف عشًا فيه بيض طائر الحجل لم تطله النيران إلا قليلًا، لذا قرر أن يأكله، كان البيض من الداخل دافئًا وصلبًا، وليس سائلًا، تناوله على الفور حتى شبع.

واصل باكس تقدمه إلى الأمام نحو منتصف المنطقة المحترقة أسفل الوادي، وشعر بالأرض تحت أرجله تزداد سخونة. ثم دوى صوت فرقعة حاد، فجفل باكس وقفز من مكانه. وبينما كان يبتعد مسرعًا عن تلك المنطقة، داس عن طريق الخطأ على فرع مشتعل ما أدى إلى حرق إحدى ساقيه الخلفيتين.

شعر باكس بالألم نتيجة احتراق ساقه، وسرعان ما عاد إلى ملجئه خلف جذع شجرة الصنوبر، ومن ثم أخذ يلعق ساقه المحترقة في محاولة لتهدئة الألم. ولحماية نفسه من الدخان، قام بلف ذيله الكثيف حول خطمه، وأغمض عينيه. وقرر الانتظار حتى الغسق ليقوم بمحاولة أخرى لعبور الوادي، بعد أن تكون درجة الحرارة قد هدأت كثيرًا .

وقبل أن يستأنف رحلته، تسلق باكس هذه المرة قمة التل ليراقب بعناية المنطقة المحيطة بحثًا عن أي تهديدات محتملة قد تلاحقه. وعلى الرغم من أنه لم يتوقع مواجهة أي خطر؛ حيث إنه لم يصادف أي حيوانات مفترسة أثناء رحلته الليلة السابقة، كان يعلم أن ساقه المصابة قد تعوق سرعته وخفة حركته، لذا أدرك حاجته الماسة للتحلي بمزيد من اليقظة والحذر حتى يُشفى.

على الجانب الآخر من التل، كان الهواء منعشًا وخاليًا من الدخان. وألقت شمس الغروب أشعتها الخافتة بزاوية مائلة على أشجار البتولا الموجودة عند المنحدر البعيد، فكان تدفقها أشبه بتدفق مياه المطر المتساقطة بشكل مائل: حيث غمر الضوء قمم الأشجار تمامًا، ثم تدفق بعد ذلك عبر أغصان الأشجار متبعًا منحنياتها وخطوطها الطبيعية، كما انعكس على الأوراق، وأضفى عليها بريقًا لامعًا بدا أشبه بقطرات المياه المتلألئة في الضوء. وزادت من جمال المشهد رفرفة سرب من الفراشات ذات اللون الأزرق الفاتح برشاقة لأعلى وأسفل في حركة إيقاعية تشبه التنفس.

لم يلحظ باكس خلال فترة وجيزة أي شيء مثير للقلق. ومن ثم لعق ساقه المصابة مرة أخرى، وكان في طريقه للمغادرة، عندما لاحظ حركة بسيطة بين الشجيرات الصغيرة الواقعة أسفل شجرة البتولا، فوقف مكانه بلا حراك.

لاحظ باكس الحركة وهي تتجه أسفل المرج، لكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء باستثناء العشب المضطرب، ما يشير إلى أن الدخيل كان صغيرًا جدًّا بحيث لا يشكل تهديدًا بالنسبة له. ربما كان أرنبًا يتصرف بتهور أكثر من المعتاد، أو ظربانًا أخرق خرج للبحث عن صيد في المساء.

لكن ما إن وصل هذا الكائن عند بقعة مكشوفة مفروشة بالحصى حتى رآه باكس.

قفز باكس من فرط الدهشة، شعر بمزيج من الفرح والخوف في الوقت ذاته، ثم ركض بأقصى سرعة إلى أسفل التل، ثم عبر جدول المياه بسرعة وخفة حتى وصل أخيرًا إلى ابنته وهو يلهث.

عندما اقترب منها، توقفت الصغيرة عن الحركة، وجلست رافعة رأسها كأنها تنتظر ترحيب أبيها بها. ثم قالت له أخيرًا لقد تركتنا وحدنا وغادرت.

فحص باكس جسد الصغيرة كله بدقة وعناية شديدتين. كان جسدها مغطى بالغبار، ونبضات قلبها تتسارع بقوة، لكنه اطمأن لحقيقة أنها لم تصب بأي أذى. وعندئذ وقف منتصبًا، ومد أذنيه إلى الأمام، وعدَّل ذيله بحيث يبدو مستقيمًا. قال لها لم يكن يجب عليك أن تتبعيني. وذكَّرها بأنه أمرها بالبقاء في الجحر مع أخويها، وطاعة أوامر والدتها.

هبطت الصغيرة على الأرض ممددة جسدها، مظهرة الخضوع والندم. ثم قالت له لقد تركتنا وذهبت بعيدًا. وبادرة من المودة، أسندت ذقنها على إحدى قائمتيه الأماميتين، بحثًا عن الراحة والأمان.

نبهها باكس إلى المخاطر العديدة التي قد تواجه ثعلبة صغيرة مثلها أثناء السفر بمفردها. ووبخها بشدة لعصيان تعليماته. وعلى الرغم من كل ما قاله لها، ظلت مكانها بلا حراك معربة عن ندمها وخضوعها.

وأخيرًا هبط باكس على الأرض، وجلس أمام ابنته معربًا عن مسامحته إياها. كانت عيناها مغمضتين، وعندما لعق باكس خدها بلطف، أصدرت صوتًا رقيقًا، ثم انقلبت إلى الناحية الأخرى.

حمل باكس ابنته النائمة في فمه وقفز عائدًا نحو التل، لكنها ظلت مع ذلك نائمة نومًا عميقًا. وضعها بلطف في جزء منحنٍ من أحد فروع شجرة الصنوبر الملقاة على الأرض، ولم

تستيقظ. حتى عندما وقف بجوارها، وأسند ذقنه إلى رأسها الصغير، استمرت في النوم بسلام.

استلقى باكس بجانبها، وأحاطها بذيله بلطف وحنان. وقرر أن يعيدها إلى والدتها في الجحر بمجرد أن تستريح وتستعيد قوتها. وسيأمرها بالبقاء هناك بنبرة أكثر حزمًا هذه المرة. أما الآن فكان كل تركيزه منصبًا على الحفاظ على سلامتها وأمنها.

14

لم يقطعوا في اليوم الأول سوى تسعة كيلومترات ونصف كيلو فقط تقريبًا، لكنها كانت مليئة بالتحديات؛ حيث اضطروا للتنقل عبر الشجيرات الكثيفة، وتسلق المنحدرات صعودًا وهبوطًا. وكلما أصبح من الصعب عليهم اجتياز التضاريس على أي من الضفتين، اضطروا لعبور النهر من خلال الخوض في الأجزاء الضحلة منه. هذا بالإضافة إلى حملهم حقائب الظهر الثقيلة طوال رحلتهم.

كانت حقيبة ظهر بيتر أكثر ثقلًا؛ فبالإضافة إلى ملابسه الشخصية ومعدات التخييم، وضع داخلها صندوقًا من الورق المقوى يحتوي على رماد والده. لقد شعر بيتر بثقل الصندوق واصطدامه بظهره مع كل خطوة يخطوها، فأحس عندئذ بأن والده يربِّت ظهره دعمًا له.

انطلقوا عند الفجر وساروا مدة أربع ساعات متواصلة نحو وجهتهم التي مثَّلت نقطة التحدي الأولى في رحلتهم الاستكشافية. كان النهر يتدفق بجانبهم بسرعة كبيرة، ما أحدث ضجيجًا عاليًا جعل تحدثهم فيما بينهم أمرًا صعبًا للغاية. فضلًا عن أن التضاريس الصعبة استنفدت طاقتهم، ما جعل من الصعب عليهم التحدث كثيرًا على أية حال، وهو ما كان جيدًا تمامًا بالنسبة لبيتر. لكنه مع ذلك تمكن من معرفة الكثير عن رفيقيه.

لاحظ أن جايد كانت تتحرك أسرع وأكثر خفة منهما؛ حيث كانت تجتاز التضاريس الوعرة وهي تدندن بينها وبين نفسها بأسلوب مرح محولة الأمر للعبة ممتعة. وكانت تتوقف كثيرًا على طول الطريق، وقد اعتاد بيتر الانتباه دائمًا لما تنظر إليه؛ نظرًا لما كانت تقع عليه عيناها من اكتشافات رائعة حقًّا، مثل ذلك الطائر الذي كان يقف في الغابة المظلمة بريشه الرائع ذي الألوان الزاهية التي تبدو مثل اللهب المشتعل، وشبكة العنكبوت المزينة بقطرات من ندى النهر القريب. والفطر وردي اللون الذي بدا من شدة روعته كأنه جزء من قصة خيالية. أما صامويل فقد انطلق في رحلته بحزم وتصميم، حيث تقدم في خط مستقيم ورأسه منحنٍ إلى الأسفل تمامًا مثل الآلة.

ذات مرة أمسك بيتر بذراعه، وقال له مشيرًا إلى ممر موحل: «كن حذرًا. فقد كُسرت ساقي ذات مرة في مكان كهذا؛ حيث لا يمكنك رؤية جذور النباتات المتشعبة تحت الوحل، وهي زلقة وخطيرة للغاية»، ثم أخرج بيتر معطف المطر الخاص به، ووضعه فوق المنطقة الموحلة، وأضاف قائلًا: «سنعبر الممر على هذا المعطف، فذلك سيكون أكثر أمانًا بالنسبة لنا. ويمكنني في النهاية غسله في النهر مساء».

ولدى وصولهم إلى نقطة التجمع الأولى، حيث يتوقفون لجمع البيانات والعينات والعناصر الأخرى ذات الصلة، وضعوا الطاولة المخصصة للاستخدام أثناء التخييم، ونظموا معداتهم بشكل جيد، ووضعوا كل شيء في مكانه الصحيح. كان صامويل يشرح كيفية تصنيف العينات، عندما وقف بيتر فجأة قائلًا: «أشم رائحة دخان».

أومأت جايد برأسها قائلة: «إنهم فريق آخر من كتيبة محاربي تلوث المياه، فهم يعملون في وديان مختلفة، حيث توجد جداول المياه الملوثة، ويقومون بإشعال النار في الأعشاب الضارة، ثم يزرعون التربة بعد ذلك بالأعشاب المحلية الصالحة للزراعة».

شعر بيتر بمزيج من البهجة والطمأنينة عندما علم أن هناك فرقًا أخرى تعمل إلى جانبهم لمعالجة المشكلات الناجمة عن الحرب. لقد جعله ذلك يشعر بأنه جزء من قضية كبيرة هادفة ومؤثرة.

ثم قرروا توزيع المهمات بشكل عشوائي من خلال إحضار ثلاث عصي ترمز كل واحدة منها لمهمة مختلفة تتنوع بين فحص مياه النهر، والجداول التي تغذي النهر بالمياه، وجمع الرواسب. وبعد الانتهاء من مهماتهم تناولوا وجبة غداء بسيطة مكونة من بعض الشطائر، ثم حزموا معداتهم، وأدواتهم، واستأنفوا رحلتهم.

وبعد تحركهم فترة من الوقت أسفل التل، توقفت المجموعة فجأة. وذلك نظرًا لحدوث انهيار صخري جعل ضفة النهر على جانبهم غير مستقرة وغير آمنة للعبور.

نظر صامويل إلى النهر الضيق والعميق في الأسفل، حيث تتدفق المياه بقوة فوق الصخور المتناثرة، في مجراه، وقال: «لا يمكن أن تتعرض معدات الاختبار للبلل وإلا فسدت. لا نستطيع المخاطرة بأي شكل من الأشكال. لا بد أن نجد طريقًا بديلًا».

وهنا قال بيتر: «أو يمكننا... انتظرا فحسب»، وأخذ ينظر حوله إلى أن وجد ما كان يبحث عنه.

سألته جايد في دهشة: «ما الذي يجعلك تبتسم؟».

اقترب بيتر من مجموعة من أشجار البتولا ذات الجذوع البيضاء الواقعة بجوار النهر. ثم بدأ تسلق أطول شجرة. وصاح عندما وصل إلى القمة قائلًا: «سنلجأ إلى تقنية ثني جذع شجرة البتولا»، ثم أمسك بالجزء العلوي من جذع الشجرة بكلتا يديه، وأنزل جسده كله، ما جعل الشجرة تنحني إلى الأسفل. واستمرت الشجرة في الانحناء، لتشكل قوسًا فوق النهر حتى نزل عنها بأمان على الجانب الآخر.

بعد أن وصل إلى الجانب الآخر بأمان. ترك بيتر جذع الشجرة، ما أدى إلى ارتدادها مباشرة إلى وضعها الأصلي.

رفعت جايد ذراعيها عاليًا، وأخذت تصفق لبيتر تعبيرًا عن إعجابها بما قام به من فوره. ثم ما لبثت أن عدلت أحزمة حقيبة ظهرها، وتسلقت جذع الشجرة بحذر، وحذت حذو بيتر

في ذلك، وبالفعل هبطت على الجانب الآخر بلطف كأن الشجرة كانت تدرك أنها امرأة رقيقة. وعندما حان دور صامويل، لم يتمكن من إخفاء ابتسامته عندما تسلق الشجرة بسرعة وتأرجح عبرها، بدا في تلك اللحظة كأنه صبي في عمر بيتر نفسه.

وبعد هذه التجربة بالتحديد تغير منظور بيتر عن نفسه، إذ لم يعد يرى أنه مجرد تابع يسير خلف اثنين من كبار أعضاء كتيبة محاربي تلوث المياه، وإنما شعر بأنه واحد منهم، وأنه على المستوى نفسه مثلهم، وأنهم جميعًا يعملون معًا لتحقيق هدف مشترك.

ولدى وصولهم إلى الموقع التالي في رحلتهم، جمعوا العينات، وسجلوا البيانات، وشرعوا في إشعال النار باستخدام الحطب الذي أعده بيتر. ولم يمضِ وقت طويل حتى نضج الحساء فوق اللهب، وبدأ الغليان.

جلس بيتر على صخرة، وأدار ظهره للنار المشتعلة، وبدأ مشاهدة أضواء الشفق وهي تنسدل تدريجيًّا فوق النهر. ومع اقتراب الظلام، بدأت النجوم تظهر في السماء، واحدة تلو أخرى. وكان الهواء يحمل رائحة دخان معروفة، بالإضافة إلى رائحة الطحالب الرطبة، ما يوحي بأن هناك الكثير من العناصر الخفية في البيئة التي تنتظر من يكتشفها. ومع شعوره بالإرهاق الشديد، مر بيتر بحالة وعي متزايدة، وشعر بارتباط وثيق بالليل الذي يغشاه.

قدم صامويل الحساء في ثلاثة أطباق ووزعها مع الملاعق. انضم بيتر إليهما، وحصل على قطعة خبز من جايد. ومن ثم راقبها وهي تقطع خبزها وتغمسه في الحساء، ثم حذا حذوها.

قال صامويل بعد لحظات: «يجب أن يكون عملنا في الغد أسهل»، ثم وقف وجمع الأطباق والملاعق بعد أن فرغ الجميع من طعامهم، وأضاف: «من المحتمل أن نقطع ثلاثة عشر كيلو مترًا على الأقل، وربما ستة عشر كيلومترًا. بالمناسبة ما فعلته اليوم أيها الصبي عندما تسلقت شجرة البتولا كان عملًا رائعًا. أحسنت عملًا يا رجل!».

شعر بيتر بالامتنان للظلام الذي أرخى سدوله على المكان، وأخفى احمرار وجهه خجلًا مما قاله له صامويل. ثم نهض من مكانه، ووضع كيس النوم الخاص به على الجانب الآخر من المكان الذي بسط فيه الخطيبان كيسي نومهما لقضاء ليلتهما. وقد فكر مرة أخرى في إطراء صامويل عليه حين قال له أحسنت عملًا يا رجل! كان لهذا الإطراء أهمية خاصة بالنسبة لبيتر، خاصة أنه كان من صامويل الذي كان يختار كلماته بعناية قبل أن يتفوه بها. تمنى بيتر لو سمع جده وأبوه كلمات الإطراء هذه.

تحسس بيتر حلقه، ولاحظ نمو حنجرته بشكل ملحوظ. دائمًا ما شعر في الماضي بالخجل من الطبيعة المتغيرة لصوته، خاصة خلال الصيف السابق. ومع ذلك، تغيرت وجهة نظره الآن، وأصبح يقدر الصدى الأعمق لصوته، معترفًا به رمزًا لرحلته نحو الرجولة، وهو التغيير الذي كانت له جاذبية شخصية بالنسبة له.

وبالفعل عمل بيتر طوال العام على تقوية جسده، وأصبحت يداه أكثر صلابة. كما أسهم استخدامه العكازين في الربيع الماضي في تقوية عضلات كتفيه. وأصبح ظهره عريضًا وقويًا نتيجة عمله في حقول فولا الصيف الماضي، بينما اكتسبت ذراعاه وساقاه قوة أكبر بعد الأشهر الستة التي قضاها في بناء كوخه.

حتى عند ممارسته التمرين الذهني الذي كان يلجأ إليه لتهدئة مشاعره حين يتذكر باكس، شعر أحيانًا بأن قلبه لم يعد ضعيفًا كالسابق، بل أصبح أكثر صرامة كأن قلبه قد تبدل بحجر.

لكنه أدرك حاجته إلى أن يصبح أقوى حتى يتمكن من التغلب على التحديات التي سيواجهها أثناء العيش بمفرده.

وضع بيتر قبضة يده بقوة على صدره متخيلًا وجود حجر مكان قلبه. ثم قرر تحويل هذا الحجر المتخيل إلى شيء أقوى، إلى صخرة صلبة.

15

استيقظ باكس على الفور ما إن سمع أصواتًا بشرية، وأصبح منتبهًا تمامًا.

كانت ابنته نائمة بين قائمتيه الأماميتين. ومن ثم تمكن باكس من الابتعاد عنها بحذر دون إزعاجها، واقترب من حافة التل لينظر إلى الوادي. أشرقت شمس الصباح، وأضاءت بأشعتها الأرض المتفحمة. وعلى الرغم من قلة الرياح، وأي وجود ظاهر للبشر، تمكن باكس من سماع أصواتهم مرة أخرى.

صعد إلى قمة التل لينظر إلى جهة الشمال. ورأى هناك الرجال أنفسهم الذين رآهم من قبل. لقد عادوا واجتمعوا بالقرب من الجدول، وكانوا يرتدون سترات خضراء زاهية. وكانوا يحملون حاويات ضخمة فيها سائل قابل للاشتعال، ثم انقسموا إلى مجموعتين، حيث تمركزت كل مجموعة مكونة من فردين على أحد جانبي الجدول. ثم انحنوا جميعًا على العشب، وأشعلوا ألسنة اللهب، ثم اتجهوا غربًا، وأشعلوا المزيد من النيران على طول طريقهم. اتسعت رقعة النيران بسرعة، وشكلت حواجز مشتعلة على جانبي الجدول، ما أدى فعليًّا إلى عرقلة طريق باكس وابنته إلى المنزل.

عاد باكس بسرعة وأيقظ ابنته، قادها إلى قمة التل، ثم جلسا معًا مختبئين إلى حد ما. وقال لها هذه رائحة دخان منبعث من النيران المشتعلة. وعليكِ أن تتعلمي كيفية تمييزها.

استنشقت الصغيرة رائحة الدخان، ثم أغلقت عينيها بإحكام لحمايتها من أعمدة الدخان المتصاعدة.

واصل باكس نصائحه لابنته قائلًا متى ما شممت رائحة النيران، عليك أن تهربي منها على الفور، فالنار دائمًا ما تلتهم كل ما أمامها، فهي جائعة دائمًا، حتى إن كان البشر هم من صنعوها وقادرين على السيطرة عليها مثل هذه النيران التي ترينها.

فحصت الصغيرة الوادي بدقة، ثم اتسعت عيناها فجأة، وتساءلت قائلة هل هؤلاء هم البشر؟

لاحظ باكس دهشتها من الألوان الزاهية والمبهجة لملابسهم، فقال لها إنهم ليسوا بحاجة للتخفي، فهم ليسوا فريسة. وهم لا يرتدون الملابس الخضراء دائمًا، فهم يرتدون الملابس ذات الألوان والأنماط المختلفة. ثم تذكر كيف كان بيتر يرتدي أو يخلع طبقات الملابس ذات الألوان المختلفة بشكل مستمر طوال اليوم. ثم أضاف لا يمكنك الحكم على البشر من خلال مظهرهم وملابسهم، فلديهم القدرة على تغيير مظهرهم وفقًا للظروف.

تراجعت الصغيرة للخلف، واختبأت منكمشة تحت جسد أبيها. وقالت إنهم يشكلون خطرًا إذن.

راقب باكس الرجال في الأسفل الذين اجتمعوا معًا لمراقبة النار. وتذكر أنه خلال السنة التي قضاها في البرية، لم يصادف أي ثعلب آخر أقام علاقة مع إنسان وأحبه مثلما فعل هو، إلا أنه اكتشف أن معظم الثعالب تكتفي بالتعايش بسلام مع البشر. كان خوف بريسل الشديد من البشر أمرًا غير شائع، لكنه كان مفهومًا نظرًا لتجاربها السابقة؛ حيث فقدت

والديها وشقيقتها على أيدي البشر، كما حُرق ذيلها الكثيف، وتعرض شقيقها لإصابة في ساقه على أيديهم أيضًا.

وبالطبع ستنقل بريسل إلى صغارها المعرفة والخبرات التي اكتسبتها.

أكد باكس كلامها قائلًا إنهم يشكلون خطرًا بالفعل. ولا بد أن نظل على مسافة بعيدة منهم، كما يجب أن نغادر الآن. إذ لا يمكننا العودة من الطريق نفسه الذي جئنا منه، بل لا بد أن نتوجه شرقًا حيث يتدفق النهر. سنتوجه إليه عبر التلال، ثم نتبع مجراه عائدين إلى جحرنا.

تساءلت الصغيرة في دهشة النهر؟

قال باكس نعم. فالنهر عبارة عن مساحة شاسعة من المياه، تتدفق بقوة كبيرة مثل الرياح القوية. وهو يتدفق من البحيرة نحو الجنوب، ويمتد إلى الوادي الفسيح، وأبعد من ذلك. إننا سنذهب إلى هذا النهر، ثم نتبع مساره نحو البحيرة. ومن ثم نكون في مأمن من النيران؛ فاللهب لا يمكن أن ينتشر عبر المسطحات المائية.

كانت لدى باكس قناعة قوية بهذه الحقيقة. فقد لاحظ أنه كلما تسبب هؤلاء المتعطشون للحرب في حدوث انفجارات تدمر الأرض، كانت النيران تتوقف عند النهر ولا تعبره أبدًا. لذا أضاف أثبت الماء باستمرار أنه يشكل قوة هائلة ضد النار، ومن ثم تعترف النار بحدودها أمام المياه وتحترمها.

في البداية تمكنت الصغيرة من مجاراة خطوات والدها المعتدلة إلى حد ما، حيث كانت تركض خلفه بسيقانها القصيرة. لكنها وجدت بعد ذلك أن عليها تسلق الصخور، والفروع المتساقطة، وأكوام العشب التي كان باكس يعبرها بسهولة دون توقف، ما شكل بعض الصعوبة بالنسبة لها. وكانت تتوقف بين الحين والآخر لتشم أي شيء على الأرض قد يمثل طعامًا مناسبًا.

عندما اكتشف باكس رائحة جحر أرنب، أمر الصغيرة بالاختباء، وأن تظل ساكنة مكانها بلا حراك. وتقدم ببطء لإحضار وجبة لها. وبالفعل نجح في اصطياد أرنب ووضعه أمام الصغيرة. لكن بدلًا من التهامه، استنشقته لحظة، ثم رفعت رأسها، يبدو أنها كانت تتوقع منه شيئًا آخر.

تذكر باكس كيف كانت بريسل تطعم صغارها، وحاول تقليد تصرفاتها عن طريق مضغ لحم البطن الطري وتقديمه للصغيرة، تمامًا كما كان يرى بريسل. والتهمت الصغيرة الجائعة الطعام بلهفة حتى امتلأ بطنها.

وعندما استأنفا رحلتهما، كان سيرهما أبطأ. ومع غروب الشمس، بدأت الصغيرة تتعثر من شدة التعب.

حاول باكس ثلاث مرات مساعدة ابنته من خلال حملها من مؤخرة رقبتها عند عبور التضاريس الوعرة، لكنها كانت تقاوم ذلك، وتظل تصيح وتتلوى حتى ينزلها باكس. وبظهور الهلال في السماء، كان التعب قد استبد بالصغيرة، وتركها غير قادرة على المشي بثبات.

شعر باكس بالإرهاق أيضًا، فبحث عن مكان أكثر أمانًا ليرتاحا فيه. فنظر من فوق التل، ورأى منطقة مستوية مغطاة بالشجيرات عند قاعدة منحدر صغير.

شقا طريقهما إلى الأسفل، وانزلقا عبر نتوءات من الصخر الزيتي والصوان. ووصلا أخيرًا إلى الأسفل، واكتشف باكس منطقة غائرة عند الجرف تصلح مكانًا مناسبًا لهما ليرتاحا فيه.

كان الموقع مؤمنًا بشكل جيد: فإذا ما اقترب دخيل من الأعلى فإن الاضطراب الناجم عن حركته من شأنه أن يؤدي إلى إزاحة بعض الرواسب الصخرية، ما يخلق صوتًا ملحوظًا وينبه باكس. وإذا جاء من الأمام، فإن السيقان الجافة للشجيرات ستحدث ضجيجًا. وعلى الرغم من عدم اكتشاف أي علامات على وجود فرائس، أو حيوانات مفترسة، أو أي نشاط حيواني، فإن باكس كان لا يزال يشعر بعدم الارتياح.

تحرك باكس في مسار دائري داخل تلك المنطقة حتى تأكد من أنها آمنة تمامًا، ثم استقر هناك. وجلست ابنته بجانبه، وأغلقت عينيها، ولفت ذيلها الرقيق حول وجهها لحماية نفسها أثناء نومها. ثم انتظر باكس بصبر حتى تأكد من أنها قد نامت، ثم شرع في استكشاف المنطقة المحيطة للتأكد من خلوها من أي مخاطر قد لا يكون قادرًا على شمها.

لم يكن هناك أي نشاط أو حركة في هذه المنطقة، أما ما فاجأه أكثر فهو عدم وجود أي آثار حديثة لحيوانات أو علامات على حياة برية: مثل الأغصان المكسورة بفعل الغزلان، أو المسارات المميزة التي تنشئها حيوانات الراكون، أو الأنفاق تحت الشجيرات التي تنشئها القوارض. لم تكن أي من هذه العلامات موجودة.

رأى وراء الشجيرات الكثيفة صفًّا من أشجار الصنوبر الطويلة الذابلة الخالية من الأوراق. ومن بين جذوعها الفضية تمكن من رؤية لمحات عرضية لبركة داكنة تعكس ومضات بسيطة من اللون.

استنشق باكس الماء بحذر، واكتشف رائحة معدنية غير عادية تنبعث منه كتلك التي شمها داخل سيارة بيتر ذات مرة. ومن الغريب أنه لم تكن هناك أي روائح مألوفة للنباتات أو الكائنات الحية التي توجد عادة في البرك أو بالقرب منها. وبدافع من الفضول، اقترب باكس خلسة من شاطئ البركة، التي بدت هي نفسها كأنها مساحة من الظلام بيضاوية الشكل، هادئة للغاية لدرجة أن كل نجم في السماء كان ينعكس على سطحها بوضوح. وساد سكون غريب على طول حوافها، التي امتلأت بالعظام المتآكلة، ما خلق مشهدًا مؤرقًا من الخراب.

شعر ببعض الاسترخاء، حيث تأكد خلو المكان من أي أخطار، على الرغم من شعوره بقليل من عدم الارتياح.

بعد أن روى ظمأه، عاد باكس إلى المكان الذي استقر فيه مع ابنته ولف جسده حولها. ظلت نائمة، لكنه لاحظ سعالها أثناء نومها، علامة على حاجتها للماء.

وعندما استيقظت، قرر أن يقودها إلى البركة الهادئة والآمنة لتتناول بعض الماء.

16

بعد تناول وجبة من الحساء وبعض الخبز، جلس كل من جايد وبيتر على صخور مطلة على النهر، ووضعا مصباحًا بينهما للإضاءة. وفي هذه الأثناء كان صامويل يجلس بالقرب منهما، مستندًا إلى جذع شجرة عريض منهمكًا في القراءة ومعه مصباح يدوي.

قال بيتر: «لقد قطعنا مسافة أربعة عشر كيلومترًا تقريبًا اليوم». وكان يتابع تقدمهم من كثب، وقد شعر ببعض الارتياح بحلول الظهيرة عندما أدرك أنهم قد قطعوا مسافة كافية تجعل من الصعب بالنسبة له مقابلة باكس مرة أخرى.

أصدرت جايد بجانبه صيحة استهجان، وقالت: «أربعة عشر كيلومترًا فقط، لقد تمنيت دائمًا أن نقطع مسافة أطول من هذه، فلدينا الكثير من العمل لإنجازه. لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتسرع في أداء هذه المهمات».

وهنا سألها بيتر: «هل توصلتما لأي شيء بخصوص عينات المياه التي جمعناها اليوم وأمس؟».

أجابته جايد: «لقد لاحظنا بعض التغييرات، لكننا نحتاج إلى انتظار تقارير المختبر لتأكيدها. ومع ذلك، يمكنني ملاحظة وجود فرق».

تساءل بيتر في دهشة: «فرق؟».

أجابت جايد: «لقد أجرينا أنا وصامويل اختبارات على هذا الجزء نفسه من النهر قبل أن ننتقل إلى البحيرة، ونظرًا لأننا عالجنا مياه البحيرة، وأصبحت أكثر نقاءً الآن، يبدو أن هذا الجزء من النهر أصبح أكثر نظافة ونقاء نتيجة ذلك. ولكن مع تقدمنا في اتجاه مجرى النهر، سوف تصبح المياه أسوأ بكل تأكيد نتيجة تلوث الروافد المغذية للنهر. ومن ثم لا بد أن نتوقع تدهور حالة المياه في موقع التنظيف التالي بشكل كبير. ويقع هذا المكان بالقرب من مصنع قديم، حيث أقيم هناك معسكر أثناء الحرب، ومن ثم تلوثت المياه نتيجة استخدام كمية كبيرة من المواد الضارة التي تسربت إليها».

نظر بيتر مرة أخرى نحو النهر. وتذكر محادثته الأخيرة مع والده، حيث ناقشا الكثير من الأمور خلال يومهما الأخير معًا عند المصنع القديم. ومع ذلك لم يسأله بيتر عن وظيفته بالتحديد داخل الجيش، فلم يكن يريد أن يعرف. بيد أنه الآن لم يكن قادرًا على منع نفسه من التفكير في أن والده كان سببًا في تلوث المياه في هذا المكان. وهنا سأل جايد: «هل هذا هو المكان الأسوأ والأكثر تلوثًا هنا؟».

تنهدت جايد قائلة: «على الرغم من أن هذا المكان سيئ بالفعل لكنه ليس الأسوأ، فهناك بركة تقع على بعد كيلومتر ونصف الكيلو غربًا من أحد مواقع التجمع الخاصة بنا، ومياهها هي الأكثر تلوثًا على الإطلاق»، ثم توجهت بالحديث إلى صامويل وسألته: «هل تتذكر البركة البيضاوية، إنها تقع على بعد يومين فقط من هنا، أليس كذلك؟».

أجاب صامويل دون أن يرفع عينيه عن كتابه: «نعم، على بعد يومين أو ثلاثة».

أضافت جايد: «كانت تلك البركة البيضاوية مزدهرة ونابضة بالحياة، وكانت تعد كنزًا صغيرًا يعج بأشكال الحياة المتنوعة. لكن بعد أن قامت المقاومة بتدمير الجسر وإلقاء كمية كبيرة من المعادن فيها بشكل متهور، تلوثت مياهها، وأصبحت خالية من أي مظهر من مظاهر الحياة. بالإضافة إلى ذلك عانت النباتات المحيطة المصير نفسه بما في ذلك الأشجار المعمرة الرائعة، ما جعل المنطقة خالية من أي حياة برية. وأصبح لا يسود المكان إلا الصمت التام».

رأى بيتر من مكانه الخفافيش وهي تنزلق برشاقة فوق النهر، وسمع العصافير في أعشاشها تملأ الهواء بزقزقتها المبهجة، بينما أسهمت البومة في إضفاء جو من الحيوية في المكان من خلال إطلاق بعض الصيحات الخافتة. ويبدو أن الحياة ازدهرت بشدة في هذه المنطقة. وهنا سأل بيتر: «هل يمكن أن يعيش أي من الحيوانات بجوار هذه البركة البيضاوية؟».

أجابته جايد: «تهلك جميع الحيوانات الصغيرة نتيجة تلوث مياه البركة بالمعادن الثقيلة، أما بالنسبة للحيوانات الكبيرة فإنها تنجو».

فسألها بيتر: «إذن، هل الحيوانات الصغيرة فقط هي التي تموت؟».

أجابته جايد: «نعم، لأن أنظمتها العصبية لا تزال في طور النمو. لذا عندما تشرب المياه الملوثة تسبب لها أضرارًا لا يمكنها التعافي منها».

قال صامويل وهو لا يزال يتصفح كتابه: «لقد بذلت جايد جهودًا كبيرة للقضاء على هذا التلوث، لكن الوضع لا يزال صعبًا حقًّا».

خفضت جايد رأسها، وتمتمت قائلة: «لكنني لم أحقق النجاح الذي أتمناه».

أغلق صامويل الكتاب ووضعه في حقيبته، ثم جلس بجانبها ولف ذراعه حولها بينما بدت علامات فخره بها على وجهه، ثم قال: «لكنك مع ذلك بذلت كثيرًا من الجهد في هذا

الصدد».

تنهدت جايد، وقالت: «منذ شهر تقريبًا، صادفنا عشًّا لحيوان الراكون بالقرب من البركة. وللأسف، مات اثنان من الصغار بالفعل، وكان اثنان آخران مريضين للغاية. واتضح لي من الأعراض التي بدت عليهما أنهما كانا يعانيان التسمم بالرصاص. وشعرت برغبة قوية في إنقاذهما».

تفهم بيتر شعور جايد جيدًا، فقد خاض تجربة مماثلة قبل ذلك مع باكس عندما عثر عليه أول مرة، وكان على وشك الموت. وقد شعر في تلك اللحظة برغبة شديدة في اتخاذ إجراء ما، وبذل كل ما في وسعه لإنقاذ ذلك الثعلب الصغير. وشعر حينها بموجة من التعاطف مع جايد، وسألها: «ماذا فعلت إذن؟».

هزت جايد كتفيها في استسلام قائلة: «لقد حاولت إعطاءهما الحليب والفحم النشط لإزالة السموم من جسميها».

فسألها: «وهل أجدى ذلك نفعًا؟».

أجابته: «لا أعرف. فقد سمح لي الوالدان بالتعامل مع صغيريهما وظلا بالقرب منهما ما يدل على رغبتهما في عدم التخلي عنهما. لكن عندما وصلت المجموعة إلى البحيرة لتنظيفها اضطررنا إلى المغادرة، التزاماتنا الأساسية لها الأولوية، أليس كذلك؟».

سأل بيتر: «هل سنذهب إلى هناك؟ وهل سنأخذ عينات من البركة؟ ربما يمكنك رؤية حيوانات الراكون مرة أخرى لو ذهبنا إلى هناك».

قال صامويل: «لا، لن نذهب إلى هناك. فهي بركة من ضمن البرك الناتجة عن ذوبان كتلة كبيرة من الجليد».

وهنا عارضته جايد قائلة: «تستمد هذه البركة مياهها من المياه الجوفية في الأساس، ومهمتنا ترتكز فقط على أخذ عينات من النهر والبحيرة. ومن ثم تنظيف هذه البركة من اختصاص مجموعة أخرى غيرنا. لقد رأيتها مصادفة بينما كنت أنتظر وصول باقي أعضاء مجموعتنا» أسندت جايد ذقنها إلى ركبتيها، وأضافت: «إنني أجد بعض العزاء الآن في تخيل صغيري الراكون بصحة جيدة، وهما يتشاركان بسعادة نشاطاتهما المعتادة. سيكون من الصعب تصور عكس ذلك».

وقد أدرك بيتر من تعبيرات وجهها أنها ستواجه صدمة كبيرة لو أن حيواني الراكون قد واجها مصيرًا مؤسفًا بالفعل. وسألها وهو يشعر تمامًا بما تشعر به: «لا بد أنكِ تواجهين مثل هذه المواقف كثيرًا بحكم عملك، فلمَ اخترت إذن الاشتراك فيه؟».

بدت عليها الدهشة من بساطة السؤال، وأجابت بشكل بديهي: «لتنظيف المياه بالطبع».

أكد صامويل كلامها قائلًا: «إنها مهووسة بتنظيف المياه الملوثة»، وهنا رأى بيتر علامات الفخر قد ارتسمت على وجهه مرة أخرى وهو يتحدث عنها.

هزت جايد رأسها باستنكار، وقالت له: «بالطبع أنا مهووسة بالمياه النظيفة، وهل هناك شيء أكثر أهمية منها؟ ليست بالنسبة للحيوانات فحسب، بل للبشر أيضًا، فأجسامنا مكونة من الماء بنسبة كبيرة»، ثم هزت رأسها مرة أخرى، ونهضت لحفظ الطعام المتبقي.

التفت بيتر إلى صامويل، ثم سأله: «وماذا عنك؟».

حدق صامويل إلى النهر، وركز انتباهه على المياه المتدفقة. ثم خيم الصمت على المشهد، ولم يقطعه إلا هدير المياه. شعر بيتر بشرود ذهن صامويل، ما دفعه إلى التساؤل عما إذا كان قد طرح سؤالًا أثار عن غير قصد بعض المشاعر السلبية لديه.

لكن صامويل أجاب أخيرًا: «بعد انتهاء الحرب، شعرت بالضياع. فقبل أن ألتحق بالجيش لم يكن لديَّ أي هدف في الحياة. لقد ابتعدت عن عائلتي، وقطعت علاقاتي بأصدقائي. لقد

جاء التحاقي بالجيش بشكل غير متوقع. لكن بمجرد مشاركتي فيه استمتعت حقًّا بكوني جزءًا من فريق كبير، نتدرب معًا، ونعمل على تحقيق هدف مشترك، وعمل أعظم لا يمكن أن يؤديه فرد واحد بمفرده. لقد وجدت معنى لأفعالي، وأدركت أنها تحمل أهمية كبيرة، وأن الآخرين يعتمدون على أدائي لها بدقة وامتياز».

بعد يومين كاملين من العمل في كتيبة محاربي تلوث المياه، استطاع بيتر إدراك مقصد صامويل جيدًا، فقال له عندئذ: «يبدو أنك لم تكن تريد للحرب أن تنتهي مطلقًا، لا بد أنك كنت مستمتعًا بمشاركتك في هذه التجربة».

قال صامويل: «أنا لم أقل إنني كنت أرغب في استمرار الحرب. بل كان الأمر مروعًا حقًّا، فقد رأيت أشياء فظيعة. فقد قُتل أخي الأكبر، الذي كان الأقرب لي في عائلتي». ثم توقف صامويل لحظة، ورفع يده ليفرك بلطف الوشم الذي يزين رقبته، ثم استطرد قائلًا: «لقد مات كل الأفراد الذين تدربت معهم، لذا أستطيع أن أقول لك بكل ثقة إنني لم أفتقد مشاركتي في الحرب، لكنني أتوق بالفعل إلى بعض الجوانب الأخرى منها، مثل الانتماء إلى الوطن والدفاع عنه، والعمل على تحقيق هدف مشترك، فهل تفهم ما أقصد؟ لذا عندما التقيت بـ جايد وعرَّفتني على كتيبة محاربي تلوث المياه رأيت أنها امتداد لتلك التجربة بالنسبة لي».

أدرك بيتر أن صامويل قد فتح له قلبه، فلم يعهده يتحدث بمثل هذه الصراحة من قبل. وأشاح صامويل بنظره بعيدًا، وقد احمرت وجنتاه كأنه قد أدرك الشيء نفسه في الحال. فنهض من مكانه، ومرر يديه على فخذيه لتخفيف بعض التوتر الذي شعر به في عضلاته.

سأله بيتر: «هل أنت ذاهب للنوم؟».

أومأ صامويل برأسه بالإيجاب، ثم انصرف.

أمسك بيتر بالمصباح، وسار بصحبة صامويل نحو فُرش النوم الخاصة بهم. وفي تلك اللحظة خطرت فكرة ببال بيتر، فسأل صامويل قائلًا: «هل قابلت جايد بعد كل هذه الصعوبات التي مررت بها؟».

توقف صامويل، ونظر إليها، وقال: «نعم. لقد التقيت بها خلال الشتاء الماضي».

سأله بيتر مجددًا: «لكن ما الذي دفعك إلى الارتباط بشخص جديد والتعرض لاحتمالية فقده خاصة بعد أن فقدت أخاك وأصدقاءك؟».

اتسعت عينا صامويل، وارتسمت على وجهه تعبيرات أكثر براءة أشبه بصبي صغير، ثم قال وهو يفتح يديه ويغلقهما كأنه يحاول التقاط الكلمات من الهواء: «هذا في الحقيقة هو السبب. فمن دون... لو أنني لم أقابل جايد وأحبها، لكنت قد جننت!» ثم قبض بيده على قميصه بقوة، كأنه يحاول انتزاع فكرة ما من صدره، ثم قال: «أنا لا أستطيع حتى... لا».

أومأ بيتر برأسه في إشارة ظاهرية إلى اتفاقه مع كلام صامويل، بيد أنه في قرارة نفسه كان يختلف تمامًا مع وجهة النظر التي عرضها.

أخذ بيتر يراقب صامويل وهو يتجه نحو جايد التي كانت مشغولة بترتيب أواني الطهي، ثم لف ذراعه حولها، فأمالت جايد رأسها إلى الخلف متطلعة إليه وهي تضحك بسعادة ردًّا على لفتته غير المتوقعة. لكن في ضوء الغسق الخافت كذلك، لاحظ بيتر أن صامويل لم يشاركها الضحك. وعلاوة على ذلك، لاحظ أنه ما زال يضغط بيده على صدره، بما يدل على أنه كان لا يزال يصارع المشاعر المضطربة التي أزعجته سابقًا.

17

استيقظت الصغيرة في منتصف النهار تقريبًا، ثم أخذت تمسح رأسها في صدر باكس بينما كانت لا تزال بين النوم واليقظة بحثًا عن الراحة والأمان. وأدرك باكس أنها تريد ذلك الحنان الذي تغمرها به أمها. فأخذ يلعق كامل جسدها بلطف، كما رأى بريسل تفعل من قبل.

بمجرد أن انتهى باكس من تنظيف فروها من الغبار والحصى اللذين علقا به أثناء نزولهما إلى أسفل الجرف، انتقل إلى سيقانها، وهنا لاحظ أن باطن سيقانها كان مجروحًا بفعل شظايا الصخر الزيتي وحجر الصوان. ومع أنها لم تصدر أي صوت أثناء إزالته تلك الشظايا منها، فقد شعر بها وهي ترتعش وتحاول إرجاع ساقها للخلف مع كل لمسة، ما تسبب في شعور باكس بالضيق إدراكًا منه أنه يسبِّب لها الألم عن غير قصد.

بعد أن انتهى باكس من تنظيف باطن سيقانها، لاحظ سيلان الدم منها. فسحبتها الصغيرة بسرعة واحدة تلو أخرى لتلعقها بنفسها. لاحظ باكس أن لسانها كان جافًّا، فحاول تقديم المساعدة لها في ذلك.

قال لها سأحملك إلى البحيرة لتشربي. وعندما حاول إمساكها بفكه بلطف من رقبتها، تحررت منه، وسارت عدة خطوات بعيدًا عنه رغبة منها في الذهاب إلى هناك بمفردها.

تبعها باكس، وقال لها لا، لن أدعك تسيرين بمفردك، لأنك ستتركين بذلك آثارًا من الدماء تجعلك عرضة للحيوانات المفترسة التي تستهدف الحيوانات الصغيرة والجريحة على وجه التحديد. فأمسك بها من رقبتها لكنها لم تقاوم هذه المرة. ثم سار بها بسرعة نحو البركة عبر النباتات الجافة، بينما كانت تتأرجح يمينًا ويسارًا أثناء تحركه. وعند وصوله إلى البركة، خاض باكس في المياه الضحلة، ولاحظ عدم وجود الأسماك الصغيرة والضفادع المعتاد وجودها في تلك المسطحات المائية. وهنا أنزل الصغيرة عند البركة، وقال لها ستهدئ المياه ما ألم بسيقانك من آلام.

امتثلت الصغيرة لأوامره. ونزلت في البركة، ووقفت عندما وصلت المياه إلى ركبتيها، وأخذت تشرب بلهفة.

وبمجرد أن امتلأ بطنها، رفعها باكس وحملها إلى المنطقة الخضراء الوحيدة التي استطاع رؤيتها، وهي رقعة من نبات العرعر الذي كاد يذبل. وفكر في الإقامة هناك بشكل مؤقت؛ حيث رأى هذا المكان مناسبًا؛ نظرًا لأنه يوفر الحماية من الحيوانات المفترسة، ويقع على مسافة قصيرة من البركة، ما يتيح لهما الوصول إلى المياه بسهولة.

ثم ما لبث أن أدرك ميزة أخرى لهذا المكان، وقال لصغيرته يمكنك تعلم السباحة هنا.

18

كان اليوم حارًّا على غير العادة، أشبه بحرارة شهر يوليو وليس منتصف مايو، وكانت الأرض التي يجتازونها رطبة وموحلة. كُلف بيتر بمهمة إزالة الرواسب، فمشى بقوة على طول الضفة الموحلة، وشعر بعدم الراحة نتيجة احتكاك طرف بنطاله المليء بالوحل بجلد رجليه ما أدى إلى تهيجه. اقتربت جايد منه، ثم شرعت في فك شعرها، وأعطته مشبكي شعر، وقالت له: «يمكنك ثني طرفي بنطالك لأعلى وتثبيتهما بهذين المشبكين لتفادي ما يسببانه لك من إزعاج».

قال لها بيتر وهو يشير نحو كتلة الشعر المتشابكة التي سقطت على رقبتها، والتصقت بها من شدة الحر: «أوه، شكرًا، لكنكِ...».

هزت جايد كتفيها، ثم انتزعت غصنًا من شجرة قريبة منها، وقسمته إلى جزأين، ثم لفت شعرها على شكل كعكة وثبتتها باستخدام هاتين القطعتين. ثم سارت نحو مجموعة من أشجار الصفصاف حتى اختفت وسطها بينما كانت تلوح بيدها يمينًا ويسارًا لتطرد البعوض المنتشر حولها.

أحضر بيتر حاوية تضم مجموعة جديدة من الأدوات المستخدمة في جمع العينات، ثم نزل إلى الضفة، حيث كان صامويل منخرطًا بالفعل في جمع عينات من مياه النهر لفحصها.

وقف صامويل منتصبًا، وأشار بيده نحو قلبه بتأثر شديد، ثم تساءل قائلًا: «هل صدقت أن ما قلته كان صحيحًا؟».

سأله بيتر: «ماذا تقصد؟».

قال صامويل وهو يلقي نظرة إلى جايد، التي كانت جاثمة على ركبتيها بين نبات القصب: «ألم تر مدى لطفها ورقتها حين أعطتك مشبكي شعرها. إن أفعالها البسيطة هذه هي سلاحها السري الذي يترك أثرًا عميقًا داخلي، وما زال يفاجئني لطفها كل مرة مع أنها تغدقني به».

سأله بيتر: «ماذا تقصد بالسلاح السري؟».

أجابه بيتر: «أعني... أنك لا تتوقع وجوده أو تأثيره، إنه يفاجئك بالضبط مثل الهجوم المفاجئ. أو ربما يتعلق ذلك بنشأتي أنا فقط، فربما لم تعدني خلفيتي أو تجاربي لتوقع مثل هذه اللحظات. إذ عندما تشعر بالألم أو الإحباط، ويُظهر شخص ما لطفه لك بشكل غير متوقع، يؤثر ذلك فيك بشدة، حتى إنه يفاجئك بتأثيره».

أومأ بيتر برأسه في إشارة لتفهمه مقصد صامويل، وفتح الحاوية التي كانت معه، ثم قال: «لقد فهمت الآن ما تعنيه بسلاح سري».

أشار صامويل بإبهامه نحو قلبه مرة أخرى مبتسمًا: «لكنه يشفي ولا يؤذي». ثم انتبه مرة أخرى لما كان يقوم به.

لاحقًا، بينما كانت جايد وصامويل يقومان بتنظيف المعدات المستخدمة في عمل اليوم وتطهيرها ليضعاها على طاولة المخيم، جلس بيتر على ضفة النهر، ورجلاه الحافيتان مغمورتان في الماء البارد. وبينما كان يحمل مشبكي شعر جايد في يده، فكر مرة أخرى فيما قاله صامويل عن كون لطفها أشبه بالسلاح السري.

كان صامويل بذلك الوصف يركز أكثر على عنصر المفاجأة الجميلة وليس الجانب المؤذي المرتبط بالسلاح. ومع ذلك، وجد أنه من الغريب في الآونة الأخيرة أنه كلما أظهر شخص ما اللطف تجاهه - مثل عرض فولا عليه امتلاك منزل وبعض الأراضي، أو انتقال جده للعيش معه هناك - كان يشعر بالضعف أو احتمالية التعرض للأذى.

وأقر بيتر بأن مشاعره هذه لم تكن صحيحة على الإطلاق؛ فلم تكن فولا تنوي إلحاق الأذى به على الإطلاق. كما لم تكن جايد تنوي إيذاءه بأي شكل من الأشكال حين أعطته مشبكي الشعر، وإنما كان ذلك بدافع الكرم واللطف دون أي دافع خفي للتسبب في الأذى. وقد أدرك فجأة في تلك اللحظة أنه لم يوجِّه الشكر لها على هذا العمل اللطيف.

شعر بيتر بالخجل من نفسه، فانتعل حذاءه مرة أخرى، ثم سار عائدًا إلى أعلى النهر، حيث رأى شجرة كافور. وباستخدام سكينه، قطع فرعًا من الشجرة يبلغ سمكه تقريبًا سمك القلم الرصاص. ثم قسمه إلى قطعتين يبلغ طول كل منهما نحو خمسة سنتيمترات ونصف السنتيمتر ثم أزال اللحاء عنهما، وقام بتنعيم الخشب بعناية مع الحرص على جعل أطرافها الخشبية مستديرة، والتأكد من أنها ناعمة وخالية من أي حواف خشنة.

رأى جايد تقف عند ضفة النهر بالقرب من المكان الذي كان صامويل يقف فيه داخل النهر، حيث كانت المياه تصل إلى ركبتيه، وقد ركز كلاهما انتباهه على صخرة كانا يفحصانها.

لوحت له جايد، وانضم إليهما بالفعل، ثم قال لها: «شكرًا لك على أن منحتني مشبكي الشعر اليوم» ثم أخرج الهدية التي أحضرها لها، وأضاف: «تفضلي هاتين لتستخدميهما لشعرك بدلًا من المشبكين».

قالت له: «إنهما جميلتان للغاية. شكرًا لك»، ثم سحبت العصوين اللتين كانت تثبت بهما كعكة شعرها، وأعادت تثبيتها بالعصوين المصقولتين اللتين منحها بيتر إياهما.

شعر بيتر بامتنان جايد، ثم أضاف قائلًا: «إنهما مصنوعتان من خشب الكافور، وهو له خصائص طاردة للحشرات مماثلة لتلك الموجودة في كرات النفتالين أيضًا. لذا سوف يبقيان البعوض بعيدًا عنك».

أشارت جايد فجأة إلى شيء ما في الماء، واندفع صامويل نحوه على الفور.

قالت له جايد: «ما الذي تفعله؟».

أجاب صامويل: «هناك زوجان من سلاحف المستنقعات، لكنهما يسيران بسرعة حتى إنني لا أستطيع اللحاق بهما».

أضافت جايد موضحة: «إنهما معرضان للخطر، اعتقدنا أننا لو استطعنا الإمساك بإحداهما، يمكننا أخذ عينة دم لتقييم حالتهما، لكنهما متوترتان للغاية، ولا يمكننا الاقتراب منهما بالقدر الكافي للإمساك بإحداهما».

قال بيتر بثقة: «حسنًا أنا أعرف كيفية الإمساك بواحدة. سأعود حالًا».

على بعد أمتار قليلة داخل الغابة وجد بيتر شجرة كرز أسود صغيرة. فقطع غصنًا رفيعًا منها باستخدام سكينه. وأزال البراعم الجانبية من الغصن حتى أصبح على شكل حرف «Y» بطول 183 سنتيمترًا. ثم ثنى ذراعي الفرع حتى التقيا مشكلًا بهما حلقة قطرها نحو 30 سنتيمترًا. ثم أزال براعم رفيعة أخرى من قاعدة الشجرة كانت تمتاز برقتها ومرونتها ونسجها حول الحلقة الدائرية التي أنشأها صانعًا أداة أشبه بالشبكة.

أحضر بيتر الشبكة إليهما.

أضاء وجه جايد بابتسامة عريضة، بينما كانت تخوض في المياه ممسكة بالشبكة التي صنعها بيتر. وبعد دقيقة تقريبًا، أشار صامويل نحو إحدى السلحفاتين، فأنزلت جايد الشبكة بسرعة في المياه واصطادتها على الفور. ثم قلبتها على ظهرها كاشفة عن بطنها،

وتحدثت إليها بصوت هادئ لإبقائها مسترخية، ثم أخرج صامويل إبرة مخصصة للحقن تحت الجلد، واستخدمها لسحب عينة من الدم من السلحفاة.

بعد إعادة السلحفاة إلى النهر، لاحظتها جايد وهي تدفع المياه بأرجلها، ثم ربتت قوقعة السلحفاة لتوديعها. وقفت جايد بشكل مستقيم وحنت رأسها قليلًا في لفتة احترام تجاه بيتر.

حاول بيتر إخفاء ابتسامة بسيطة من الرضا نمت على شفتيه، ثم قال: «لا داعي للشكر. فخلال فصل الربيع عادة ما تكون أغصان الكرز البري مرنة للغاية بما ييسر استخدامها في العديد من الأغراض».

انتقل صامويل إلى الطاولة لفحص العينة، بينما ظلت جايد جالسة على ضفة النهر، ثم أشارت بيدها إلى مساحة فارغة بجانبها داعية بيتر للجلوس بجوارها، وقالت: «يبدو أنك تعرف الكثير عن الأشجار».

انحنى بيتر إلى الخلف متكئًا على مرفقيه، ثم قال: «الأشجار رائعة ومذهلة بشكل كبير، هل تعلمين أنها يتواصل بعضها مع بعض؟».

فسألته جايد في دهشة: «حقًّا؟ هل تتواصل معًا مثل البشر؟».

أجابها بيتر: «بل أفضل في الواقع».

قالت له جايد في دهشة: «أفضل من البشر، كيف ذلك؟».

كان بيتر يود في البداية الإشارة إلى أن الأشجار لا تتلامس معًا جسديًّا من أجل التواصل، لكنه قرر عدم ذكر ذلك، على الأرجح لأنه قد يبدو غريبًا أو قد يساء فهمه. وقال بدلًا من ذلك: «يعد التواصل بين الأشجار أفضل لأنه لا يعتمد على التفاعل المباشر بينها. فهذا النوع

من التفاعل بطيء وغير فعال. وإنما يعتمد التواصل فيما بينها على ما يسمى بالتخاطر الكيميائي».

انضم إليهما صامويل، وجلس على الجانب الآخر لـبيتر، وقال في دهشة: «التخاطر الكيميائي!».

قال بيتر: «نعم. بالضبط كما يحدث في منطقة السافانا، عندما تبدأ الزرافات أكل أوراق شجرة الأكاسيا، ترسل تلك الشجرة رسالة تحت الأرض من خلال خيوط الفطريات - وتمتد هذه الخيوط مسافات كبيرة تحت الأرض قد تصل أحيانًا إلى كيلو متر ونصف الكيلو متر - فتطلق جميع أشجار الأكاسيا في المنطقة مادة كيميائية مريرة في أوراقها، فتتركها الزرافة وشأنها. أو إذا تعرضت شجرة ما لمشكلة، فإنها ترسل إشارة إلى الأشجار القريبة، ما يدفعها إلى تقديم المساعدة لها عن طريق إرسال العناصر الغذائية، مثل السكر، أو أي موارد ضرورية أخرى».

قالت جايد وهي تميل برأسها إلى الخلف ناظرة إلى ذلك الغطاء الكثيف من الأغصان والأوراق في الأعلى: «يا إلهي! مجتمع كامل فوقنا من الأشجار التي يتحدث بعضها مع بعض من تحت الأرض بلغة لا نستطيع سماعها».

ثم أضافت: «تخيل لو كان بإمكاننا فعل ذلك، فلو أنني كنت شجرة واحتجت إلى المساعدة في وقت ما، فلن يكن عليَّ سوى التفكير في هذا الأمر، ومن ثم ستلتقط أي شجرة في الجوار تلك الرسالة، وترسل لي ما أحتاج إليه».

أشار صامويل إلى الشبكة الملقاة عند رجلي بيتر، وتساءل: «كيف تعلمت صنع هذه الشبكة؟ وكيف عرفت كيفية تنفيذ تلك التقنية التي نفذتها باستخدام شجرة البتولا؟ وكيف عرفت أيضًا أن الحشرات تنفر من شجر الكافور؟».

أجابه بيتر: «لقد تعلمت تلك الأشياء من...» ثم توقف لحظة وهو يفكر في الوصف الذي يمكن أن يصف به فولا، هل يقول إنها ولية أمره؟ أم صديقته؟ أم يقول إنها ليست من عائلته لكن تربطه بها علاقة قوية أشبه بالرباط الأسري. ثم قال أخيرًا: «من المرأة التي كنت أقيم عندها».

أمالت جايد رأسها وسألته بفضول: «أنت لا تعيش مع عائلتك إذن، أليس كذلك؟».

شعر بيتر فجأة بأنه محاصر؛ حيث كان صامويل يجلس على أحد جانبيه بينما جلست جايد على الجانب الآخر. وقد شعر وسط هذين الخطيبين، اللذين يحب كل منهما الآخر حبًّا جمًّا، ببعض القلق وعدم الارتياح في تلك اللحظة. نهض وأسند الشبكة إلى جذع شجرة قبل أن يجيب قائلًا: «نعم أنا لا أعيش مع عائلتي، فقد رحل والداي. وجدي رجل مسن لا يقدر على رعايتي».

وقفت جايد، ثم قالت بنبرة خفيضة وناعمة كتلك التي كانت تتحدث بها مع السلحفاة لطمأنتها: «ما الذي تعنيه بأن والديك قد رحلا، يا إلهي! لا يا بيتر، لا تقل إنهما قد توفيا؟».

هب صامويل واقفًا أيضًا.

وضع بيتر يديه في جيبيه، ثم قال: «نعم، لقد توفيت أمي عندما كنت في السابعة من عمري، أما أبي فقد توفي في شهر أكتوبر». وما إن انتهى حتى حوَّل نظره إلى الغابة عبر النهر، لأنه كان يعرف التعبير الذي سيرتسم على وجهيهما؛ فجميع الأشخاص الذين كان يخبرهم بذلك في مدرسته الجديدة أبدوا تعبيرات مماثلة. ودائمًا ما كرهها؛ فقد كانت مزيجًا من الرعب والأسى ما جعله يتذكر مدى فظاعة ما حدث، وهو ما لم يكن يرغب في تذكره. ومع شعوره بالإحباط والانزعاج المتزايدين، شدد يده بإحكام حول السكين في جيبه.

سألته جايد مجددًا بنبرة أكثر هدوءًا: «هل تقصد أكتوبر الماضي يا بيتر، أي منذ أشهر قليلة فقط؟».

أومأ برأسه بالإيجاب، لكنه ظل متجنبًا النظر إليها، ثم قال: «نعم. لقد كان في الحرب. وعادة ما يموت الكثيرون في الحروب». أخرج السكين القابلة للطي من جيبه، وأخذ يحركها عبر راحة يده، ثم أضاف: «يمكنني أن أقطع بعض الخيوط، وأصنع شبكة حقيقية. أعتقد أن هناك أسماكًا... يمكننا تناول بعضها على العشاء».

قال صامويل: «أنت ترتعش».

نظر بيتر إلى السكين في يده، ولاحظ ارتعاشها الخفيف. ومع ذلك، عند الفحص الدقيق، أدرك أن السكين لم تكن هي التي ترتعش، وإنما يده وذراعه وساقه بل جسده كله. بدا الأمر كأن بيتر يشعر بإحساس مزعج وغير مألوف أشبه بالتيار الكهربائي الذي يتدفق عبر جسده ما يجعله يرتجف بالكامل.

اقتربت جايد من بيتر، وقالت له: «أعتقد أنك تحاول أن تقول لنا إنك بحاجة إلى المساعدة».

نظر بيتر إلى جايد سريعًا ليتحقق مما إذا كانت جادة فيما تقوله.

فرأى جايد تبتسم له ابتسامة مشجعة، ما كشف عن صدق نيتها في مساعدته، وأنها لم تكن تقصد الاستخفاف بمشاعره. ثم فتحت له ذراعيها على نحو غير متوقع، فقد كان هذا تصرفًا طبيعيًّا في مثل هذا الموقف.

بدا الوقت كأنه قد توقف فجأة، لقد كان آخر شخص احتضنه هو والده، وكان ذلك قبل عام تقريبًا خلال لقائهما الأخير عند المصنع القديم بعد أن أطلق باكس في البرية، وانطلق لتوديع والده.

وبعد أسبوع من ذلك، وعند عودته إلى منزل فولا، وطلبه البقاء معها، قال لها بكل أسى: «سأعيش هنا ولكن من دون ثعلبي». حاولت فولا احتضانه للتخفيف عنه، لكنه دفع ذراعيها بعيدًا بشكل غريزي، رافضًا أي عناق بينهما.

حتى جده لم يحاول معانقته عندما تلقيا الأخبار المفجعة عن وفاة والده. بدا الأمر كأن كتفي الرجل العجوز قد تجمدتا في مكانهما، ولم يتمكن من رفع ذراعيه لاحتضانه.

أدرك بيتر في تلك اللحظة أنه يعاني صعوبة في التنفس، وشعر بغصة في حلقه. وقد بذل جهدًا متعمدًا لأخذ شهيق بقوة ما أدى إلى اتساع فتحتي أنفه، وتوفير بعض الراحة والهدوء له. بيد أن ذلك لم يخفف من ارتعاش جسده.

قال بصوت مرتجف: «سأذهب لإحضار بعض الخيوط». ثم أعاد السكين إلى جيبه، وبدأ التوجه نحو صندوق الأدوات. لكن رجليه لم تطيعاه، وتوقف في منتصف الطريق.

وبالفعل استدار بيتر، وسار نحو الخطيبين المحبين، وسمح لهما باحتضانه، فمنحاه بعضًا من حبهما. وقد رأى أنه لا مانع من ذلك؛ إذ سيجعلهما يشعران ببعض الراحة للتخفيف عنه، فضلًا عن أنه سيتركهما بعد الانتهاء من المهمة ليعود للعيش بمفرده. لذلك، كان يعتقد أن أي عواقب سلبية محتملة من التقارب المشترك خلال هذا الوقت ستكون ضئيلة للغاية.

شعر بنفسه يرتعش بين أذرعهما لحظة، ثم توقف فجأة عن الارتعاش، وشعر بالراحة والأمان.

19

أقام باكس وصغيرته مدة ثلاثة أيام عند البركة الهادئة. كان باكس يغامر كل يوم بالخروج عند الغسق للصيد على الجانب الآخر من التل، حيث توجد وفرة من الطرائد. وكان ينقض على فريسته بسرعة دون استغراق أي وقت في التخطيط للمطاردة؛ نظرًا لشعوره بالقلق الشديد على ابنته التي تركها بمفردها.

في اليوم الأول أظهرت الصغيرة شعورًا بالقلق الشديد. لكنها ما لبثت أن شعرت بالانزعاج والغضب عندما رفض والدها السماح لها باستكشاف المكان، وأصر بدلًا من ذلك على حملها خلال تلك المسافة القصيرة إلى البركة القريبة. وبعد أن شربت، خاض باكس بعيدًا لكن ببطء في الماء، وتبعته هي، وعندما طوَّق الماء البارد رقبتها نظرت إلى أبيها في حالة من الحيرة والارتباك راجية منه أن يوجهها.

كان باكس قد سبح بعيدًا، لكنه استدار عائدًا إلى صغيرته، وصاح مطمئنًا إياها.

غاصت الصغيرة في الماء، وكافحت على الرغم من ذلك للبقاء على السطح، لكنها كانت تغوص ثم تعود إلى السطح مرارًا وتكرارًا وهي تشهق وتسعل. ومع ذلك، ظل باكس بجانبها، مقدمًا الطمأنينة لها بسلوكه الهادئ المتزن، وسرعان ما بدأت تسبح بثقة في الماء.

أما في اليوم الثاني، فقد ظلت هادئة، ولم تحاول الخروج من مخبئهما. حملها باكس إلى البركة، وبعد أن شربت، حاول تشجيعها على الاستمرار في تعلم السباحة، لكنها سبحت فترة وجيزة للغاية معربة عن عدم رغبتها في الاستمرار، حيث أرادت العودة إلى المخبأ مرة أخرى.

أما في اليوم الثالث، فلم تستطع أن ترفع رأسها، فلم تكن لديها أي طاقة للقيام بذلك.

وفي ذلك اليوم، لم يتمكن باكس من اصطياد أي فريسة، ولو على الجانب الآخر من التل أيضًا. وسرعان ما عاد وحاول إيقاظ ابنته بلطف، وقال لها لقد حان وقت الرحيل.

نهضت الصغيرة بالفعل، وما إن خرجت من المخبأ حتى أخذت تطرف برموشها نتيجة تعرضها لأشعة شمس الظهيرة الساطعة. لكنها ما لبثت أن سقطت على جانبها، وارتعشت ساقها اليسرى الخلفية.

اندهش باكس كثيرًا مما حدث، وأخذ يفحص صغيرته بعناية ودقة. ولاحظ أن سيقانها قد شفيت، ولم تكن هناك أي جروح أخرى. وحثها على النهوض. وقال لها لم يعد هذا المكان آمنًا بعد الآن. سنسبح عبر البركة حتى لا نترك أي أثر وراءنا.

نهضت مرة أخرى وتبعت والدها إلى الشاطئ، لكنها كانت تسير مترنحة. لم يستغرق عبور البركة الصغيرة الكثير من الوقت، ولكن عند وصولها إلى الشاطئ المقابل، انهارت الصغيرة، حيث سقطت على الأرض وأغمضت عينيها.

نفض باكس الماء عن فروه ليجفف نفسه، ثم تسلق صخرة عريضة لمعرفة ما تأتي به الرياح.

كانت الرياح المقبلة من الشرق تحمل بعض المعلومات من النهر القريب: كان الطقس صحوًا، ولم تكن هناك حرائق عشبية، فقط نار المخيم.

لكنها حملت له أيضًا مفاجأة مدهشة.

شم باكس رائحة صديقه القديم، وعرف أنه موجود هنا بالقرب منه.

لم يكد يصدق نفسه، إن بيتر الذي تركه منذ أكثر من عام، والذي أحبه طيلة حياته، لكنه تعلم مع ذلك العيش دونه، يمكث الآن على مقربة منه.

حاول باكس أن يكون أكثر هدوءًا وتماسكًا، وركز انتباهه، وتأكد من أن صديقه القديم موجود بالفعل عند النهر بصحبة اثنين آخرين من البشر.

توترت عضلات فخذيه بسبب رغبته القديمة في الركض نحوه، كأن الوقت لم يمر، بيد أنه حاول ضبط نفسه، وتراجع عن تلك الرغبة.

لقد مر وقت طويل بالفعل منذ آخر مرة رأى فيها باكس صديقه بيتر. فقد ظل باكس طوال الصيف الماضي متشبثًا بالأمل في عودة بيتر إليه ليجتمع شملهما معًا، ويصطحبه إلى المنزل مرة أخرى. بيد أن حبات عقد الأمل انفرطت وتبعثرت بانتهاء الصيف وقدوم الخريف. فقد أدرك باكس تدريجيًّا أن منزله الحقيقي هو المكان الذي تشعر فيه زوجته بريسل بالأمان. وعندما استقرا معًا في المزرعة المهجورة تخلى عن أمله في عودة بيتر إليه مرة أخرى.

نشطت الرياح، وحملت معها رائحة لطيفة ومنعشة ممزوجة برائحة دخان الخشب ورائحة صديقه القديم التي أعادت إلى ذاكرته الكثير من ذكرياتهما معًا.

تذكر ذلك اليوم عندما كان لا يزال ثعلبًا صغيرًا، حين ذهب مع بيتر ووالده للتخييم في الغابة بضعة أيام، وأقاما في خيمة من القماش بالقرب من أحد الجداول. أشعل والد بيتر نارًا، وأعدا الطعام، وشارك بيتر وجبته بسخاء مع باكس. وفي وقت لاحق، وضع بيتر ووالده بعض الأعواد الخشبية التي تحمل نوعًا من الطعام على النار، فانتشرت رائحة

وجدها باكس لطيفة وشهية مع أنها غريبة بالنسبة له. ثم شاهد صديقه ووالده وهما يستمتعان بتناول هذا الطعام ذي الرائحة اللذيذة.

انجذب باكس بشدة لتلك الرائحة، وأغرته بتناول هذا الطعام اللذيذ، فأمسك بسرعة بأحد الأعواد التي وضعها بيتر على حجر قريب. لكنه فوجئ عندما أدرك أن حلوى المارشميلو المشوية ساخنة للغاية وسائلة بعض الشيء، حتى إنها لطخت أنفه. صاح باكس متفاجئًا من شدة الحرارة. فقفز بيتر على الفور، وخلع قميصه ووضعه في الجدول القريب، ثم لف قطعة القماش الباردة والمبللة حول أنف باكس مهدئًا إياه، واحتضنه بمودة. وفي هذه اللحظة، شعر باكس بالأمان وبحب بيتر الشديد له.

استنشق باكس الرائحة التي حملتها إليه الرياح مرة أخرى، واستطاع مجددًا تمييز رائحة بيتر صديقه القديم، وهنا اتخذ قراره.

عاد باكس بسرعة إلى ابنته وأيقظها بلطف. وقال لها سنغادر الآن نحو النهر إنه ليس بعيدًا عن هنا.

نهضت بالفعل، لكن باكس لاحظ أنها لا تزال متعبة من السباحة عبر البركة. فأدرك أنه سيضطر لحملها، لذا قرر أن هذه المهمة الشاقة تتطلب التنقل في ضوء النهار تجنبًا لأي نوع من أنواع المخاطر.

حملها إلى مجموعة من الأعشاب الخضراء الجافة. وقال لها استريحي هنا الآن، فسنغادر عند مطلع الفجر.

20

قال صامويل وهو يمد كيس من حلوى المارشميلو وثلاثة أعواد خشبية إلى بيتر: «هذه هي الدفعة الأخيرة». أمسك بيتر بأحد الأعواد، وأدخل الحلوى فيه بعناية. كان الجو باردًا، ما أدى إلى تضاؤل النيران حتى أصبحت جمرات متوهجة ما خلق جوًّا مثاليًّا لشواء الحلوى.

أثناء مراقبته حلوى المارشميلو وهي تتحول إلى اللون البني، تذكر بيتر فجأة ما حدث في ذكرى ميلاده الثامنة، عندما اصطحبه والده للتخييم في الغابة، وسمح له باصطحاب حيوانه الأليف باكس معه. كانت عطلة ممتعة، ولكن وقع حادث مؤسف في الليلة الأخيرة عندما ترك بيتر عن طريق الخطأ قطعة من حلوى الخطمي بجانبه حتى تبرد فانتزعها باكس بسرعة، فاحترق أنفه. أسرع بيتر بوضع قميصه في النهر، ثم وضعه على أنف باكس لتهدئته، لكنه مع ذلك شعر بالندم الشديد لتسببه في إيذاء باكس، حتى إنه أخبر والده بأنه لا يستحق أن يكون لديه حيوان أليف.

قال له والده وهو يشير إلى باكس الذي كان نائمًا في حضنه: «حسنًا. أنا لا أرى أنك مقصر على الإطلاق، وأعتقد أن هذا هو ما يراه ثعلبك أيضًا. بل أعتقد أن الأمر عكس ذلك تمامًا. فقد تعرض حيوانك الأليف لحادث عرضي، لكنك أسرعت واعتنيت به جيدًا، وكنت على

قدر المسئولية. هكذا أرى الأمر. فربما عرف ثعلبك أيضًا أنك أنت من يعتني به لدى تعرضه لأي أذى».

في سن الثامنة، وجد بيتر أنه من المفاجئ أن يفسر المرء الفعل الواحد بطرق مختلفة. وقد تركت هذه الرؤية أثرًا خالدًا في نفسه، فنام وهو يفكر في مدى عمقها وأهميتها. حتى عندما اقترب من سن الرابعة عشرة، ظل يجد الأمر غامضًا ومثيرًا للاهتمام إلى حد كبير.

قطع صامويل عليه تأملاته العميقة حين وقف ليوزع عليهم أحذيتهم التي كانت تجف بالقرب من النار الخامدة، ثم قال: «لا بد أن نذهب للنوم الآن، فنحن بحاجة إلى المغادرة قبل شروق الشمس غدًا».

ارتدى بيتر حذاءه، وسأله: «لماذا يتعين علينا المغادرة قبل شروق الشمس؟».

أجابه صامويل: «سيبدأ الفريق الأول من كتيبة محاربي تلوث المياه رحلته من البحيرة غدًا. وأمامنا مسافة كبيرة لنقطعها خلال الأيام المقبلة للوصول إلى الموقع التالي قبل أن يصل هذا الفريق، لذا من الضروري أن نذهب إلى الفراش مبكرًا».

قالت جايد: «أنا مستعدة للرحيل». لكنها مع ذلك ظلت جالسة، ولم تنهض من مكانها، ثم قالت لـ بيتر وهي تشير باتجاه البركة: «هذه هي البركة التي حدَّثتك عنها. إنها تقع غرب موقعنا الحالي. إنها تذكرني بحيواني الراكون، وأنا لا أحب تذكر ما حدث لهما».

تناولت حذاءها وفحصته، ثم أعادته بالقرب من الفحم المشتعل، ثم قالت: «إنه لا يزال رطبًا». ارتجف جسدها قليلًا، وظن بيتر أنها ربما تخيلت مصير صغيري الراكون، لكن الأمر لم يكن كذلك. انحنت وأمسكت بأصابع رجليها، ثم قالت: «إنها باردة باستمرار. إن هذه الجوارب العسكرية غير جيدة على الإطلاق، إنني أفضل تلك الجوارب المصنوعة من الصوف الأصلي!».

ضحك صامويل، وأكد كلامها قائلًا: «نعم، إن رجليك باردتان دائمًا بالفعل».

لكن بيتر التزم الهدوء فجأة، حتى إنه سحب أعواد حلوى الخطمي من فوق النار ووضعها جانبًا.

لقد اخترقت ذهنه ذكرى أخرى مؤثرة: خلال سنوات طفولته الأولى، كانت والدته تقرأ له القصص وهو مستلقٍ في السرير على جانبه يلقي نظرة إلى الرسومات التوضيحية. وفي منتصف القصة، كانت رجلاها العاريتان تنزلقان تحت ركبتيه بشكل مازح، فتصيح قائلة: «احذر رقاقات الثلج! إنها باردة للغاية». كانت رجلاها باردتين حقًّا، لكن بيتر مع ذلك كان يُبقي رجليها حيث هما حتى تصبحا دافئتين، ولا تلبث والدته أن تعرب بحماس عن مدى دفئهما، فيمتلئ فخرًا طفوليًّا رائعًا.

وللحظة وجيزة فكر بيتر في أن يعرض على جايد وضع رجليها تحت ركبتيه ليدفئهما. وقد تصور هذه البادرة باعتبارها مجرد عمل لطيف. واعتقد أن جايد ستقدر هذا الأمر جيدًا كونها شخصًا لطيفًا ومحبًّا للآخرين.

لكنه بعد مزيد من التفكير، بدأ يشك فيما إذا كان مثل هذا الفعل سيكون مقبولًا حقًّا. كانت فكرة التواصل الجسدي مع شخص آخر، حتى لو كان ذلك عبر الملابس، يزعجه حقًّا. فعندما كانت فولا تلمس كتفه بخفة، أو تضع يدها عليه أثناء تعليمه استخدام أداة ما، كان يشعر بعدم الارتياح. حتى إن معانقة هذين الخطيبين له في اليوم السابق جعلته يشعر بالاضطراب الداخلي، ولم يتمكن من فهم ما إذا كانت هذه التجربة إيجابية أم سلبية.

مددت جايد ساقيها بالفعل، ونقرت بخفة بأصابع رجليها على ساق بيتر، ثم قالت وهي تضحك: «احذر رقاقات الثلج! إنها باردة للغاية».

شعر بيتر بغصة في حلقه، وأراد أن يقمع مشاعره بأي شكل، فأطبق فمه، وأغلق عينيه بإحكام ليحبس دموعه، وأشاح بوجهه بعيدًا حتى لا يلحظ أحد تغير ملامحه. ثم قال: «أنا متعب، سأذهب لإعداد الفراش للنوم».

ثم وقف بالفعل، لكن جايد هبت واقفة هي الأخرى، ومنعته من التحرك بأن أمسكته من معصمه، وقالت له: «أنا آسفة حقًّا. فربما قلت شيئًا ضايقك».

فرك بيتر عينيه براحتي يده، ثم قال: «لا عليك، إنه الدخان. فأنت لم تقولي شيئًا يضايقني. أنا متعب فحسب، فقد سرنا مسافات طويلة اليوم».

قالت له: «بالتأكيد. لكنني مع ذلك ما زلت أقدم لك أسفي. لقد رأيت فقط أنك جاد للغاية وحزين بعض الشيء، فأردت إضحاكك للتخفيف عنك. حسنًا اذهب الآن واحصل على قسط كافٍ من النوم».

غادر بيتر المكان. اغتسل أولًا، ثم أحضر كيس النوم، وبسطه على الجانب الآخر من النار على رقعة صخرية ثابتة ومستوية مغطاة بنباتات الأشنة.

أخرج بيتر الصندوق الذي يحتوي على رماد والده من حقيبته. ثم وضعه بعناية عند طرف الوسادة، ولف قميصه الثقيل حوله. ثم زحف إلى داخل كيس النوم، وأدار ظهره للنار، وأغلق أخيرًا سحّاب كيس النوم عليه تمامًا.

21

على الرغم من أن البركة لم تكن بعيدة عن النهر، كانت الشمس قد أشرقت تمامًا بحلول الوقت الذي وصل فيه باكس وصغيرته إلى النهر. أصرت في البداية على السير بمفردها، لكنها كلما حاولت ذلك، سقطت أرضًا على الفور، وبدا عليها الارتباك الشديد. قاومت كلما حاول باكس حملها، حتى عندما سمحت له بذلك في النهاية، كانت تتذمر إذا زاد من وتيرته إلى الركض أو الهرولة، ما أجبره على المضي قدمًا بوتيرة بطيئة.

أنزلها بلطف على مجموعة من الحشائش القصيرة الناعمة على ضفة النهر، وراقبها وهي تتفحص المنطقة المحيطة غير المألوفة بالنسبة لها.

جاء الهواء محملًا بروائح عدة من الطحالب والسراخس، ونار المخيم المطفأة. غادر بيتر ومن معه منذ ساعة تقريبًا. لقد اشتبكت طيور القرقف في صراع مرح على أكواز الصنوبر المتبقية من فصل الشتاء، بينما سارت الخنافس تحت لحاء شجرة الدردار الميتة التي تقع على مقربة منهما. وتدفقت المياه بهدوء فوق جزء صخري من مجرى النهر في الأسفل.

قال لابنته إن مياه النهر تتدفق بقوة كبيرة؛ لذا علينا البقاء عند هذه الحافة الضحلة.

توقع أن تنطلق ابنته الفضولية إلى ضفة النهر لاستكشاف المكان، لذا أعد نفسه ليتبعها حفاظًا على سلامتها.

لكن الصغيرة وضعت رأسها على قائمتيها الأماميتين، وأغلقت عينيها وتباطأت أنفاسها، لكنها استيقظت فجأة، وفتحت عينيها، وهبت واقفة على أرجلها مرة أخرى.

قال لها باكس هل تشمين رائحة البشر؟ لا تقلقي فقد رحلوا. ثم حثها مجددًا على استكشاف النهر قائلًا هل نذهب لاستكشاف النهر معًا؟

رفضت الصغيرة اقتراح أبيها، وهبطت على الأرض مرة أخرى ملتفة حول نفسها بين الأشجار، وغطت في سبات عميق.

بعد أن فحص باكس الهواء جيدًا للتأكد من عدم وجود حيوانات مفترسة في المنطقة، غادر تاركًا ابنته لمعرفة بعض المعلومات عن صديقه القديم الذي غادر هذا المكان منذ قليل فقط.

اكتشف باكس أن بيتر كان بصحة جيدة، وكان برفقته آخران، امرأة ورجل، ولم تكن هناك أي علامات على وجود صراع بينهم. لقد سافروا بمحاذاة النهر، حيث بدأت رحلتهم من جهة الشمال، وواصلوا التحرك نحو الجنوب. كما اكتشف أنه أثناء وجودهم في هذا المكان تناول بيتر الطعام بجوار نار الحطب، حيث تمكن من تمييز رائحة اللحم وحلوى المارشميلو. تتبع باكس الرائحة إلى أن وجد ثلاثًا من العصي الخشبية لا تزال تحمل بقايا الحلوى اللزجة، وكانت مغطاة بالنمل.

ثم فحص باكس المنطقة التي كان ينام فيها بيتر. يبدو أنه اختار مكانًا مناسبًا يوفر رؤية واضحة للنهر، وكان مغطى بنباتات الأشنة بيد أنه كان جافًا وخاليًا من أي حشرات ضارة. خفض باكس أنفه واستنشق بعمق، والتقط رائحة صديقه القديم الذي أحبه حبًا جمًا.

عندما نظر باكس إلى ابنته النائمة، شعر برغبة متجددة في تعليمها الدروس المهمة التي تعلمها. فركض نحوها ودفعها بلطف حتى تستيقظ، وقال لها اتبعيني.

أطاعته الصغيرة ونهضت من مكانها، بيد أن خطواتها كانت مضطربة أكثر من ذي قبل، لاحظ باكس ذلك، وقرر حملها ولم تبدِ من جانبها أي اعتراض.

وبعد أن وضعها باكس على سطح مغطى بنباتات الأشنة، قفزت الصغيرة بعيدًا عنه، ورفعت أذنيها لأعلى في حالة من الرعب، كما انتصب شعر الفرو الموجود على رقبتها في حالة من التأهب.

ناداها باكس لتعود إلى مكانها.

لكنها رفضت.

حاول باكس حملها مرة أخرى إلى المكان الذي كان قد وضعها فيه من قبل.

لكنها رفضت الانصياع لكلامه، وأبدت اعتراضها قائلة هناك رائحة بشر! إنهم خطيرون.

قال لها والدها نعم. لكن ليس جميعهم.

حافظت الصغيرة على حذرها، ولم تقترب أكثر، واكتفت بالجلوس مكانها. وتساءلت عما يعنيه والدها بأن جميع البشر ليسوا خطيرين.

وإدراكًا منه أن ابنته عنيدة للغاية مثل والدتها، انتظر باكس قليلًا حتى تستوعب ما قاله له وتنفذ تعليماته. وفي النهاية، لاحظ أنها تخلت عن حذرها، وبدأت تقبل كلامه وتفهمه.

ثم أخذ يشم الرائحة المنتشرة على السطح المغطى بنباتات الأشنة، ثم قال لها ليس هذا الشخص بالتحديد. إنه صديقي القديم.

رفعت أذنيها لأعلى قليلًا مع توجيههما إلى الأمام ما يظهر فضولها ورغبتها في استيضاح الأمر.

استلقى باكس، ثم قال لصغيرته تعالي إلى هنا.

بعد لحظة اقتربت الصغيرة من باكس وهي تتحرك ببطء وحذر ثم استقرت أخيرًا على الفرو الأبيض لصدره بحثًا عن الراحة والطمأنينة.

وضع باكس كفه برفق على كتف ابنته، ثم بدأ توضيح الأمر لها قائلًا عندما كنت صغيرًا، حتى أصغر مما أنتِ عليه الآن، مرضت مرضًا شديدًا. ومررت بتجربة مثيرة تأصلت بعمق في وعيي، مع أنني لا أملك ذكريات واضحة عنها نظرًا لصغر سني آنذاك. عندها أخرجني فتى صغير من جحري.

اتسعت عينا الصغيرة، وسألته في دهشة، وهل سمح له أبواك بذلك؟

كان والداي قد فارقا الحياة حينها، فأخذني هذا الصبي إلى منزله وأطعمني وضمني إلى حضنه لتدفئتي.

فعاودت الصغيرة سؤاله، وهل كان هذا الفتى بالنسبة لك بمنزلة الوالدين؟

فكر باكس في هذا الأمر قليلًا، ثم قال لها نعم، كان هذا الفتي بالنسبة لي في ذلك الوقت بمنزلة الوالدين، ثم أصبح لاحقًا صديقًا حميمًا. كان لطيفًا معي للغاية، فلم يتحدث إليَّ إلا بصوت خفيض رخيم. كان يحملني بين يديه برفق، فشعرت بين راحتيه بالأمان ولم يعاملني بقسوة قط. وكلما ناديته، لبى النداء وأتاني طائعًا محبًّا. فما كان مني إلا أن منحته ثقتي وحبي.

التزمت الصغيرة الصمت التام، وقد أدرك باكس أنها تفكر في هذه المعلومات جيدًا وتقارنها بتحذيرات والدتها لها من البشر.

أنزلت أنفها لأسفل لتشم رائحة بيتر، ثم سألت أباها كيف يمكنك معرفة نيات البشر إذن؟

أجابها يمكن تمييز نياتهم من خلال إشارات مختلفة، مثل تعبيرات الوجه، والرائحة، ونبرة الصوت، والإيماءات.

فسألته مثل الثعالب، أليس كذلك؟

أجابها نعم. مثل الثعالب. لكن يمكنهم أيضًا إظهار سلوك خادع، لذا لا بد من توخي الحذر.

سألته مجددًا، كيف يمكنك إذن تمييز الأشخاص الذين يمكنك الوثوق بهم؟

فكر باكس في السؤال مليًّا، ثم أجابها لا بد أن تراقبيهم من كثب فترة طويلة، وستكشف لك أفعالهم عن نياتهم الحقيقية.

22

وقع الاختيار على صامويل للقيام بمهمة صعبة؛ حيث كلف بتحديد مواقع ينابيع المياه الصغيرة المغذية للمسطحات المائية الكبيرة، لذا شق طريقه عبر الشجيرات الكثيفة. أما بيتر وجايد فقد كانا مشغولين بجمع المياه والرواسب من التيار الرئيسي للنهر، حيث كانت المياه هادئة، بالإضافة إلى وجود الطحالب النامية على طول ضفتيه ما جعل المياه تتألق باللون الأخضر اللامع.

خرجت جايد من المياه، وسلمت الجرة إلى بيتر، ثم استندت إلى جذع شجرة بالقرب من طاولة المخيم، وأخذت تحدق إلى هذا الجزء من النهر قائلة: «يبدو أن هذا هو الجزء من النهر الأكثر نقاءً وخلوًّا من التلوث على الإطلاق».

وضع بيتر ملصقًا على الجرة لتمييزها، ثم ابتسم قائلًا: «قال صامويل إنك تقولين الشيء نفسه في كل مرة، كما قال إنك تحبين الأنهار كثيرًا بكل تأكيد».

أومأت جايد بالإيجاب، وقالت: «إنني أحب الأنهار بشكل عام، ولكن هذا النهر على وجه الخصوص يحتل مكانة خاصة في قلبي. صحيح أنه قد لا يكون كبيرًا مثل بعض الأنهار، حيث يبلغ عرضه نحو أربعة أمتار فقط في بعض المناطق، لكنه مع ذلك يفي بالمعايير

الأساسية التي تجعله يصنَّف بأنه نهر. فهو يعوض افتقاره إلى العرض الكبير للأنهار من خلال إرادته القوية وقدرته على التدفق بشكل ثابت».

وهنا سألها بيتر في دهشة: «إرادته القوية، ماذا تعنين بذلك؟».

أجابته: «إنه دائم التدفق، ولا يسمح لأي شيء بإيقاف مسيرته، يبدو أنه يدرك جيدًا أنه إن توقف عن التدفق، فستصبح مياهه راكدة آسنة».

وضع بيتر الجرة جانبًا، وأخذ ينظر إلى النهر بمنظور جديد. فقد وجد متعة في سماع جايد وهي تعبر عن أفكارها الرائعة.

استطردت جايد: «هذا النهر له مكانة خاصة عندي حقًّا. إنني أشعر بأنه ملكي».

سألها بيتر في دهشة: «ملكك، كيف ذلك؟!».

أجابته: «أقام أجدادي على طول هذا النهر، وبالتحديد على بعد نحو ستة وتسعين كيلومترًا، إنهم ما زالوا يقيمون هناك في الواقع، حيث يقطنون مدينة صغيرة لم تطلها نيران الحروب والصراعات، كما يعتمد جميع سكانها على استخلاص المياه من الآبار، لذا لم تكن هناك حاجة لأي منهم لمغادرة مدينتهم. وقد اعتدت خلال سنوات طفولتي قضاء كل صيف معهم. وكان لديَّ زورق هناك، وأصبحت على دراية وثيقة بكل منحنى في النهر، وكل سد من السدود التي بنتها حيوانات القندس، وكل عش من أعشاش البجع. إن هذا الشعور بالألفة جعل النهر يبدو كأنه ملكي».

التقطت جايد جرة فارغة جديدة، وعادت إلى النهر وهي تسير عبره بحيوية ونشاط ما تسبب في اضطراب المياه وإثارة بعض الرذاذ. وقد عملا معًا على مدار ساعة بانسجام ووتيرة مريحة. جرى النهر بهدوء يشبه الهمس تحت ضوء الشمس الدافئ في وقت متأخر من بعد الظهيرة. كان صوته الهامس وجريانه الهادئ يعطي انطباعًا بتأنيه وصبره، حتى إن

بيتر شعر بالاسترخاء والانسجام كأن تيار النهر يحمله بلطف وينسيه همومه ومخاوفه في عالم خيالي آسر.

حتى أعادته جايد إلى الواقع من خلال النقر على مرفقه، فانتبه بيتر ملقيًا نظرة على الحاوية المخصصة لالتقاط العينات التي كانت في يده، فسألها: «هل ارتكبت خطأ ما؟».

هزت جايد رأسها بالنفي، وأشارت بعينيها نحو غصن الصنوبر فوقهما. ثم همست: «هل ترى هذا الطائر؟ إنه طائر القرقف؟ أعتقد أنه أتى لزيارتنا».

رأى بيتر الطائر وهو يقف فوقهما على مسافة لا تقل عن ثلاثة أمتار ونصف المتر، ثم قال: «حسنًا، أعتقد أنه ليس خائفًا، لأن لديه جناحين يمكنه الطيران بهما متى أحس بالخطر، لكنني لا أعتقد أنه سيقترب أكثر من ذلك».

عارضته جايد قائلة: «لا أعتقد ذلك، بل إنه يوجد هنا منذ أن بدأنا تفريغ الأمتعة. يبدو أنه فضولي. إذا شجعناه قليلًا، فسوف يأتي إلينا. انتظر فقط وشاهد» ثم أخرجت جايد قالبًا من الجرانولا من جيبها وأمسكته كأنها تعرضه أمام الطائر لتريه إياه، ثم بدأت تقشير الغلاف ببطء وحذر.

جلست جايد على الأرض وربعت ساقيها، ثم أشارت بيدها إلى مكان بجانبها داعية بيتر للجلوس. التزم بيتر بذلك، فوضع قلمه، واستقر بعناية في وضع مريح بجانبها لمراقبة ما سيحدث.

فاجأته حين همست له: «أنت من سيفعل ذلك»، ثم وضعت بعض القطع الصغيرة من الجرانولا في يده، ووضعت الباقي في جيبها. ثم رفعت كفه لأعلى، وتوجهت بالحديث للطائر: «اقترب، نحن صديقان محبان لك»، ثم قالت لبيتر: «يمكننا أن نستمر في الحديث إليه، لكن بصوت هادئ، وتجنب القيام بأي حركات مفاجئة».

ظل هذا الوضع لحظة، إذ استمر الثلاثة يراقب كل منهم الآخر في صمت. ثم حولت جايد نظرها نحو بيتر، وقالت له: «ألا تشعر بأن الطيور تحاول أحيانًا التواصل معنا؟ كأنها تقول أنتم تشعرون بالجوع، ونحن أيضًا، يبدو أن لدينا قواسم مشتركة».

أومأ بيتر برأسه مبديًا موافقته على ما تقوله، وثبت نظراته على النهر، وهو يجتر بعض ذكرياته مع باكس. استغرق لحظة ليسمح لمشاعره بالتدفق داخله، متوقعًا وجود غصة في حلقه تعوقه عن الكلام، لكن ذلك لم يحدث. فتابع بصوت هادئ: «عندما كان لديَّ ثعلب، كان الناس غالبًا ما يشاركونني قصة مماثلة لقصتي معه. فيقول أحدهم مثلًا: 'كنت أسير في الغابة ولاحظت وجود ثعلب بجانبي مصادفة، بدا الأمر كأنه كان يسير بشكل عرضي في اتجاهي نفسه' لطالما وصفوا الطريقة التي كانت الثعالب تنظر بها إليهم بأنها ودود وتحمل علامات الصداقة الحميمة، كأنهم ينظرون إلى البشر باعتبارهم أصدقاء وليسوا مصدر تهديد. ثم يقول هؤلاء الأشخاص إنهم واصلوا المسير، ونسوا أمر الثعلب الذي قابلهم من قبل. ومع ذلك، عند النظر مرة أخرى لاحقًا، كانوا يجدون دائمًا الثعلب في مكان قريب كأنه يتبعهم. لقد فسر كل من واجه مثل هذه التجربة الموقف بأكمله بشكل مماثل؛ حيث شعروا بأن الثعلب ينقل لهم رسالة مفادها وجود صداقة حميمة وتجربة مشتركة، كأنه يقول: 'مرحبًا، أنا في نزهة، وأنت في نزهة، ونحن نسير معًا، وهو أمر رائع للغاية' ما يدل على الشعور بالارتباط والرفقة».

نزل الطائر بضعة أغصان، ومد رقبته ليلقي نظرة فاحصة على الطعام الذي يحمله بيتر في يده.

قالت جايد: «لقد واجهت مواقف مماثلة، فدائمًا ما قابلت سناجب وغربانًا. أذكر ذات مرة عندما تبعني غزال صغير، لكن أمه تدخلت سريعًا، وهو أمر مفهوم، نظرًا لأننا نأكل لحوم الغزلان».

نزل طائر القرقف إلى أدنى غصن في الشجرة، ثم نقر ريش كتفه بمنقاره، ومال برأسه لينظر إلى بيتر بعينيه السوداوين متفحصًا إياه.

تحدث بيتر بنبرة هادئة للغاية قائلًا: «دائمًا ما قال الأشخاص الذين قابلوا ثعالب في طريقهم إنهم شعروا بأن تلك الثعالب قد اختارت مصادقتهم كأنها قد قررت أنهم

يستحقون ثقتها بالفعل».

تحرك طائر القرقف حتى طرف الغصن، وحاول الحفاظ على توازنه أثناء وقوفه على بعض الأوراق المدببة الصغيرة لشجرة الصنوبر. توقف بيتر وجايد عن محادثتهما وتبادلا النظرات فقط، كأنهما يريدان منح الطائر بعض الخصوصية وجعله يشعر بالأمان.

لاحظ بيتر حركة الطائر بطرف عينه، وأحس به وهو يهبط على طرف أطول أصابعه، كما شعر بالضغط اللطيف لمخالبه الصغيرة التي تمسك بإصبعه بإحكام.

تجمدت جايد مكانها، ونظرت إلى بيتر ورفعت حاجبيها قليلًا تعبيرًا عن فرحتها. رد عليها بيتر بأن رفع حاجبيه هو الآخر، وتدفقت ضحكة صامتة داخله، وملأت كيانه كله بالبهجة والدفء. أدارت جايد وجهها ببطء نحو الطائر، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة مشعة أضاءت وجهها عندما شاهدته وهو يأكل. على الرغم من الاختلافات بين البشر والحيوانات، فقد أدرك بيتر أن تلك الابتسامة الدافئة الصادقة يمكن أن تجد طريقها بين جميع أنواع الكائنات الحية متجاوزة أي حدود أو حواجز بينها.

نفض الطائر ريش صدره وطار بعيدًا، فضحك بيتر بصوت عالٍ. وهنا بزغت فجأة فكرة في ذهنه، وهي أن ما حدث كان دليلًا آخر على لطف جايد، سلاحها السري الذي حدثه عنه صامويل. فقد بثت البهجة في نفسه من خلال السماح له بالتفاعل مع طائر جميل، وحولته إلى فتى سعيد خالٍ من الهموم.

أخرجت جايد الجزء المتبقي من قطعة الجرانولا، وقسمته إلى نصفين، ثم قدمت قطعة إلى بيتر، وقالت له: «لقد تشاركنا بعض الطعام واللحظات الجميلة مع هذا الطائر، نحن محظوظان بكل تأكيد».

أخذ بيتر قضمة من الجرانولا ومضغها ببطء، وقال بينما بدا غارقًا في التفكير: «لقد وصفتني فولا بالمحظوظ عندما سمعت أنني كنت أربي ثعلبًا في منزلي. وقالت إنه لا يوجد

كثير من الأشخاص الذين يمكنهم تكوين مثل هذه الرابطة القوية مع حيوان بري، وقالت إننا كيانان مختلفان تمامًا، لكننا مع ذلك مترابطان».

أومأت جايد، وقالت له: «نعم، إن هذا المفهوم معروف في الفلسفات القديمة. إذن، هل ستربي حيوانًا آخر عندما تعود».

سألها بيتر في دهشة: «أعود إلى أين؟».

أجابته: «إلى منزل فولا، حيث تعيش. أعني عندما تنتهي من مهمتك».

ربما أسهم وجود طائر القرقف المعروف بهدوئه ولطفه، وأصوات النهر الباعثة على الاسترخاء في شعور بيتر بالهدوء، والتخفيف مؤقتًا من أي توتر كان يشعر به، ما دفعه إلى التخلي عن حذره والتحدث بحرية أكبر، فقال لها بكل جرأة: «لن أعود إلى منزل فولا، بل سأذهب إلى منزلي القديم، إنه يقع على مقربة من هنا، خلف المصنع القديم مباشرة».

انحنت جايد إلى الخلف، وسألته: «لكن، من يقيم هناك؟».

أجابها: «لا يوجد أحد هناك في الوقت الحالي. لكن عندما تنتهي كتيبة محاربي تلوث المياه من مهمتهم، سيعود الناس إلى هناك مرة أخرى».

حاولت جايد توضيح الأمر أكثر له، فقالت: «لا أقصد ذلك، وإنما...»، ثم وضعت يديها على فخذيها في محاولة للتحلي بالهدوء لتوصيل مقصدها بدقة، ثم أردفت: «أعني أنك ما زلت في الثالثة عشرة من عمرك، ولا يمكنك أن تعيش بمفردك في المنزل».

عاد بيتر مرة أخرى للتحلي بالحذر، فقال لها: «أوه، لقد أسأت فهمي. إنني أقصد أنني لن أعود إلى هناك على الفور. وإنما سأذهب أولًا لأنثر رماد والدي، ثم أنتهي من بعض الأمور المتعلقة بالمنزل. ولن أبقى هناك إلا بضعة أسابيع فقط، هذا ما قصدته».

نظرت إليه جايد مدة أطول من اللازم ما جعله يشعر بالتوتر وعدم الارتياح، لكنها تجاوزت الأمر في النهاية، وقالت له: «حسنًا، ربما تجد حيوانًا أليفًا ترعاه هناك. فمن المؤكد أنك بمجرد أن تعود إلى المنزل مرة أخرى، لن تكون بمفردك أبدًا».

سألها بيتر في دهشة: «ماذا تقصدين؟».

أجابته جايد: «عندما يضطر الناس إلى مغادرة منازلهم نتيجة حدوث بعض الظروف، تهجر الحيوانات الأليفة تلك المنازل. لكنها تعود إليها مرة أخرى بمجرد شعورها بعودة هؤلاء الأشخاص».

كان بيتر يعلم أن هذا الأمر قد يحدث في أي منزل إلا منزله؛ فقد ترك باكس خلال مدة وجوده في حديقة منزله طيلة خمس سنوات آثارًا وثيقة، ومن ثم لم يجرؤ أي من القطط أو الكلاب على الدخول إلى هناك. فقال لها بيتر أخيرًا: «لا. هذا لن يحدث أنا لا أريد رعاية أي حيوان أليف آخر».

رمقته جايد بنظرات حادة مجددًا، وفغرت فاها من فرط الدهشة. لكن عاد صامويل في تلك اللحظة قبل أن تتمكن من قول أي شيء.

قال صامويل: «من المتوقع أن تهب عاصفة شديدة غدًا، لذا لا بد أن نتحرك مبكرًا».

هب بيتر على الفور واقفًا، وساعده على إزالة معداته ووضعها أرضًا. وعلى مدار الساعة التالية، ظل مشغولًا بتسجيل البيانات، وجمع الحطب، وإشعال النار، كما ساعد على جمع المعدات وتعبئتها قبل تولي مسئولية الطهي، حيث وضع بعض الفول على النار، وتظاهر بالتركيز على تحريكه. وأخيرًا، وزع الأطباق، وتناولوا الطعام قبل أن ينظفوا أدواتهم.

بيد أن بيتر شعر بأن جايد كانت تراقبه خلال كل ذلك.

23

راقب الثعلبان من جحرهما المريح المغطى بالطحالب العالم من حولهما وهو ينبض بالحياة تدريجيًّا. كانت طيور الشحرور ذات الأجنحة الحمراء تبني أعشاشها بين شجيرات الصفصاف على الجانب الآخر من النهر، بينما أخذت السناجب تبحث على عجل عن الجوز المفقود وسط الأوراق المتساقطة بالقرب من شجرة البلوط الذابلة. كما انتشر ذباب صغير للغاية فوق المياه، فصنع تأثيرًا بصريًّا مشابهًا لأنماط الضباب. وأخيرًا وصل من كان باكس ينتظرهما.

هبط غرابان على شجرة البلوط الخالية من الأوراق، وسرعان ما انضمت إليهما غربان أخرى، حتى أصبحت الشجرة تعج بأصواتها.

قال باكس لصغيرته الغربان سريعة وتطير مسافات بعيدة. لذا فإنها على علم بكل ما يحدث، وهي لا تبخل أبدًا بنشر المعلومات التي عرفتها.

جثم باكس وصغيرته على الأرض، وأبقيا ذيليهما منخفضين ليؤكدا للغربان أنهما لا يشكلان أي تهديد. ثم اقتربا من قاعدة الشجرة، واستقرا هناك.

وسأل باكس ابنته: ماذا تسمعين؟

كانت الصغيرة تنصت إلى الغربان باهتمام، أجابت والدها إن الغربان قلقة.

قال باكس: حسنًا. ولكن لماذا؟

من البشر، فهي تقول إن هناك مجموعة كبيرة منهم تتجه جنوبًا على طول النهر.

استمع باكس وصغيرته باهتمام، وكوفئا بالحصول على الكثير من المعلومات القيِّمة، فقد عرفا أن هؤلاء البشر الذين تقصدهم الغربان هم مَن كانوا يخيمون سابقًا عند البحيرة، كما علما أن من بينهم بعض الشباب. وأنهم كانوا يسيرون ببطء وحذر، وبدوا مسالمين تمامًا، بيد أنهم كانوا يحملون بعض المعدات المشابهة لتلك التي استخدمها هؤلاء المتعطشون للحرب العام الماضي.

وقف باكس وأخذ يذرع المكان جيئة وذهابًا، وهو يفكر في أن هؤلاء البشر الذين يسيرون ببطء وحذر قد يتحولون فجأة للتقدم بسرعة وجرأة، وأنهم على الرغم من كونهم مسالمين، فقد يتحولون ليصبحوا عدائيين بشكل غير متوقع.

شعر باكس بأنه محاصر، لقد اشتم رائحة حريق جديد أشعله البشر في اليوم السابق آتية من الشرق هذه المرة، لذا ظل السفر على طول النهر هو الخيار الأكثر أمانًا بالنسبة له.
والأهم من ذلك أن المياه المتدفقة ستخفي آثارهما عن الحيوانات المفترسة المحتملة مثل الذئاب البرية
أو الدببة. ونتيجة ذلك، اعتقد باكس أنه ليس لديه سوى خيارين إما التوجه شمالًا على طول النهر نحو منزله، حيث بريسل وصغيراه، وهناك احتمال كبير بمواجهة مجموعة كبيرة من البشر في طريقه إلى هناك. أو السفر جنوبًا نحو الوادي الفسيح، حيث قد يلتقي ببيتر ورفيقيه.

على الرغم من شعوره برغبة قوية في العودة إلى عائلته، أدرك باكس أن ذلك ليس الخيار الأمثل؛ حيث تمثل مجموعة البشر الكبيرة تهديدًا محتملًا له ولابنته، أما إن قابل بيتر، فلن يؤذيهما بالتأكيد، ولن يسمح لرفيقيه بإيذائهما أيضًا.

عاد باكس إلى صغيرته التي كانت تستمع إلى الغربان وهي تتحدث عن حظيرة انهار سقفها بفعل عاصفة قوية ما كشف عن مخزون كبير من الذرة داخلها. وهنا قال لها باكس هيا بنا سنغادر.

سألته الصغيرة: هل سنذهب إلى المنزل؟

قال لها: ليس بعد. سنذهب أولًا إلى الوادي الفسيح.

شعر باكس بالحاجة إلى المغادرة بسرعة وفي أقرب وقت، لكنه كان يعلم أن ابنته بحاجة إلى الحصول على وجبة مغذية قبل أن يشرعا في رحلتهما، فسارا معًا على طول ضفة النهر حيث سبق أن اكتشف رائحة قوية لبعض السلاحف هناك.

وجد باكس بقعة ناعمة من الأرض، ما يشير إلى موقع محتمل لتعشيش السلاحف، ثم بدأ الحفر، ووجد بالفعل عددًا كبيرًا من بيض السلاحف مدفونًا تحت السطح. تناول باكس بسرعة عددًا كبيرًا منها لإشباع جوعه، وحث ابنته على تناول أكبر عدد ممكن منها أيضًا.

دحرجت الصغيرة إحدى البيضات نحوها، ثم ما لبثت أن وضعت رأسها فوق قائمتيها الأماميتين دون تناولها.

كسر باكس القشرة الخارجية للبيضة التي كانت تقع بالقرب من أنف صغيرته، فانسكب صفار البيض الموجود في الداخل.

لعقت صفار البيض بتردد في البداية، ثم ابتلعته بسرعة. راقها المذاق فتناولت بيضة أخرى، وفتحتها بنفسها هذه المرة، والتهمت محتوياتها بلهفة. ثم واصلت تناول المزيد من

البيض الواحدة تلو الأخرى، وعندها شعر باكس بالارتياح؛ فلم تكن قد تناولت الطعام منذ بضعة أيام، أما الآن فيبدو أنها شبعت، وهو ما يتضح من شكل بطنها الممتلئ المستدير.

حان وقت الرحيل.

فحص باكس ضفة النهر الموحلة والأرض المرتفعة الأكثر جفافًا بدقة وعناية. إذ على الرغم من أنه كان يكره أن تبتل أرجلهما فقد أدرك أن السفر عبر الماء من شأنه أن يوفر لهما أفضل درع حماية ضد الأخطار المحتملة التي قد تواجههما. ومن ثم بدأ رحلتهما عبر النهر، بالتناوب بين الإبحار عبر القصب الكثيف والخوض في المياه الضحلة المليئة بالحصى، والدخول أحيانًا إلى أجزاء أعمق، حيث يسهل التيار السباحة دون جهد تقريبًا. وظلا هادئين وصامتين تمامًا طوال رحلتهما مثل الأسماك تمامًا.

24

هبّت العاصفة فجأة حاملة معها برودة قارسة وظروفًا مناخية قاسية قبل أن تتراجع لتقتصر على الأمطار الغزيرة. كان بيتر قد علَّم جايد وصامويل كيفية بناء ملجأ باستخدام أغصان الأرز الكثيفة، وقد أمضوا جميعًا معظم اليوم مختبئين فيه، صحيح أن الماء بللهم، لكنهم كانوا ممتنين كونه وفر لهم الحماية ضد تلك الظروف القاسية.

بعد أن هدأت العاصفة، ارتدوا ملابس جافة، وشرعوا في إشعال النار باستخدام حزمة أعواد الخيزران التي قطعها بيتر في وقت سابق من اليوم ودسها بشكل محكم وآمن في الجزء الخلفي من معدات المطر الخاصة به حتى تظل جافة.

اشتعلت أعواد الخيزران بسرعة، لكنها أطلقت بعض الدخان وأصوات هسهسة أثناء احتراقها. وعلى الرغم من ذلك، وفرت لهم تلك النيران الخافتة بعض الدفء والراحة. وبعد تناول وجبة من الخبز الجاف واللحم المقدد، جلسوا جميعًا يلتمسون الدفء أمام قطعة خشب واحدة مشتعلة.

أخرجت جايد كتابًا، وبدأت القراءة، بينما بدأ كل من بيتر وصامويل في نحت بعض الأشكال على الألواح الخشبية باستخدام السكين لتمضية الوقت. بيد أن بيتر لاحظ بعد

دقيقة أن صامويل توقف عما كان يقوم به، ووضع سكينه جانبًا، واكتفى بمشاهدته. ثم توجه بالحديث إليه قائلًا: «إنها سكين رائعة، وأنت ماهر في استخدامها حقًّا».

قابل بيتر ثناءه عليه بكل تواضع، وقال له: «لا، بل إن الفضل كله يعود إلى تلك السكين وليس مهارتي، صحيح أنها قديمة، لكنها تظل هي الأفضل» كانت السكين في الأصل ملكًا لفولا، وقد أعطته إياها، وكان يعتز بها كثيرًا، ونادرًا ما يذهب إلى أي مكان من دونها، فإلى جانب شكلها الجميل، حيث تحتوي في نهاية نصلها على حلقات معدنية متينة مصنوعة من النيكل، ومزخرفة بشكل رائع ومعقد، علاوة على مقبض رائع مصنوع من خشب القيقب، فإنها أداة رائعة حقًّا ثابتة في اليد، وبارعة في نحت الخشب.

قدم بيتر السكين إلى صامويل قائلًا: «تفضل جربها».

فتناولها صامويل، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة طفولية. استرخى بيتر، وأخذ يفكر في مدى السرعة التي تمكنوا بها من تشكيل فريق متماسك؛ إذ لم يستغرق الأمر سوى أسبوع واحد فقط. وفي تلك اللحظة سمعا فجأة صوتًا ينبعث من جهاز الإرسال.

ألقى صامويل السكين أرضًا، وهب من مكانه واقفًا، وصاح قائلًا: «إنه إنذار الطوارئ»، أخرج الجهاز من حقيبة ظهره، وذهب إلى المنطقة الخالية المجاورة، واقترب منه محاولًا سماع الرسالة بشكل أفضل.

بعد بضع دقائق أعاد صامويل الجهاز إلى مكانه، ثم عاد مرة أخرى وجلس أمام النار، وقال لهما: «أُجلت العملية المفترض القيام بها عند المصنع القديم مدة أسبوع على الأقل، وربما يمتد الأمر أسبوعين. فقد تسببت العواصف الشديدة في حدوث أضرار في السد الذي يقع عند المنبع، وقد جرى تكليف فريق من كتيبتنا بسرعة الذهاب إلى هناك لمعالجة الوضع عند السد المتضرر».

سألته جايد: «وهل يجدر بنا أن ننضم إليهم؟».

أجابها صامويل: «لا، فقد رحلوا بالفعل. فلم يكن الأمر يحتمل الانتظار».

تبادل صامويل وجايد النظرات، ولاحظ بيتر أن هناك سرًّا خفيًّا وراء نظراتهما هذه.

سألته جايد وقد افترت شفتاها عن ابتسامة عريضة: «هل هذا يعني أن ...؟».

أجابها صامويل: «نعم، هذا يعني أننا أحرار نفعل ما يحلو لنا حتى تصل المجموعة إلى هنا، ومن ثم يمكننا...».

وضعت جايد يديها على فمها، وقد ارتسمت علامات الإثارة والفرحة غير المتوقعة على وجهها.

رفع صامويل كتفيه بإيماءة تعني نعم سنفعل ذلك، وبدا غاية في السعادة.

تساءل بيتر قائلًا: «ما الأمر؟».

أجابته جايد: «كنا نتطلع للحصول على إجازة بضعة أيام بعد الانتهاء من مهمتنا عند المصنع القديم، حيث نريد الذهاب إلى منزل أجدادي لإتمام مراسم الزفاف وإقامة الحفل هناك. وللأسف صحة جدتي ليست على ما يرام، لذا لم يكن الأمر يحتمل أي تأجيل على الإطلاق. والآن، يمكننا القيام بذلك على الفور»، ثم نظرت إلى صامويل وسألته: «هل ما زال علينا توصيل المعدات إلى المصنع؟».

هز صامويل رأسه بالنفي، وقال لها: « هناك جانب إيجابي آخر، وهو أننا لن نضطر إلى عبور منحدرات النهر الوعرة غدًا، فنحن في إجازة».

وكالعادة أسهبت جايد في شرح المعلومات الموجزة التي يقدمها صامويل، حيث قالت: «تقع هذه المنحدرات عند الجزء الأخير من النهر بالضبط قبل موقع المصنع القديم. حيث ينحدر النهر بشكل حاد بمقدار خمسة عشر مترًا على امتداد تسعين مترًا فقط، وهو ما يشكل خطورة كبيرة».

قال بيتر: «أنا أعرف هذه المنطقة جيدًا، فقد اعتدنا اللعب هناك ونحن صغار، إنها ليست بمثل هذه الخطورة».

عارضته جايد قائلة: «لقد تغير الوضع الآن، فقد جرى في الخريف الماضي تفجير جسر بالقرب من المصنع القديم ما تسبب في تعرض المنطقة كلها للخطر، فضلًا عن هطول أمطار غزيرة، ما أدى إلى ارتفاع منسوب المياه أعلى من المستوى المعتاد بنحو 30 سم تقريبًا».

استدارت إلى صامويل وسألته: «إذن، ما الذي سنفعله بمعداتنا؟».

أوضح صامويل الخطة المتعلقة بالمعدات قائلًا: «إنهم يريدون منا تخزين جميع المعدات في مركز الحراسة الموجود عند تقاطع الطريق السابع صباح الغد».

تهللت أساريرها عند سماع هذه الأخبار، وقالت: «إن هذا المكان يقع في طريقنا. ويمكننا قضاء الأسبوع كله مع أجدادي» ثم قامت بتعديل بنطالها المتسخ قليلًا، وأضافت: «يجب أن أرتدي ملابس أكثر أناقة وجمالًا، سأذهب إلى المتجر وأشتري لنفسي فستانًا مناسبًا».

ربتت ظهر بيتر بلطف وقالت: «سوف تأتي معنا، أليس كذلك؟ فأجدادي لديهم منزل قديم ذو مساحة كبيرة، وستكون ضيفنا الكريم».

تراجع بيتر إلى الخلف قليلًا، ثم غلَّف باقي الطعام بعناية وهو يفكر في اقتراح جايد، لكنه كان يعرف الإجابة جيدًا، فقال أخيرًا وهو يمرر الطعام إليها: «للأسف لا أستطيع الذهاب معكما. أعتقد أننا يجب أن نبدأ بحزم أمتعتنا».

شعرت جايد بخيبة أمل حقيقية، ثم قالت له: «حسنًا. أفهم ذلك. إذن يا صامويل تواصل مع القيادة عبر جهاز اللاسلكي لترى ما إذا كان من الممكن إعادة بيتر إلى مجموعته لدى تسليمها المعدات المطلوبة».

قال بيتر معترضًا: «لا، لا أريد ذلك. فسأذهب إلى منزلي القديم وأعمل على إعادة ترتيبه وتهيئته بشكل جيد من أجل الاستقرار فيه، فهناك الكثير من الأشياء التي يجب عليَّ القيام بها».

نظرت إليه جايد وهي تضيِّق عينيها ما عكس نظرات ريبة وشك.

لكن بيتر أدرك متأخرًا ما قاله ومدى تعارضه مع ما أخبرها به من قبل.

خاطبت جايد صامويل دون أن تحول نظرها عن بيتر قائلة: «هل يمكنك يا صامويل القيام بحزم الأمتعة والمعدات، أريد أن أتحدث مع صديقنا بضع دقائق بمفردنا».

نظرت جايد إليه باهتمام، ورفعت حاجبيها، بينما غادر صامويل. وفي خضم الصمت الذي ساد بينهما تمكن بيتر من تمييز هدير المنحدرات البعيد والمرعب الذي زاد من حدة توتر الموقف. ثم عدل بيتر من وضعه، وابتعد عن جايد قليلًا وهو ينظر إلى أكياس النوم، ربما بإمكانه أن يقول إنه متعب، أو يعاني صداعًا.

وهنا وضعت جايد يدها على يده مستشعرة رغبته في الهروب، وتمتمت بهدوء: «هل تنوي حقًّا المغادرة، والاستقرار في منزلك؟ لقد فهمت الأمر الآن، وأدركت ما تنوي القيام به».

كانت لمستها حازمة، بيد أنها كانت لطيفة وتخلو من أي تهديد، لكنها مع ذلك أزعجته. وحاول جاهدًا مقاومة دافع الفرار.

قالت له جايد أخيرًا بينما اشتعلت عيناها من الغضب كجذوتين من النار: «لن ترعى أي حيوانات أليفة، ولن تعود مرة أخرى إلى فولا. وستذهب للعيش بمفردك في بلدتك المهجورة تلك. ولا يوجد مَن تعتني به أو يعتني بك، أليس كذلك؟ ما يعني أنك ستعيش في عزلة تامة».

لم يجبها بيتر. إذ من المؤكد أنه فكر في كل ذلك، وكان هذا هو ما أراده بالفعل.

استطردت جايد: «لكن ذلك الأمر لن يكون مجديًا على الإطلاق، إنه يهدد سلامتك، ويشكل خطرًا كبيرًا عليك وعلى صحتك».

رفع بيتر رأسه لأعلى فجأة في اندهاش.

أدركت ما دار في رأسه، فقالت له: «لا أعني أنك ستموت، وإنما ستتوقف عن عيش حياة مُرضية وذات معنى».

انتزع بيتر بظفر إبهامه شريطًا من لحاء جذع الشجرة وهو يفكر بعمق. كان يرى أنه من المقبول بالنسبة له التوقف عن عيش الحياة التي ترى جايد أنها مُرضية وقيِّمة. فقد تعلم من خلال وجوده في الغابة أن البقاء على قيد الحياة وإتمام المهمات المطلوبة على أكمل وجه هما جانبان حاسمان في الحياة. كما أدرك أن العيش بمفرده يمكن أن يلبي احتياجاته ورغباته إلى حد مُرضٍ. فقد وجد البساطة والوضوح في كل ما يفعله في الغابة. وكان يعمل بجد، ويبذل مجهودًا مضنيًا، ما يجعله منهكًا للدرجة التي تصرف انتباهه عن الألم العاطفي الذي يصيبه عندما يرقد في السرير ليلًا. وخلص أخيرًا إلى أنه يستطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو والشعور بالرضا على الرغم من ذلك.

قالت له جايد: «أتمنى لك التوفيق، ولكنني أشك مع ذلك في قدرتك على الاستمرار في العيش بمفردك، ففي النهاية سيتمكن أحدهم من اختراق عزلتك بلطفه وعطفه. وسيحدث كل ذلك دون توقع منك، ودون أن تدرك حدوثه أيضًا، سيكون تأثيره أشبه بالزهرة التي تتسلل إلى أرضك البور، فتحولها إلى مروج يانعة».

فكر بيتر في علاقته بفولا، مدركًا مدى اقترابه من اعتبارها فردًا أساسيًّا من عائلته. واعترف أيضًا بمدى السرعة التي سمح بها لنفسه بالثقة بهذين الخطيبين، على الرغم من طبيعته الحذرة.

لكنه أصبح أكثر حذرًا الآن. وسيظل كذلك طوال الوقت، متوقعًا أي اختراق محتمل من أي شخص لدفاعاته.

نهضت جايد من مكانها، ومدت ذراعيها على وسعهما كأنها تريد أن تشمل الغابة كلها في حضنها، ثم قالت: «ينتظرني يوم طويل في الغد، بل أسبوع طويل أيضًا، أخيرًا سنتزوج! لذا من الأفضل أن أحصل على قسط وافر من النوم».

بقي بيتر مكانه بعد أن غادرت جايد، فقد ظل جالسًا على جذع الشجرة فترة طويلة بما يكفي لتتضاءل النار، وتتحول إلى جمر، ولكي يخترق البرد بنطاله، ويخدر الجزء الخلفي من فخذيه. لاحظ ظهور النجوم في السماء. وعندما تكيف نظره مع الظلام، تمكن من رؤية الخفافيش تنزلق بصمت فوق النهر مطاردة فرائسها. بينما لاحظ على الأرض بالقرب من رجليه مجموعة من النمل مشغولة بجمع فتات البسكويت.

شعر عندئذ بموجة من الأمل تجتاحه فجأة؛ فقد كشفت له تلك الأنشطة الطبيعية البسيطة التي تقوم بها تلك المخلوقات الصغيرة مدى ضآلة الحياة وبساطتها. وبدا الأمر كأنه إشارة بالنسبة له.

شاهد النمل يسير في صف واحد حاملًا كنوزه الصغيرة التي حصل عليها في الحال. تعقب بيتر حركته، متتبعًا تقدمه حتى رأى النمل يصل إلى صدع في اللحاء عند الطرف البعيد من جذع الشجرة.

إذن، تقع داخل هذا الجذع، تحت موضع جلوسه مباشرة، مستعمرة كبيرة للنمل داخلها حجرات مختلفة للبيض، وأخرى لتخزين الطعام، وغرفة مخصصة للملكة. إنه مجتمع كامل مزدهر داخل هذا الجذع المتحلل. كان هذا الصدع الصغير هو كل ما يتطلبه الأمر لبناء هذه المملكة الكبيرة، حتى إن الجذع نفسه لم يكن على علم بهذا العالم الواسع النامي داخله.

نهض بيتر من مكانه، وحاول نسيان الأمر، إذ لم يؤمن دائمًا بفكرة الإشارات أو الدلائل التي يمكن أن توجِّه حياته.

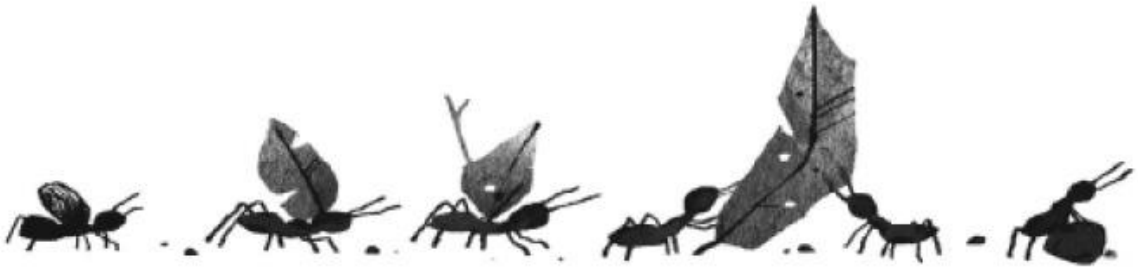

25

تنبأ باكس من خلال حاسة الشم باقتراب العاصفة؛ حيث تعرف على رائحة المطر، وقال لصغيرته هذه الرائحة المميزة هي رائحة المطر الآتي من مسافة بعيدة. ما يعني تجمع الرياح استعدادًا لإطلاق العنان لقوتها معبرة عن غضبها.

وعندما سمعت أول صدى لأصوات الرعد في الهواء، سألت والدها: هل هناك خطر؟

أجابها: لا، لا تقلقي، إن الرعد يمثل القوة المطلقة للطبيعة، لكنه لا يشكل أي خطر.

عندما هبت العاصفة بقوة، مطلقة وابلًا من الرياح قارسة البرودة، سارع باكس إلى توجيه ابنته للبحث عن مأوى داخل مجموعة كثيفة من الشجيرات. ولكن بمجرد أن هدأت الرياح، وقل هطول الأمطار، استأنف الاثنان رحلتهما. حث باكس ابنته على مواجهة العاصفة بقوة من خلال الاستمتاع بالرياح، والسماح للمطر بتغطية فروها، واستنشاق رائحة الهواء المنعشة، واستيعاب قوة العاصفة الكاملة وطاقتها.

سارت رحلتهما في اليوم التالي بسلاسة، حيث تحسنت قدرة الصغيرة على الحركة، وأصبحت أكثر مهارة في التنقل. فقد تمكنت من توقع عدم التوازن الذي تعانيه خاصة في

جانبها الأيسر، وتعلمت كيفية التعامل معه بما يضمن عدم سقوطها بشكل متكرر. وبدافع من تصميمها على مجاراة وتيرة والدها، وجدت نفسها تحتاج إلى فترات راحة أقل تواترًا كأنها تتعافى تدريجيًّا من ذاك المرض الغامض الذي ألم بها عند تلك البركة الهادئة.

ثم عادت طبيعتها الفضولية للظهور مرة أخرى، واغتنم باكس الفرصة لتعليمها جوانب مختلفة في الحياة.

شعرت بالجوع مرة أخرى، ولم تعد تشتهي سوى البيض. وتناولا بالفعل الكثير من البيض من الأعشاش المنتشرة بكثرة في فصل الربيع بما في ذلك أعشاش السلاحف، والبط، والإوز. شعر باكس بالارتياح عندما شاهدها تأكل.

وكلما مر باكس بأرض، اكتشف أن صديقه القديم قد مر من هناك مؤخرًا، وأنه كان بصحة جيدة، ما جلب له بعض الراحة والطمأنينة أيضًا.

وعندئذ سمع باكس صوتًا ما.

تعرَّف عليه على الفور؛ إنه صوت الماء وهو يضرب بقوة الصخور الصلبة. كان هذا الصوت أكثر هدوءًا في الماضي، لكن باكس ما زال بإمكانه التعرف عليه. إنه يأتي من ذلك الموقع بالتحديد عند النهر، حيث لقى جراي حتفه، وفقد رانت ساقه، ورحل باكس عن صديقه، وهو لا يبعد كثيرًا عن الوادي الفسيح.

من المفترض أن يجدا الكثير من الطعام في الوادي الفسيح، حيث يمكن للصغيرة تناول المزيد منه، واسترداد قوتها بشكل أكبر، ما يعني أن بإمكانهما العودة قريبًا إلى بريسل وبقية أفراد العائلة، والتجمع معًا.

سارا ساعة إضافية بمحاذاة النهر الذي كان يتدفق بشكل أسرع الآن حتى بدأ الأفق الشرقي ينير بفعل أشعة الشمس الوردية التي ملأت الكون مع مطلع الفجر. لكن التعب بدأ يتسلل مرة أخرى إلى جسد الصغيرة.

اكتشف باكس موقعًا جيدًا للاحتماء فيه أسفل نتوء صخري واختار رقعة مريحة مغطاة بالطحالب ذات الملمس الناعم لينام فيها. وبينما كان ينام ويلف صغيرته بجسده، سمع الصوت نفسه مرة أخرى. ومع أنهما ظلا على بعد نصف ساعة من وجهتهما، فقد ارتفع هدير المياه المتدفقة بشكل ملحوظ.

استشعرت الصغيرة القلق الذي يعتريه.

فتساءلت بفضول: هل هناك أي خطر؟

لكن لم تكن لدى باكس حتى هذه اللحظة أي إجابة عن ذلك السؤال.

26

وقف بيتر بالقرب من حافة المنحدر، ونظر إلى أسفل. كان المشهد الحالي مختلفًا تمامًا عن مشهد الشلالات الهادئة الذي كان موجودًا منذ عام واحد فقط، حيث كانت الشلالات في السابق تتدفق بهدوء فوق بعض الصخور الكبيرة المتمركزة في المنتصف. وكانت هذه الصخور قوية وآمنة بما يوفر منصة ثابتة مناسبة للقفز، أما الآن فقد أصبح الوضع مختلفًا، حيث تتدفق المياه بقوة، وتتحطم على تلك الصخور بلا هوادة كأنها تعبِّر عن غضبها الشديد.

نادي صامويل: «هيا سوف نسلك هذا الطريق».

شعر بيتر بالأرتياح عندما غادروا الموقع. ومع ذلك، حين خرج الثلاثة من الأدغال الكثيفة، ووصلوا إلى طريق ترابي، شعر بيتر بالتوتر الشديد كأنه يتوقع التعرض لأذى أو ضرر من نوع ما. وتساءل على الرغم من تأكده من معلوماته قائلًا: «هذا هو الطريق المؤدي إلى المصنع القديم، أليس كذلك؟». كما كان يعلم أنه سيمر بالموقع الذي أجبره فيه والده على ترك رفيقه المحبوب باكس والمضي قدمًا من دونه.

أومأ صامويل بالإيجاب: «نعم، إنه هو. فدائمًا ما اعتدت السير في هذا الطريق. لكنه أصبح مهجورًا منذ تدمير الجسر. ومع ذلك ما زال ممهدًا وخاليًا من العوائق، خاصة على الجانب الذي نسير فيه الآن. علاوة على أن السفر عبره أسهل كثيرًا مقارنة بالطرق الأخرى الوعرة التي سرنا فيها مسافات طويلة».

كان صامويل محقًّا، لقد كان السفر على طول هذا الطريق سهلًا حقًّا. لكن مع ذلك، ساد صمت مضطرب غير مريح، حيث أخذت جايد تختلس النظرات نحو بيتر، بينما كان صامويل يراقب تصرفات جايد سرًّا. أما بيتر، فقد تظاهر بعدم ملاحظة أي من سلوكياتهما.

وبعد ساعتين تقريبًا توقف بيتر فجأة، ثم وضع يده على معدته، حيث كان يشعر بألم شديد.

على الرغم من مرور عام، وعدم وجود أي علامات مميزة لتلك المنطقة بالتحديد عن باقي المناطق التي اجتازوها من فورهم، ظل بيتر متأكدًا أن هذا هو المكان المحدد الذي افترق فيه عن صديقه باكس. إنه يعرفه جيدًا، أو ربما هذا المكان هو الذي يعرف بيتر جيدًا؛ فقد تكون لدى الأماكن ذاكرة بالضبط كما لدى البشر. جلس بيتر القرفصاء وأمسك بحفنة من الحصى، ثم تركها تتسلل من بين أصابعه بينما كان يفكر مليًّا فيما حدث سابقًا.

توقفت جايد وسألته: «ماذا هناك يا بيتر؟ هل هناك خطب ما؟».

فكر بيتر لحظة وجيزة في ألا يجيب عن سؤالها، لكن إدراكه ارتكابه فعلًا مشينًا في هذا المكان، جعله ينطق ويجيبها لعله يستريح قليلًا، فاعترف أخيرًا بينما ثبت نظراته على الغابة أمامه: «لقد ارتكبت فعلًا مخجلًا هنا ذات مرة».

صرف صامويل انتباهه نحو بيتر في تلك اللحظة، وتوقف هو وجايد عن الحركة كأنهما ينتظران أن يقدم بيتر مزيدًا من الشرح أو التوضيح عن ذلك الفعل المشين الذي ارتكبه.

ألقى بيتر حقيبة ظهره وشاركهما تلك التجربة المؤلمة المتمثلة في تخليه عن صديقه القديم باكس. وتفاصيل تلك الرحلة البائسة التي قاده خلالها إلى المكان الذي سيتركه فيه، وتصارعه مع تلك المشاعر المتضاربة التي ألمَّت به في هذا الموقف، وخاصة شعوره بالخيانة. واختلاقه كذبة رمي اللعبة وحث باكس على التقاطها لتشتيت انتباهه قبل الابتعاد عنه إلى الأبد. وكم القهر الذي شعر به عندما انطلق مع والده بالسيارة، فقد شعر حينها بأنه ترك قطعة من قلبه تنزف على ذلك الطريق الترابي. ورؤية باكس وهو يركض بأقصى سرعة خلفهما حتى سقط مرهقًا. ثم أضاف: «لكنني مع ذلك عدت من أجله، عدت ووجدته».

ارتدى بيتر حقيبته، ثم قال: «هيا نذهب، لا أريد أن أكون موجودًا في هذا المكان أكثر من ذلك». ثم انطلق على الفور.

لحقت به جايد، وقالت له: «انتظر لحظة، لقد بدأت ربط بعض النقاط ببعضها. إذا كان هذا هو المكان الذي تركت فيه ثعلبك، وقد أخبرتني من قبل أنك عدت من أجل رؤية ثعلبك مرة أخرى، فهذا يعني أن والدك كان متمركزًا عند المصنع القديم. إذن، هذا هو المكان الذي رأيت والدك فيه آخر مرة، أليس كذلك؟».

أومأ بيتر بالإيجاب، وشعر عندئذ بغصة في حلقه، ثم قال: «هيا نذهب من هنا رجاء».

لكن جايد استطردت قائلة: «وهكذا هذا هو المكان الذي تخليت فيه عن ثعلبك أيضًا، أليس كذلك؟».

أومأ بيتر بالإيجاب مجددًا، بينما طأطأ رأسه حزنًا وخجلًا.

قالت له: «إذن، لقد فقدت كليهما هنا عند المصنع القديم».

خيم الصمت المطبق على الغابة، حتى إن الطيور توقفت عن ترديد ألحانها العذبة.

سألته جايد بكل هدوء: «هل تظن يا بيتر أنك قادر على الخدمة مع كتيبة محاربي تلوث المياه عند المصنع القديم؟».

لقد صدمته الحقيقة. إذ مع أنه لم يعترف بذلك صراحة من قبل، فقد أدرك أنه لا يستطيع حمل نفسه على القيام به. فلم يكن يستطيع تحمل فكرة العودة إلى ذلك المكان مرة أخرى.

وهنا سألته جايد: «بيتر، هل أنت مستعد للمشاركة في المهمة مع المجموعة هناك؟».

هز بيتر رأسه بحزن متجنبًا رفع رأسه لأعلى.

فسألته جايد مجددًا: «هل خططت يومًا للعودة إلى ذلك المكان؟».

أجابها بيتر في تردد: «لا أعرف، لكنني أعتقد أنه لا يمكنني فعل ذلك. وأنت الآن تعرفين السبب».

عبرت جايد عن حزنها حيال ما حدث له قائلة: «أنا آسفة حقًّا».

شعر بيتر بالارتياح لتفهمها الوضع بسهولة. وقال لها: «شكرًا لك».

قاطعته جايد قائلة: «إنني لا أعني أنني آسفة لعجزك وعدم قدرتك على الذهاب إلى هناك. أعي جيدًا أن هذا المكان يحمل ذكريات مؤلمة بالنسبة لك. وأنك غاضب وخائف حقًّا. لكن تجنب الذهاب إلى هناك ليس هو الحل على الإطلاق. أعرف أنك حزين، وأشعر بما تشعر به إلى حد ما، لكنني أعتقد أنك تملك الشجاعة لمواجهة مشاعرك، وخوض هذا الموقف الصعب للتغلب في النهاية على ما تشعر به من خوف وحزن».

قال لها بيتر: «لا أعتقد ذلك».

قالت له جايد: «أعرف أنك تستطيع. فقد تكون المهمة صعبة بالنسبة لك، لكنك لن تخوضها بمفردك، سنكون معك. كما أن قيامك بشيء جيد هناك قد يغير مشاعرك تجاه هذا المكان

الذي لم تعش فيه سوى تجارب مؤلمة، حيث لن يرتبط المكان بعد الآن بالمشاعر السلبية فحسب، بل سيصبح أيضًا موقعًا لقصة إيجابية عن المساعدة في تنظيف المياه وجعلها آمنة لعودة الأشخاص والحيوانات».

قال لها بيتر: «ربما»، ثم استأنف السير، وحرص على أن يكون في مقدمتهما، حتى لا يريا ما ارتسم من حزن وخوف على وجهه.

27

ازدادت حدة هدير المياه بشكل كبير، لكن كل ما استطاع رؤيته عبر القصب الكثيف هو مساحة مسطحة من المياه الهادئة ظاهريًّا. قال لصغيرته بحزم، ابقِ هنا، ثم تقدم أكثر في الماء للحصول على نقطة مراقبة أفضل وأوضح.

وعلى بعد تسعين مترًا تقريبًا، انحدر النهر فجأة. حاول باكس السباحة نحو المنتصف.

لكنه وجد نفسه بعد فوات الأوان في موقف محفوف بالمخاطر، حيث شعر بالماء يسحبه. أحس في البداية بسحب خفيف لساقيه، أعقبته قوة كبيرة تضغط على صدره ووركيه، وتسحبه أكثر نحو حافة النهر. وإدراكًا للخطر الذي كان يواجهه، استدار سريعًا وبدأ بالسباحة عائدًا نحو ضفة النهر الآمنة. لكنه تفاجأ بأنه على الرغم من تجديفه القوي، لم يحرز أي تقدم في الاقتراب من بر الأمان. ما زاد من إحساسه بالخطر والخوف.

وفي خضم ذلك، سمع صوت صرخة لفتت انتباهه. استدار بسرعة ليرى صغيرته وهي تكافح من أجل إبقاء رأسها فوق سطح الماء. وبينما كانت تتحرك بسرعة نحوه، اندفع محاولًا الإمساك بها.

أطبق باكس فكه بكل تصميم على كتف صغيرته، وشعر بسحب النهر المستمر الذي يزداد قوة. فشدد قبضته عليها، ما تسبب في عوائها من الألم. حاول التخفيف من حدة قبضته حول كتفها، لكنها لوت جسدها فجأة ما تسبب في إفلاتها من فكه. حاول باكس جاهدًا استعادة قبضته عليها، وحمايتها من أن يجرفها النهر، لكن جهوده باءت بالفشل؛ حيث لم يتمكن إلا من الإمساك بالماء فقط.

جرفها التيار بعيدًا، وقد اتسعت عيناها من الرعب حتى ظهر بياضهما، ثم اختفت تحت سطح الماء. وبعد لحظات، سمع باكس صراخها آتيًا من حافة الماء. وعندما ألقى نظرة خاطفة، لمح وميضًا من فروها، ثم ساد صمت تام مرة أخرى.

انجرف باكس مع التيار حتى وصل إلى الحافة، وهو يلهث بشدة. ونظر حوله في تلك اللحظة، فرأى مشهدًا مرعبًا، حيث رأى الأرض تنحدر إلى الأسفل مشكلة فجوات عميقة

ووعرة ذات حواف خشنة، بينما انحدر النهر بقوة إلى الأسفل.

انجرف باكس بسرعة كبيرة في المياه المضطربة، حتى اصطدم بقوة بحافة صخرية، فحاول جاهدًا الإمساك بأي شيء، وتمكن من الإمساك بسطح صخرة فترة وجيزة قبل أن تفلت قبضته. وفي نهاية المطاف، تمكن من تثبيت ساقيه في نتوء صخري آخر، وتشبث بقوة بمخالبه ممسكًا به. ومن هذا الوضع المحفوف بالمخاطر، بحث جاهدًا عن طفلته المفقودة، لكنه لم يتمكن من تحديد مكانها. ثم ضربته فجأة موجة قوية من المياه، حتى إنها طردت الهواء بقوة من رئتيه، ما جعله يلهث من أجل التنفس، ويكافح من أجل البقاء متشبثًا بالصخرة.

ابتلع النهر باكس، وغُمر بشكل كامل في مياهه المضطربة.

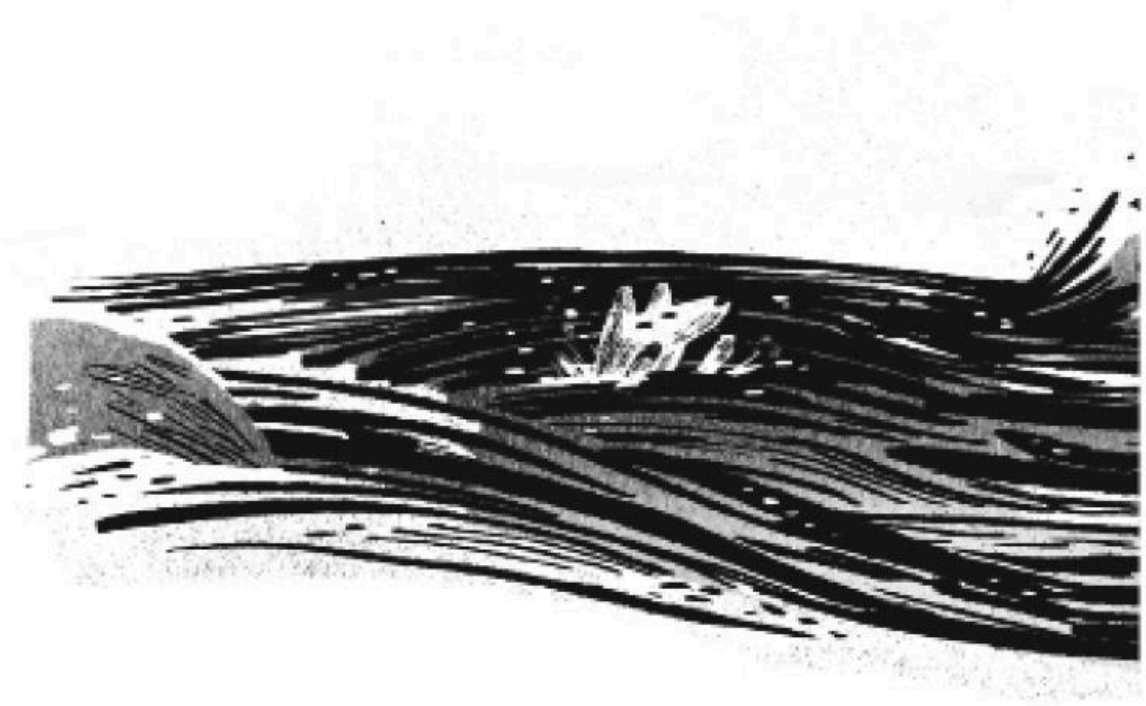

28

واصلوا السير خلال الساعات القليلة التالية دون أن يتحدثوا فيما بينهم. وكان الصندوق الذي يحوي رماد والد بيتر يشكل ثقلًا كبيرًا على ظهره، وظل يصطدم به في كل خطوة يخطوها، خاصة مع وتيرة سيره السريعة. لكنه مع ذلك ظل مشغولًا بالتفكير في مدى قربه من منزله. كان متأكدًا من أنه سيصل إلى هناك بحلول صباح اليوم التالي.

وصلوا في النهاية إلى المستودع، فتح صامويل وجايد الباب، ودخلا لتخزين المعدات، بينما ظل بيتر في الخارج يتذكر المرة التي أتى فيها إلى هنا العام الماضي، وأسرع جندي الحراسة نحوه على عجل. وقد أظهر قلقًا شديدًا وتوجسًا من بيتر، إلى أن أخبره بأنه أتى إلى هنا بحثًا عن حيوانه الأليف، وأخبره بمدى قلقه لفقده، ثم أخرج صورة له. تغيرت ملامح الجندي الحادة عندما نظر إلى الصورة البالية التي كان بيتر يحملها لثعلبه، وأبدى تعاطفه معه. سمح لبيتر بالمرور ومواصلة البحث عن حيوانه الأليف متمنيًا له أن يجده.

وفجأة، أدرك بيتر أن جايد وصامويل يقفان بجانبه.

أحضرت جايد ما تبقى من الطعام في المستودع، وكان عبارة عن علبة من مسحوق خبز الذرة، وثلاث قطع من البسكويت الجاف، ونصف كيس من التفاح المجفف، وقطعة صغيرة

من اللحم المعلب. ثم قالت له: «لن نحتاج إلى هذا، لكنك ستحتاج إليه».

أومأ بيتر برأسه بالإيجاب، وأخذ منها الطعام. وتذكر أن والده نظف المنزل كله قبل رحيلهما، وقال له: «يجب ألا نترك أي طعام قد يجذب الفئران».

حك صامويل حذاءه بالأرض قائلًا: « أعتقد أنه قد حان وقت الرحيل».

قالت له جايد: «وداعًا مؤقتًا، سنلتقي مرة أخرى بعد أسبوع تقريبًا عند المصنع القديم».

رد بيتر مجبرًا: «بالتأكيد، سنلتقي بعد أسبوع تقريبًا»، لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه يكذب.

حمل صامويل وجايد أمتعتهما وتبعهما بيتر، وتوجه ثلاثتهما نحو التقاطع. لاحظ أن كلًّا منهما يمسك بيد الآخر بحب وتعاون، بينما ظل هو وحيدًا. ومع أن العزلة كانت رغبته، فقد شعر حينها بقشعريرة باردة تجتاح كامل جسده كأن ريحًا باردة تسللت إلى داخل ملابسه.

صاح بيتر عندما رآهما يعبران الطريق، قائلًا: «انتظرا! حفل زواج سعيد».

التفتا ولوحا له بيديهما، ثم قالت له جايد: «تذكر دومًا، عليك أن تبحث عن تلك الزهرة التي ستغير حياتك وتجعلها مزدهرة».

29

وجد باكس ابنته أخيرًا.

لم يتمكن في البداية من رؤيتها عبر الرذاذ الكثيف للمياه المتساقطة، كما لم يستطع سماع صرخاتها وسط الضجيج العالي للمياه المتدفقة. واستعصى عليه تمييز رائحتها بين تلك الروائح القوية المختلفة المنبعثة من النهر، بيد أنه تمكن من تحديد مكانها ليس من خلال حواسه الجسدية، ولكن من خلال غريزة أعمق لا يمكن تفسيرها أو تعريفها بسهولة، تلك التي قادته لاكتشاف مكان صغيرته.

كانت هناك شجرة يصل عمرها إلى قرن من الزمان تقريبًا، بيد أن الحشرات الصغيرة قد أضعفتها، وأكلت قلبها وتركتها خاوية، فاقتلعتها العاصفة القوية من موقعها الأصلي، وحملتها مسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر في اتجاه مجرى النهر. وتركتها مغمورة جزئيًّا عند قاعدة منحدرات النهر، حيث أثرت المياه المتدفقة عليها بشكل كبير.

رأى صغيرته عالقة في جذورها المتشابكة.

وقف باكس وسط المياه الضحلة المتدفقة محاولًا الوصول إليها، حيث كانت تتدلى وهي معلقة من كتفها بعيدًا عن متناول يده. ثم أطلق صيحات تحمل مزيجًا من مشاعر الخوف والفرح. بدت الصغيرة لحظة وجيزة أشبه بفرو ضعيف معلق لا حياة فيه، لكنها ما لبثت أن استعادت وعيها فجأة، وفتحت عينيها.

أطلق باكس صيحات أخرى مليئة بالفرح هذه المرة، وحاول باكس تقييم موقعهما ومدى عمق الماء لمعرفة مدى تمكنه من إنقاذ صغيرته من هذا الموقف الصعب. وبعيدًا عن المياه الضحلة، رأى تيار المياه القوي يصطدم بلا هوادة بالصخور الحادة المسننة. ومن ثم أدرك باكس حينئذ أنه إذا فشل في الهبوط في المياه الضحلة بسلام، فسوف يجرفهما التيار القوي بعيدًا.

وبإصرار لا يتزعزع، اتخذ باكس قرارًا حازمًا بألا يخطئ هدفه.

مستجمعًا كل قوته وخفة حركته، قفز باكس وتمكن من الإمساك بشيء ما للحظات. ما مكنه من إنقاذ صغيرته. ثم نزل إلى المياه الضحلة بأمان ممسكًا بها بين فكيه وأخرجها من الماء إلى بر الأمان.

وضعها بلطف في منطقة صغيرة مرتفعة مغطاة بالعشب، ولف نفسه حولها مطمئنًا إياها بأنها أصبحت الآن في أمان، وأن الخطر قد زال. ومع أنها كانت مبتلة، تمامًا وتعرج بعض الشيء، لم تكن هناك أي علامة على نزيف، كما بدت أطرافها سليمة.

كل ما أراده باكس في تلك اللحظة هو إعادة الصغيرة إلى جحرهم؛ حيث سيغلفها دفء المكان وستهدئها رفقة أخويها، ووجود أمها معها سيخفف من حدة ارتعاشها. كما ستحيطها بريسل بحمايتها القوية، وتمنحها من قوتها وشجاعتها ما يجعلها تتغلب على محنتها.

وكان وجود بريسل من شأنه أن يهدئ باكس أيضًا؛ لقد اشتاق إليها، فمنذ أن التقيا، لم يقضِ هذا الوقت الطويل بعيدًا عنها. لكن الطريق إلى المنزل كان محفوفًا بالمخاطر، حتى

لو سلم من أي منها في رحلة عودته إلى المنزل، فإن الطريق وحده سيكون شاقًّا للغاية بالنسبة له ولصغيرته خاصة بعد أن تملكهما الإرهاق والتعب.

ولم تكن هناك إمكانية لعودته إلى المنزل في تلك اللحظة، لذا كان على باكس أن يجد مأوى لهما على الفور في المكان الذي يوجدان فيه في الوقت الحالي.

كان باكس يعرف مأوى جيدًا يمكنه المكوث فيه مع ابنته.

يقع هذا المأوى على مسافة قصيرة للغاية من مكان وجودهما الحالي فوق ضفة النهر مباشرة. وكان عبارة عن شجرة شوكران تمتد فروعها حتى الأرض، ما يصنع منطقة مغطاة تشبه الكهف، تمتلئ برائحة شجر الصنوبر، حيث احتمى باكس ذات مرة مع الثعلب العجوز جراي. وعلى الرغم من إضاءتها الخافتة، كانت جيدة التهوية، ذات أرضية ناعمة مكونة من ورق شجر الصنوبر ذي الرائحة النفاذة التي يمكنها المساعدة على إخفاء رائحة باكس وابنته عن الحيوانات المفترسة المحتملة.

قبل أن يأخذها إلى داخل المأوى، لعق فروها بلسانه حتى يجف ووضعها في منطقة مُشمسة للتدفئة. ثم دار حول المنطقة بحذر لفحصها جيدًا بحثًا عن أي علامات خطر، لكنه لم يجد أي شيء، بيد أنه لاحظ شيئًا آخر، وهو أنه لأول مرة منذ وصوله إلى النهر، لم يشم رائحة صديقه بيتر، يبدو أن رحلته قد انتهت عند حافة المنحدرات.

عاد باكس سريعًا إلى ابنته وحملها برفق إلى المأوى الآمن أسفل أغصان شجرة الشوكران. ووضعها بالقرب من الجذع القوي، واستلقى بجانبها، وظل يقظًا ومنتبهًا لكل حركة تقوم بها. حتى بعد أن استغرقت في النوم، ظل يقظًا، واستمر في مراقبة تنفسها حتى يتأكد من أنها على ما يرام، وما إن اطمأن عليها حتى أراح رأسه بلطف فوق رأسها وأغلق عينيه أخيرًا.

وبعد أن تأكد من سلامة ابنته، شعر باكس ببعض الألم، واكتشف أنه قد أصيب، حيث شعر بألم طفيف في كتفه، وفخذه، وساقه الخلفية اليمنى، بالإضافة إلى ألم حاد في جانبه، كلما أخذ نفسًا عميقًا.

أصدرت الصغيرة أنَّات بسيطة أثناء نومها، واندفعت نحو صدر باكس. وعندئذ أدرك أنه سيفعل أي شيء وسيبذل قصارى جهده من أجل رعايتها وسلامتها.

30

وجد بيتر مفتاح الباب الأمامي في مكانه المعتاد، واستخدمه للدخول. ثم توجَّه نحو نافذة غرفة المعيشة، وأزاح الستائر، وتوقف مشدوهًا بضع لحظات.

بدا كل شيء كما هو تمامًا دون تغير سوى ذاك الغبار الذي اعتلى جميع الأسطح والأشياء. لكن على الرغم من ذلك، كان هناك شيء مختلف أو غير مألوف بالنسبة له. واجه بيتر إحساسًا مزعجًا مشابهًا عندما استكشف المطبخ. وبدا الأمر كأن شخصًا ما بذل جهدًا لإعادة تصميم منزله، لكنه ارتكب بعض الأخطاء الملحوظة.

شعر بحنين جارف، وسيل من الذكريات يجتاحه. وقف واضعًا يديه على المنضدة في محاولة لاستعادة رباطة جأشه، ثم أخذ عدة أنفاس عميقة. وأكد لنفسه أن هذه الأشياء ما هي إلا مجرد ممتلكات مادية بما تشتمل عليه من خزانات وأوانٍ وآرائك. ردد في قرارة نفسه إنها مجرد أشياء. كانت حقيقة أن والديه الراحلين استخدماها عندما كانا على قيد الحياة، هي التي أوجدت مشاعر حزن وحنين داخله. ربما لم يعد يشعر بأنه منزله المألوف المعتاد، وربما لم يعد يناسبه، على عكس ذلك الكوخ الذي بناه بنفسه بجوار منزل فولا، لكن عليه أن يتقبل الآن أن هذا هو منزله ومستقره.

غادر المطبخ، ودخل إلى الجزء الخلفي من الصالة، حيث لاحظ أن باب غرفة والده مفتوح جزئيًّا، فأغلقه سريعًا دون أن ينظر إلى الداخل.

الغرفة التالية كانت غرفته الخاصة. ظن أنه سيجد الراحة في هذا المكان، فدائمًا ما كانت غرفته تعتبر ملاذًا آمنًا له. لكن عندما فتح الباب شعر بحزن شديد لما فقده من أشياء مهمة منذ آخر مرة دخل فيها هذا المكان. ولم يقتصر هذا الشعور بالخسارة على الممتلكات المادية، بل شمل أيضًا الجوانب غير الملموسة، مثل الذكريات والعواطف والعلاقات.

حاول بيتر طمأنة نفسه قائلًا إنها مجرد غرفة. وعلى الرغم من أي اضطراب عاطفي قد يشعر به، دخل الغرفة وواجه كل ما كان ينتظره في الداخل.

في زاوية الغرفة كانت توجد ألعاب باكس العزيزة، الموضوعة على البطانية التي كان يستريح عليها غالبًا أثناء القيلولة. وبينما كان طوقه مُلقى عند حافة النافذة. لاحظ بيتر متعلقاته الخاصة أيضًا من جوائز البيسبول المرتبة بعناية على المكتب، إلى جانب ساعة نادرًا ما كان يرتديها، وقبعة نادرًا ما كانت تترك رأسه. كانت هناك ذكريات لأحداث سابقة مبعثرة في كل مكان: بقايا تذاكر مباريات البيسبول الموضوعة في زاوية المرآة، والإشعارات المدرسية المجعدة والمتناثرة على الأرض. وأخيرًا، كان هناك كوب يحتوي على عصير برتقال تناوله في صباح ذلك اليوم الأخير من الربيع الماضي، وقد جف وشكَّل قرصًا بنيًّا في أسفل الكوب، كان هذا الكوب موضوعًا بجوار مصباحه القديم الذي يشبه في تصميمه السفينة الفضائية.

تعود معظم هذه الأشياء إلى الفترة التي كان فيها بيتر مجرد طفل عادي غير مدرك تعقيدات الحياة، حيث كان يظن أن فقدان الأم هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث له.

فتح أدراج خزانته، ثم أغلقها بقوة مرة أخرى، وهو يشعر بالإحباط من رؤية تلك الملابس التي كان يرتديها عندما كان مجرد طفل ساذج أحمق.

استلقى بيتر على سريره، وطوَّق صدره بذراعيه بقوة باحثًا عن العزاء في مساحته الخاصة، شعر بأن ذراعيه هما الشيء الوحيد الذي يحتضن قلبه ويمنعه من الانهيار.

عندما توفيت والدته، جمع والده كل ممتلكاتها الخاصة في المنزل ليتخلص منها، تبعه بيتر، لكنه كان في حيرة من أمره لرغبة والده في التخلص من كل هذه الأشياء. ومع ذلك، فهم الآن هذا الشعور. لقد فهم تصرفات والده تمامًا.

ربما عليه أن يقيم محرقة هائلة ويلقي فيها بكل تلك الأشياء التي تذكره بذكرياته الأليمة من حياته السابقة.

غادر بيتر غرفته، واتجه إلى الفناء الخلفي. وفكر في إشعال نار ضخمة هناك في الخارج لإحراق ما يريد حرقه من الأغراض. جمع الفروع الميتة التي خلفتها العواصف الشتوية، وشكل قاعدة لإشعال النار، ثم جمع القش للمساعدة على تأجيجها. وبدأ جمع أمتعته وأغراضه استعدادًا للمضي قدمًا في خطته.

فتش بيتر السقيفة، ووجد بالفعل على الرف العلوي، علبة تحتوي على سائل قابل للاشتعال يستخدم عادة في إشعال النيران. فتناولها، ما تسبب في سقوط سكين على الأرض محدثًا صوت ارتطام قويًّا.

التقط السكين على الفور، ولاحظ أنها مطابقة تقريبًا لتلك السكين التي منحته إياها فولا، تلك التي يحملها في حقيبة ظهره الآن. تمنى لحظة أن يريها هذه السكين، وأن يسأل والده عن مصدر سكينه هذه، ولماذا لم يرها من قبل. لكنه آثر أن ينحي هذه الأفكار جانبًا.

فتح نصل السكين، ولاحظ أنه يحتوي على حفر صغيرة، كما أنه قد فقد حدته بمرور الوقت. لكن السكين كانت لا تزال جميلة مع ذلك. كما أقر بأنه يحب تلك السكين التي منحته إياها فولا.

كانت هي السكين ذاتها التي استخدمها في رحلته العام الماضي، وهي التي استخدمها كذلك في عمل ندبة على ربلة ساقه لتكون وعدًا يقطعه على نفسه بضرورة العثور على باكس. وكانت هذه الندبة لا تزال موجودة، حتى إنه في بعض الأحيان كان يشعر بحكة بالقرب من مكانها، ويفحصه بشكل غريزي متوقعًا أن يجد بعوضة سببت له هذا الإحساس، لكنه عندما يتحقق من الأمر لا يجد سوى تلك الندبة التي تمثل تذكيرًا دائمًا له بوعده تجاه صديقه القديم باكس.

فكر في أنه لا بد له من أن يتوقف عن تذكر مثل هذه الأمور الآن.

أغلق بيتر السكين، وعلى الفور، وفي تلك السقيفة ذات الإضاءة الخافتة مارس التمرين الذهني المعتاد الذي لجأ إليه دائمًا للتخفيف من حدة ذكرياته المؤلمة المتعلقة بتخليه عن باكس. فتصور نفسه يقوم ثلاث مرات بإسقاط صخرة عند مدخل جحر باكس، ويتركه مغادرًا.

بيد أن ذكرى ذلك الوعد الذي قطعه على نفسه كانت قوية للغاية، وعالقة في ذهنه، حتى إن ذلك التمرين الذهني الذي كان يمارسه لمساعدته على نسيان ما حدث لم يكن مجديًا في محو هذه الذكرى،
أو التغلب على آثرها في نفسه. وما زاد الطين بلة هو وجوده الآن بين جنبات ذلك المنزل الذي شهد العديد من ذكرياته مع باكس.

أدرك بيتر ما يجب عليه القيام به هذه المرة، لا بد أن يمارس التمرين الذهني المعتاد ولكن بمشهد ختامي مختلف، لطالما تجنب تصوره في كل مرة بسبب جبنه. وهو ذلك الإجراء الذي نصحه والده بالقيام به عندما وجد باكس في البداية. فقد أشار عليه بإنهاء معاناة الثعلب بطريقة سريعة وحاسمة من خلال قنصه بالبندقية، لكن بيتر كان مجرد طفل في السابعة من عمره في ذلك الوقت، لذا لم يتمكن من القيام بذلك. ربما كانت لديه القوة آنذاك لإسقاط حجر ثقيل مباشرة على الثعلب فينهي حياته بشكل رحيم إلى حد ما.

شعر بيتر بالاشمئزاز الشديد في المرة الأولى لمحاولته ممارسة هذا التمرين الذهني بالمشهد الختامي الجديد الذي قرر تخيله، لكنه حاول التخلص من هذا الشعور المقيت، وعض على أسنانه محاولًا القيام بالأمر مرة أخرى. وحث نفسه قائلًا هيا، افعل ذلك، لا تتردد.

كفكف الدمع من عينيه، وحاول القيام بالأمر للمرة الثالثة.

لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافيًا.

فكما قالت له جايد ذات مرة إن هناك عقبات في الحياة يجب على المرء عدم محاولة تجنبها، بل عليه مواجهتها والتغلب عليها.

في تلك اللحظة، أدرك بيتر بوضوح ما يجب عليه القيام به، وهو ما يعني العودة إلى المكان المرتبط لديه بالذكريات السيئة، أي المصنع القديم. بل يجب عليه بالتحديد الوقوف عند النقطة التي ترك باكس عندها، وتلك التي ودع والده عندها أيضًا. لذا قرر أن يقضي ليلته في المنزل، ثم يذهب في صباح الغد إلى المصنع، ويسمح لنفسه بالاستغراق في مشاعر الحزن والخسارة بشكل كامل حتى يتخلص منها تمامًا. عندها فقط يمكنه أن يبدأ من جديد.

31

استلقى باكس تحت شجرة الشوكران وهو يحتضن صغيرته بإحكام. وكان يشعر بالألم مع كل حركة. كما شعر من أنات ابنته الخافتة بأنها هي الأخرى تعاني بعض الآلام.

كان الوقت وبعض الراحة كفيلين بتخفيف تلك الآلام. ومن المفترض أن تكون رحلتهما التالية نحو الغرب إلى الوادي الفسيح قبل أن يتجها شمالًا في طريق عودتهما نحو بريسل في حال أخمدت تلك النيران التي أشعلها البشر. وقد خطط باكس للبقاء في موقعهما هذا حتى يتعافيا تمامًا، فلا يتحركان إلا للضرورة، مثل الشرب من النهر القريب لإرواء عطشهما، أما بخلاف ذلك، قد قرر البقاء في مكانهما للحفاظ على طاقتهما حتى تُشفى جروحهما.

أصبحت الصغيرة مضطربة للغاية، وغير قادرة على إيجاد الراحة على الرغم من محاولات أبيها تهدئتها. كانت ترتعش وتتلوى ما سبب لها ألمًا إضافيًا. ونتيجة ذلك، أصبحت متوترة بشكل متزايد، ما جعل من الصعب على باكس طمأنتها، أو صرف انتباهها عما تعانيه.

تعرَّف باكس فجأة على المكان الذي كانا فيه، وقال على الفور إننا قريبان للغاية من المكان الذي عشت فيه مع صديقي القديم.

هدأت الصغيرة قليلًا، ثم سألت والدها سعيًا للطمأنينة ألا يشكل خطرًا علينا؟

أجابها والدها لا، ليس خطرًا على الإطلاق، لقد عشت معه في منزله طويلًا.

وهنا ثار فضولها وسألته هل يعيش في جحر، مثل الثعالب؟

أوضح لها باكس الأمر قائلًا لا، ليس بالمفهوم المعتاد للجحر الذي تعيش فيه الثعالب، وإنما هو عبارة عن مأوى فوق الأرض. ثم استمر في وصف المنزل مشبهًا إياه بالصندوق الضخم الذي يحتوي على حجرات صغيرة داخله، بالإضافة إلى جدرانه الصلبة وأرضياته الملساء الزلقة.

فسألته أليست مصنوعة من التراب وممتلئة به كما في جحورنا؟

أجابها والدها لا ليست مصنوعة من التراب. وشعرت بالذهول عندما أخبرها بأن البشر يستخدمون المكانس لتنظيف هذه المنازل وإزالة الأتربة عنها. كما اندهشت أيضًا من استمرار هذه المنازل وبقائها على حالها، على عكس جحور الثعالب التي تتغير بتغير المواسم، وتحركاتها من مكان إلى آخر. وفوجئت من قدرة البشر على جعل منازلهم مأوى لهم ليلًا ونهارًا بغض النظر عن الظروف الجوية وتقلبات الطقس.

سألته مجددًا في محاولة لاستيضاح الأمر أكثر ألا تشبه جحور الثعالب بأي شكل من الأشكال؟

أجابها لا، إنها لا تشبه جحور الثعالب على الإطلاق. هذا بالإضافة إلى أنهم يستريحون، ويلعبون ويطهون الطعام داخلها أيضًا.

فسألته مجددًا وهل يصطادون فرائسهم داخل منازلهم العجيبة هذه؟

أجابها باكس إنهم لا يصطادون الفرائس. وكان هذا الأمر محيرًا أيضًا بالنسبة له. فلم يكن البشر يصطادون الفرائس، ولا يجمعون الفواكه والخضراوات من مصادرها الرئيسية مثل

الأشجار أو الأرض، وإنما يحصلون عليها بطرق ليست واضحة بالنسبة لباكس نفسه.

اقتربت الصغيرة أكثر من والدها، وأعربت عن رغبتها في الاستماع مرة أخرى لكيفية عيش والدها مع البشر من قبل.

وروى باكس لها قصة إنقاذه، وكيفية انتقاله من مكان لآخر.

فسألته هل كنت تشعر بالخوف آنذاك؟

فكر باكس مليًا، ثم أجاب لم أكن خائفًا عندما أخذني من جحري إلى منزله واعتنى بي جيدًا، لكنني شعرت بالخوف مرارًا وتكرارًا بعد ذلك.

لذا هربت منه؟

خفض باكس رأسه ليضعه بلطف على رأس ابنته، وأحاطها بجسده مقتربًا منها بشدة، حتى إن نبضات قلبه القوية كانت تتردد داخل جسدها، ثم قال لها لم أكن خائفًا قط من أن يؤذيني صديقي. فبعد أن أحببته كثيرًا، شعرت بالقلق من احتمال تعرضه للأذى أو ابتعاده عني.

سألته هل يمكنك أن تحب بشريًا؟

أجابها نعم.

وهل يتسبب ذلك في شعورك بالخوف عليه؟

أكد لها باكس كلامه قائلًا نعم، بعد أن نحب، نصبح خائفين على من نحب، وهو الأمر الذي ينطبق على جميع الكائنات الحية، بما فيها الثعالب.

32

عادت ذكرياته القديمة متجسدة أمامه وهو في طريقه نحو المصنع القديم، حيث تذكر صيحات أصدقائه وهم يشجعون بعضهم بعضًا على الاقتراب من كلبي الحراسة الشرسين المقيدين بالسلاسل لدى مرورهم في مكان وجودهما المعتاد. وعندما وصل إلى الممر المؤدي إلى المنزل ذي السقف البارز شديد الانحدار، الذي كان مهجورًا قبل فترة طويلة من الحرب، تخيل سماع أصوات أصدقائه وهو معهم يرددون عبارتهم المألوفة نحن لا نؤمن بالسحرة! كما شعر بدافع غريزي لفحص جيوبه بحثًا عن تفاحة عند مروره بالسياج المصنوع من القضبان الخشبية المرصوصة جنبًا إلى جنب، حيث اعتاد الحصان الرمادي المرقط اللطيف الانتظار هناك.

وما إن وطئت رجلاه الغابة، التي بدت كما هي دون تغيير مثلما كانت عليه تمامًا قبل الحرب، حتى اندفع نحوه سيل من الذكريات، واستبد به حنين شديد. وتعرف على معالم مألوفة هناك مثل شجرة الجوز الأسود التي اعتاد هو وأصدقاؤه تسلقها حتى قمتها، وقد نحتوا على لحائها الحروف الأولى من أسمائهم. كما كانت هناك شجرة صنوبر طويلة، يلتزم بيتر لدى مروره بها بالصمت التام؛ حيث يقع خلفها وادٍ صغير تتفتح فيه زهور من نوع

نادر، وتحديدًا في شهر مارس، وقد أمرته والدته بألا يخبر أي شخص بهذا الأمر على الإطلاق.

كانت هذه الذكريات التي طرأت على ذهنه مجرد مقتطفات من حياته. فأين ذهبت كل هذه اللحظات، وماذا حل بالأولاد الذين كان يعرفهم، الذين تشتتوا بفعل الحرب والمياه الملوثة؟ تُرى هل سيعود أي منهم إلى مدينتهم المهجورة مرة أخرى؟

خرج بيتر دون أن ينتبه من ذلك المسار الذي تحده الأشجار، ورأى على مرمى بصره المصنع القديم والتلال أعلاه، وردد بصوت عالٍ قائلًا: «لقد قالت لي جايد إنني شجاع بما يكفي لخوض هذا الأمر».

ربما كان كذلك حقًّا، لكنه كان بحاجة إلى بضع لحظات لاستعادة رباطة جأشه. وفي تلك اللحظة حوَّل نظره نحو النهر.

وكان أول ما لاحظه أن النهر قد فاض على ضفتيه، حتى غمرت المياه ما مساحته ثلاثة أمتار على جانبيه. بل خمن أن عرضه قد يصل إلى خمسة عشر مترًا في معظم المناطق بسبب الفيضان، وقد يكون أكثر اتساعًا في مناطق أخرى، حيث يصل عرضه إلى ثمانية عشر مترًا.

كان سطح المياه أملس متلألئًا بشكل لا يصدق أشبه بلوح زجاجي، وكان هادئًا باستثناء تيار سريع متعرج يمر في منتصف النهر. وكانت المياه تتلألأ باللون الأزرق عاكسة لون السماء. وقد بدت المياه نقية ما جعل من الصعب عليه تصديق كلام جايد بأن المواد السامة قد تسربت إلى مياهه نتيجة الحرب التي دارت في المنطقة.

وجه بيتر نظره نحو المنبع، فلاحظ أن المياه تتدفق فوق منحدرات النهر، لكنها كانت أهدأ مما كانت عليه من قبل. هبطت المياه المتدفقة بقوة مكونة بركًا عميقة لدى وصولها إلى القاع. وكان بيتر على معرفة وثيقة بتلك البرك، حيث غامر باكتشافها من تحت السطح، كما

رأى السماء وهو يسبح فيها، ما شكل منظرًا فريدًا وآسرًا. لكنه كثيرًا ما وجد منظر السماء من خلال تلك الأعماق مربكًا، ومهدئًا في الوقت ذاته كأن الوقت قد منحه مزيدًا من الألفة واعتياد هذا المنظر.

رأى شجرة بلوط كبيرة هامدة عالقة في العجلة الخشبية الكبيرة المعطلة والمثبتة أمام المصنع القديم. وقد بدت جذور الشجرة مغمورة جزئيًا فبدا الجزء المكشوف منها أشبه بالأيدي المرفوعة تضرعًا في الصلاة. وعلى الجانب الآخر من النهر، تعرف بيتر على الصخرة نفسها التي عثر عندها على بقايا ثعلب ميت منذ نحو عام. لقد انتابه قلق شديد في تلك اللحظة خوفًا من أن يكون ذاك الثعلب هو باكس، صديقه العزيز.

على بعد مسافة قصيرة من تلك الصخرة، كانت توجد شجرة شوكران ضخمة، تمتد فروعها على مستوى منخفض من الأرض، وتغطي مساحة يبلغ قطرها نحو ثمانية أمتار. وعندما كان بيتر أصغر سنًا، اعتاد هو وأصدقاؤه السباحة عبر النهر، واللعب حول شجرة الشوكران تلك، متخذين من المساحة الموجودة تحت أغصانها المنخفضة مخبأ سريًا لهم. لكنه لم يعد طفلًا بعد، فقد ولت أيام الطفولة الجميلة منذ وقت طويل.

وبينما وجه نظره نحو المصنع القديم، لاحظ أن المرج المؤدي إليه يبدو حيويًا ونابضًا بالحياة بشكل ملحوظ، حيث تفتحت الزهور من قمة النباتات الطويلة فمنحتها شكلًا جماليًا رائعًا، كما ظهرت الزهور أيضًا من بين شقوق الحواف الصخرية، فبدت مثل بتلات الأمل النابتة في أرض اليأس. وهنا تذكر دروس والدته له عن أنواع الزهور والنباتات، فتعرف على العديد منها حيث تنتشر في المنطقة زهور، مثل الجريس، وزهرة الأنقولية والزهرة البيضاء الناصعة المعروفة باسم زهرة الجذور الدموية، وعند تفكيره في اسمها، تأكد تمامًا أنه مناسب لها حقًا، فبغض النظر عن العصارة الحمراء التي تخرج من جذورها عند قطعها، تنبت حقًا في هذه الأرض المخضبة بالدماء.

بدأ بيتر الصعود اتجاه المصنع، ومر بالمكان الذي تقدم فيه والده إليه لتحيته. وواصل الصعود دون توقف حتى وصل إلى داخل الأسوار المتداعية للمصنع، حيث كانت قد نصبت

خيام تابعة للقوات العسكرية. ودخل بيتر ووالده إحدى هذه الخيام، واستقرا على سريره خلال يومهما الأخير معًا. وانخرطا حينها في محادثة طويلة، حتى إنهما تعمقا في موضوعات لم يناقشاها من قبل.

وصل إلى مكان ما حيث يتذكر أن سرير والده كان موجودًا فيه، وجلس هناك بالفعل.

كان الجزء الأكبر من حديث والده في ذلك اليوم عبارة عن اعتذارات وتعبير عن الندم. لقد أعرب عن ندمه عن أشياء كثيرة، ما أصاب بيتر بدهشة كبيرة، حتى إنه لم يسمع أو يستوعب العديد من تلك الأشياء، لكنه سمع آخر اعتذارًا جيدًا، حيث قال له والده: «أعتذر عن إجباري لك على ترك ثعلبك وحيدًا على جانب الطريق في مكان غير آمن. لا بد أنه كان هناك حل أفضل من ذلك كثيرًا».

ردًّا على ذلك، أخبر بيتر والده بأنه وجد بالفعل باكس مرة أخرى على التلال، وأطلق سراحه بنفسه، وهذا كان صحيحًا. ومع ذلك، قال كذبًا: «لا بأس بأن جعلتني أفعل ذلك، فأنا لست حزينًا».

استجمع بيتر شجاعته، وأخبر والده بذلك القرار الحاسم الذي اتخذه وهو عدم العودة إلى منزل جده. وأخبره بأنه وجد مكانًا آخر شعر فيه بإحساس أقوى بالانتماء، وأراد الإقامة فيه حتى نهاية الحرب، وقال: «صحيح أن هذه السيدة ليست من العائلة، لكنني أشعر معها بالراحة والألفة».

لكن ما أثار اندهاشه أن والده لم يغضب، بل قال له: «حسنًا، إذا كنت تشعر بالراحة والأمان معها، فهي من عائلتك بكل تأكيد».

بدت كلمات والده مألوفة بالنسبة له، كأنه سمعها من شخص آخر من قبل، لكن بيتر لم يستطع أن يتذكر تمامًا ممن سمعها وأين. ولم تتح له الفرصة للتفكير في هذا الأمر؛ حيث

استرسل والده في الحديث ووعده بأن الأمور ستتغير بمجرد انتهاء الحرب، وقال له أخيرًا: «أعدك بأن أكون أبًا أفضل».

رد بيتر دون تفكير: «لقد كنت أبًا رائعًا بالفعل». وقد عكس كلامه هذا مجرد جزء من الحقيقية، فعلاقتهما كانت معقدة للغاية.

ظل يتذكر وجه والده في ذلك اليوم بوضوح تام: الشعر القصير المعروف في العسكرية، والذقن الحليق، وعيناه المتوسلتان طلبًا للمغفرة، وقد أشرقتا بارتياح عند سماع كلمات بيتر. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأى فيها أباه. وشعر بارتياح كبير لأن آخر لقاء بينهما انتهى وقد رأى والده متهلل الأسارير كأنه قد نال العفو من بيتر عن أي خطأ ارتكبه في حقه.

نهض بيتر على رجليه وصعد ما تبقى من التل حتى وصل إلى القمة، حيث توجد سلسلة من الأشجار المصطفة. ومن هناك، شرع في الصعود إلى المنطقة التي قاده إليها باكس من قبل.

في هذا المكان بالتحديد، طارد بيتر اثنين من الذئاب البرية كانا قد حاصرا ثعلبًا آخر محاولين اصطياده. وفي هذا المكان أطلق سراح باكس مرة أخرى في البرية.

جلس بيتر تحت شجرة الصمغ الحلو التي تقع في وسط المنطقة.

وأخذ يفكر في أي من اللقاءين الأخيرين كانا الأصعب بالنسبة له؟ هل كان اللقاء الأخير مع والده على الرغم من عدم علمه أنه لقاؤهما الأخير؟ أم توديع باكس مدركًا تمامًا أنه كان وداعهما الأخير؟

نظر نحو حلقة أشجار العرعر التي تحيط بالمنطقة المفتوحة التي كان يجلس فيها، وحدد الموقع الدقيق الذي ألقى فيه دمية الجندي إلى باكس لالتقاطها والعودة بها، لكنه شعر هذه المرة بأن باكس قد فهم أفعاله. ومنذ ذلك اليوم، تساءل عما إذا كان قد اتخذ القرار

الصحيح، حين أطلق باكس في البرية القاسية. ومع أنه ينتمي إليها في الأساس، فإنه لم يكن مستعدًّا لذلك خاصة بصحبة زوجة ضعيفة مريضة محروقة الذيل.

تمنى فقط في هذه اللحظة لو يتأكد ما إذا كان باكس آمنًا وبصحة جيدة.

مسح بيتر دموعه، وشعر بأنه قد اجتر ما يكفي من ذكريات خلال يوم واحد. لقد سمح لنفسه بالتعمق في الحزن، وربما اتخذ بعض الخطوات نحو تجاوزه. لقد كان يتوق لمناقشة ما فعله مع جايد، بل إنه تخيلها تقريبًا وهي تقف هناك مشيرة نحو النهر، بينما تذكر استعاراتها الرائعة عن المياه.

وعندما بدأ النزول إلى أسفل التل، وفي منتصف الطريق تقريبًا، حيث كان على وشك الانعطاف إلى الطريق المؤدي إلى المنزل، لاحظ عبر النهر وميضًا لشيء ذي لون بني مائل إلى الحمرة، وهو اللون الذي دائمًا ما استحوذ على انتباهه.

وتمكن من رؤية ثعلب يجلس بجانب صخرة تحت شجرة الشوكران القديمة. بدا ثعلبًا بالغًا، ومن المحتمل أنه ذكر. كان بصحة جيدة، وأخذ يراقب بيتر باهتمام.

وقف الثعلب على مسافة بعيدة للغاية جعلت من المستحيل على بيتر فحص ملامحه من كثب للتأكد مما إذا كان باكس أم لا. فلم يتمكن مثلًا من تمييز لونه المحدد، أو ذاك القطع الموجود في أذنه اليسرى. كما لم يتمكن من الشعور بالملمس المألوف لفروه الناعم بين أصابعه،
أو الرائحة المميزة لشجر البلوط التي كثيرًا ما جلبها إلى داخل المنزل. ولم يتمكن كذلك من سماع همهمته التي تنم عن شعوره بالاسترخاء والهدوء، ولا صيحة التحية المبهجة التي يصدرها. فكل هذه الأشياء هي التي كانت تميز باكس، لكنه مع ذلك كله، عرف بشكل غريزي، على مستوى أعمق من مجرد الحواس، أن الثعلب الذي أمامه هو باكس نفسه.

ثم بدأ يركض دون أن يفكر في كون تصرفه قد يبدو متهورًا أو غير عقلاني، وأخذ يصرخ قائلًا: «باكس! انتظر!».

33

تعرف باكس على صديقة القديم على الرغم من التغيرات التي طرأت على صوته ومظهره، حيث أصبح صوته خشنًا بعض الشيء، وقامته أطول، لكنه كان يعرف صديقه معرفة لا يؤثر فيها مرور الأيام ولا تقلبات الدهر.

صاح باكس وأسرع نحو ضفة النهر بينما نزل بيتر مسرعًا أسفل التل على الجانب الآخر من النهر.

وبينما كان باكس على وشك القفز في النهر من أجل العبور إلى صديقه، سمع صرخة خوف أطلقتها صغيرته، فألقى نظرة أخرى على بيتر، ثم أسرع عائدًا إلى ابنته تحت شجرة الشوكران.

كانت ابنته مرعوبة للغاية؛ إذ استيقظت على صيحات عالية لإنسان، ووجدت نفسها وحيدة. بيد أن وجود أبيها بجانبها جعلها تشعر ببعض الراحة، لكن ما إن نادى بيتر مرة أخرى حتى أصابها الخوف مجددًا.

حاول باكس تهدئتها قائلًا إنه صديقي، ولا يشكل أي خطر على الإطلاق. سأعبر النهر لرؤيته أثناء نومك. فلا تقلقي.

فما كان منها إلا أن اقتربت منه أكثر تعبيرًا عن خوفها ورغبتها في وجوده بجانبها.

قال لها باكس لا تقلقي، فلن تكوني بمفردك حتى أثناء لقائي بصديقي. سأظل أتفقدك من بعيد للاطمئنان عليكِ.

لكن عندما صاح بيتر مرة أخرى، بدا التوتر جليًّا على الصغيرة.

قادها باكس نحو حافة شجرة الشوكران، وقال لها يمكنك أن تراقبيني من الشاطئ حتى تطمئني.

لكن الصغيرة لم تكن ترغب في الابتعاد عن المأوى الخاص بهما. عضت ساقها اليسرى الخلفية التي كانت ترتعش بشدة، ثم قضت حاجتها، حيث تبولت، بيد أن الكمية كانت قليلة للغاية ما يدل على قلقها الشديد. وزحفت عائدة نحو مخبئهما، وتمددت على أرضيته المفروشة بأوراق الصنوبر الناعمة، وأخذت تنظف ذيلها. ثم لفته حول خطمها.

استلقى باكس بجوار ابنته، حيث أصبحت صيحات بيتر أقل تكرارًا تدريجيًّا حتى توقفت في النهاية. ثم أغمضت الصغيرة عينيها، وانتظر باكس حتى اطمأن إلى أنها قد استغرقت في النوم، ثم عاد إلى ضفة النهر بحثًا عن بيتر.

لكن بيتر كان قد رحل بالفعل.

وفي اليوم التالي، وما إن غطت الصغيرة في نوم عميق في الصباح، عبر باكس النهر. وشق طريقه نحو آخر مكان رأى فيه بيتر، وبالتحديد في منتصف الطريق أسفل المنحدر بين المصنع القديم والنهر، واستقر هناك. لقد كانت الشمس مشرقة، والهواء لطيفًا، وقد سمح له

النسيم الآتي من الغرب بالتعرف على أي تهديدات محتملة لسلامة ابنته. وانتظر قدوم بيتر هناك بصبر.

وسرعان ما ظهر بيتر من الطريق المحاط بالأشجار.

ومن ثم ارتجف باكس من البهجة، ثم وثب واندفع نحوه، وهو يصيح فرحًا. حك باكس خده في ساق بيتر ساعيًا لتجديد أواصر المحبة فيما بينهما. وبينما جثا بيتر على ركبتيه واحتضن باكس في عناق حار، رد باكس بالضغط بقوة على صدر صديقه، وشعر بإيقاع نبضات قلبه المألوفة بالنسبة له. ثم فحص باكس صديقه بيتر من كثب، واطمأن إلى أنه بصحة جيدة.

وبعد أن تبادلا العناق، شاركا في أنشطة مرحة معًا؛ حيث لعبا ألعابهما المألوفة التي مارساها دائمًا، مثل لعبة الجري والسقوط، والمصارعة، ولعبة الغميضة، وكل الألعاب القديمة التي كانا يلعبانها معًا، وشعر كلاهما بفرحة غامرة.

لكن حدث أمر غير مألوف، حيث كان بيتر يلهث من الركض، وسرعان ما روى ظمأه بتناول بعض الماء من إبريق معه، ثم سكب بعض الماء في راحة يده ومدها نحو باكس، وحثه على الشرب، بينما اعترت صوته نبرة قلقة بعض الشيء. لكن باكس رفض تناول الماء في البداية، ما أثار انزعاج بيتر. لكنه استمر في سكب الماء في راحة يده وتقديمه إلى باكس حتى تناول باكس أخيرًا بعضًا منه.

بعد ذلك تمددا أحدهما جانب الآخر على المرج الأخضر، حيث استلقى بيتر على بطنه واضعًا ذقنه على قبضتي يديه، بينما وضع باكس قائمتيه الأماميتين تحت صدره. وغلفت أشعة الشمس اللطيفة ظهريهما، بينما استنشقا الهواء المنعش الذي يحمل رائحة العشب اللطيفة ما جعلهما يشعران بالهدوء والاسترخاء. أبقى كل منهما رأسه متجهًا نحو النهر، بيد أنهما كانا يركزان انتباههما على شيء مختلف، حيث ثبت بيتر نظره نحو النهر محاولًا فهم

حركته، بينما ظل باكس يقظًا، يراقب شجرة الشوكران التي تقع فوق ضفة النهر مباشرة، حيث تنام صغيرته بسلام.

كان بيتر يزيل بين الحين والآخر أوراق شجر الصنوبر من فرو باكس الذي أحب كثيرًا هذه اللفتة التي تدل على اعتناء صديقه به، ولم تكن لتصدر إلا من بريسل. كما كان يمد يده ليحك أذني باكس وهي متعة بسيطة افتقدها باكس منذ عام. ذرف بيتر الدموع بشكل غير متوقع، لكنه مسحها سريعًا قبل أن تستقر يده على كتفي باكس فترة طويلة. لكن بيتر بدأ التواصل اللفظي أكثر مما اعتاده، معبرًا عن مشاعر مختلفة تتراوح بين السعادة والفرح والحزن والضيق. كان باكس يستجيب له أحيانًا بإصدار بعض الهمهمات والتنهدات الودية، وقتما يرى أن بيتر يرغب في ذلك. أما ما عدا ذلك، فقد كان يلتزم الصمت ويكتفي بالحضور الهادئ.

ظل باكس هادئًا حتى شعر بأن صغيرته قد استيقظت على الجانب الآخر من النهر.

هب باكس واقفًا، وصاح بحماس. ثم انطلق مسرعًا، دون أن ينظر إلى الوراء.

34

في وقت متأخر من الليل، وتحت جنح الظلام، حرَّك بيتر بهدوء مرتبته من سريره، ودفعها عبر النافذة المفتوحة. وكان قد اعتاد القيام بذلك خلال الأيام الأولى لرعايته باكس عندما استقدمه إلى منزله، حيث لم يتمكن من التخلص من قلقه بشأن ترك باكس بمفرده في قفصه في الخارج، لذلك ابتكر هذا الحل المؤقت ليكون قريبًا من رفيقه، حتى لو كان ذلك يعني التضحية براحته. لكن في ذلك الوقت كان عليه أن ينفذ هذه الخطة بمنتهى السرية، مع المخاطرة باحتمالية كشف فعلته في الصباح إن لم يستيقظ في الوقت المناسب. لكنه الليلة دون أي خوف سمح لمرتبته بالارتطام بالشرفة، ثم هبط خلفها، وهو يحمل بطانيته.

استلقى عليها، وأغمض عينيه، لكنه لم يستطع النوم.

كان اليوم مليئًا بلحظات الفرح، خاصة الساعة التي قضاها مع باكس وكانت رائعة بشكل مميز. ومع ذلك، لم تكن الذكريات الجميلة للوقت الذي قضياه معًا هي التي أبقته مستيقظًا. وإنما تفكيره فيما يجب عليه فعله بعد ذلك.

فمن ناحية أصبح يعرف أن باكس على قيد الحياة، ويعيش بشكل جيد في البرية. وقد جلب هذا الإدراك له شعورًا بالارتياح، ما سمح له بالتخلص من عبء الذنب الذي كان يثقل

كاهله. لقد تعلم درسًا قيمًا عن التعلق الشديد، وأدرك المخاطر الكامنة في مثل هذه الروابط العاطفية. وقد قرر عدم تكرار أخطائه السابقة؛ لقد اعترف بأنه من الحماقة العودة إلى النهر غدًا، واستدعاء باكس مرة أخرى، ما قد يؤدي إلى تعرضه لمخاطر التعلق القديمة، لكنه لم يعد أحمق بعد الآن.

ومن ناحية أخرى، على الرغم من ثقل الجدل الدائر في رأسه، لم يستطع بيتر أن ينكر الفرح العميق الذي عاشه خلال الوقت الذي قضاه مع باكس. فقد قدم بيتر اعتذاراته الصادقة لصديقه القديم، وشعر بأن باكس قد غفر له ما بدر منه في السابق. ودائمًا ما أسعده لم شمله بحبيبه وصديقه مرة أخرى، وقد ترك ذلك لديه شعورًا بالرضا والارتياح لم يشعر به منذ وقت طويل.

اتكأ بيتر إلى الخلف، وسمح لنفسه باسترجاع كل دقيقة قضاها مع باكس.

كان بيتر على وشك اتخاذ قرار بعدم الذهاب إلى النهر لكنه لم يقدر على ذلك. وعلى الرغم من اقتناعه بأن الثعلب الذى رآه أمس كان هو باكس، فإن عدم استجابته لنداءاته ومحاولته استدعاءه، وانتظاره مدة نصف ساعة دون أن يجيبه، أو حتى يسرع لمقابلته، جعلته يشك في الأمر. تسلل الشك إليه، ما دفعه إلى التساؤل عما إذا كان قد خدع نفسه باعتقاده أن ما رآه هو صديقه القديم. حتى إنه حاول خلال رحلته إلى النهر خفض سقف توقعاته. وقال لنفسه إنه حتى لو كان الثعلب الذي رآه هو باكس، فليس هناك ما يضمن ظهوره مرة أخرى. وعلاوة على ذلك، اعترف بأن باكس أصبح الآن ثعلبًا بريًّا، وكان من الطبيعي أن يكون حذرًا في التعامل مع البشر، وله الحق في ذلك.

لكن عندما خرج بيتر من الطريق المحاط بالأشجار وجد باكس جالسًا في منتصف الحقول في انتظاره كأنه كان يتوقع وصوله.

اقترب بيتر بحذر، ومد يديه إلى الأسفل مدركًا أن باكس مثله مثل الكلاب يميل إلى شم أيدي الغرباء أولًا قبل أن يقرر الانسحاب أو البقاء. تسارعت نبضات قلبه عندما اقترب منه

باكس. لقد توقع أن يقترب منه بحذر أولًا، ثم يتراجع إلى الخلف ليختبر الوضع، ويقرر ما إذا كان سيقترب منه أكثر أم سيبتعد. لكن ما فاجأ بيتر وغمره بوابل من السعادة أن باكس أسرع إليه مقتربًا منه كأنهما لم ينفصل أي منهما عن الآخر إلا منذ يوم فقط وليس عامًا كاملًا. وبفارغ الصبر، لعق باكس يد بيتر قبل أن يتكئ على فخذه، وهي إشارة واضحة إلى أنه يريد أن يحك بيتر رأسه بلطف. وهذه البادرة الدافئة والمألوفة ملأت بيتر بالفرح والطمأنينة، مؤكدة الرابطة الدائمة بينهما على الرغم من مرور الوقت.

صُدم بيتر من مودة باكس وتسامحه معه، ولم يستطع إلا أن يعبر عن عدم تصديقه لذلك متسائلًا في دهشة: «ماذا؟ هكذا إذن؟ هل غفرت لي بهذه السرعة؟».

فرك باكس خده على سروال بيتر الذي فهم على الفور المغزى من ذلك، وهو أن باكس يعتبره واحدًا من عائلته. لذا بدا جليًّا أنه قد غفر له ما بدر منه من قبل. لقد اختفى فجأة ثقل الذنب وعدم اليقين الذي كان يثقل كاهل بيتر فترة طويلة. فقد جلبت له المغفرة التي تلقاها من باكس ارتياحًا هائلًا، يشبه الشعور بحمل صخور ثقيلة على ظهره مدة عام، فقط لتتحول فجأة إلى هباء منثور كأن لم تكن.

وبينما كان بيتر يتفحص صديقه القديم، كان الثاني منخرطًا في شم رقبته وكتفيه ووجهه، كأنه هو الآخر يفصحه من كثب. بدا بيتر مستمتعًا بسلوك باكس وما يقوم به من حركات، فقال له مداعبًا إياه: «هل تتفحصني لتعرف ما إذا كنت بخير أم لا؟ إنني بخير يا صديقي! فهل تراني أصبحت مختلفًا قليلًا، لأنك أصبحت كذلك أيضًا؟».

كان من الصعب على بيتر أن يحدد بدقة ما الذي تغير في باكس، لكن كان هناك فارق ملحوظ. إذ على الرغم من أن حجمه لم يكبر، فقد بدا أكثر قوة وصلابة، مع فرو أكثر سمكًا وربما أكثر لمعانًا. بدا أن باكس يتمتع بصحة جيدة.

تدفقت دموع الفرح والارتياح من عيني بيتر، وهمس وجبهته تلامس جبهة باكس: «أنا آسف جدًّا لما فعلته، ولكن انظر، إنك بخير».

مارسا معًا ألعابهما القديمة، وما أثار دهشته أن باكس كان يتذكرها جميعًا جيدًا. بعد ذلك شعر بيتر بالعطش، فأخذ بعض رشفات من زجاجته الخاصة، وهنا أدرك فجأة شيئًا ما، وهو أنه إذا كان باكس يعيش بالقرب من هنا، فلا بد أنه قد شرب من المياه الملوثة. ومع أنه قد أصبح بالغًا، لكن هذا لا يمنع من أنه قد يكون عرضة للخطر.

سكب كمية قليلة من الماء في راحة يده، وقدمها لباكس ليشرب، وقال له: «الماء سيئ هنا للغاية، لكن لا تقلق، فسيصبح نقيًّا مرة أخرى بفضل جهود كتيبة محاربي تلوث المياه».

فكر بيتر لحظة في هذا الشعور الرائع الذي غمره كونه جزءًا من جهود تنظيف المياه في المنطقة. وأصبحت هذه الفكرة أكثر أهمية بالنسبة له الآن، لأنها ستعود بالنفع على كائن يهمه وهو صديقه. وتوقع أن تترك هذه التجربة ذكرى إيجابية جديدة متعلقة بباكس، لتحل محل الذكرى الحزينة السابقة التي استهلكت مشاعره.

وظل يسكب الماء في كفه لباكس مرارًا وتكرارًا حتى شعر بأنه قد ارتوى، ولم يعد بحاجة لتناول المزيد.

جلسا ليستريح أحدهما بجوار الآخر، والنهر يتدفق أمامهما في هدوء وسلام، بصوته الهامس الناعم. تفحص بيتر النهر مليًّا، آملًا أن يجد فيه بعض الحكمة العميقة والنصائح المفيدة، كما تخيل قدرة جايد على القيام بذلك. بيد أن كل ما طرأ في ذهنه كان أسئلة بلا إجابات.

ثم توجه بالحديث إلى صديقه القديم، وقال له: «هناك الكثير من الأمور التي أود معرفتها. مثلًا في الأيام الأولى التي قضيتها بمفردك في البرية بعد أن تركتك. كيف تعلمت الصيد؟ أين نمت؟ وهل كنت أنت من رأته جايد عند البحيرة؟ وهل أصبحت لديك عائلة الآن؟». تمنى بيتر الآن أكثر من أي وقت مضى لو كان بإمكان باكس الإجابة عن أسئلته. ثم واصل قائلًا: «لِمَ أتيت إلى هنا؟ وهل كنت تبحث عني؟ وهل كنت تعرف بطريقة ما بوصولي الوشيك؟».

بدا أن باكس يستمع جيدًا لما يقوله بيتر، حتى إنه عندما عبر له عن أسفه لتركه إياه سابقًا بمفرده في البرية، أظهر باكس علامات تنم عن مسامحته له.

ومع ذلك، قفز باكس فجأة وصاح مغادرًا على الفور دون أن ينظر خلفه. وباستثناء الأثر الذي تركه حيث كان يجلس على العشب، لم يكن ليترك دليلًا على وجوده.

وأثناء استلقائه في الشرفة في وقت متأخر من الليل، فكر بيتر في مفاهيم عميقة، مثل العتاب والغفران، وفكر فيما إذا كانت مجرد مفاهيم من اختراع البشر فقط. وتذكر اللحظة التي طلب فيها والده منه السماح والمغفرة، وتذكر الطمأنينة التي بدت في عينيه عندما قال له بيتر إنه سامحه، والطمأنينة التي شعر بها هو نفسه أيضًا. وتمنى لحظة لو يرى جايد ليسألها عن رأيها في هذه الأمور. لكنه كان يعلم أن هذا لن يحدث.

أدرك بيتر فجأة أن كل أفكاره هذه تتسم بالجبن، ولا تدعو إلا إلى الخجل. أما عن باكس فقد تضرر بشكل أسوأ كثيرًا من بيتر بما حدث العام الماضي، لكنه مع ذلك ظل صامدًا، وتأقلم مع ظروفه المحيطة. وتعامل معها بشعور من التقبل والاستسلام والاستعداد لمواجهة ما قد يطرأ، ومحاولة التغلب عليه. وكانت عملية اتخاذ القرار لديه بسيطة إلى حد كبير، فقد سأل نفسه فقط عما إذا كان يرغب في رؤيتي، وكان جوابه بالإيجاب، لذا أتى لمقابلتي دون الانخراط في أي اضطرابات عاطفية غير ضرورية، أو قلق بشأن النتائج المحتملة.

لكن ترى هل كان هذا يدل على حكمة باكس أم حماقته؟

أدرك بيتر أنه يقوم بالأمر نفسه مرة أخرى، حيث يفرط في التفكير والقلق دون داعٍ بشأن الأشياء التي يرشده حدسه إلى إجابتها بكل وضوح. لذا رأى أن السؤال الوحيد الذي يجب أن يطرحه على نفسه الآن هو: هل أريد أن أرى باكس مرة أخرى؟ والإجابة هي بكل وضوح نعم.

لذا قرر أخيرًا أن يعود إليه غدًا.

35

وعلى مدار اليومين التاليين، استمر بيتر في مقابلة صديقه. فكان باكس ما إن يسمع صيحات بيتر في الصباح، بينما تكون ابنته نائمة، حتى يقفز مسرعًا بلهفة، ويعبر النهر ليصل إليه. كان كل منهما يستقبل الآخر بعناق حار ثم ينخرطان في ممارسة ألعابهما المألوفة. ثم يقدم له بيتر الماء، فيشرب باكس حتى يرتوي، ويستلقيا متجاورين إلى أن يسمع باكس صوت ابنته عندما تستيقظ من نومها، فيسرع مندفعًا نحوها.

كان يقفز بسرعة دون تردد، ويطلق صياحًا عاليًا، ثم يغادر مسرعًا.

كان باكس يتوسل إلى صغيرته كل يوم أن تتناول الطعام، لكنها تصر على الرفض، حتى في اليوم الثاني عندما غامر بالذهاب إلى الوادي الفسيح، وعاد ومعه فأر، رفضت تناوله أيضًا. لم تكن تريد سوى البيض الذي لم يكن متوافرًا في هذا المكان.

كان يصطحبها كل يوم إلى النهر لتشرب، ولم تتوقف عن الشرب منه يومًا.

ولاحظ باكس أنها تنام ساعات أطول كل يوم.

كانت صحتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم حتى إنها لم تكن تقوى على الوقوف على أرجلها بالضبط كما حدث لها عند البركة الهادئة.

36

ظل بيتر مدة يومين يقابل صديقه باكس عند النهر ويقضيان معًا وقتًا لطيفًا. وخصص فترات بعد الظهر لمحاولة التخفيف من حدة ألم الذكريات المرتبطة بمنزله، وكانت تعصف به بشدة أيضًا. وبالفعل كان هذا الجزء هو الأصعب بشكل خاص في مهمته للتخلص من أحزانه، إذ كان كل ركن من أركان المنزل يحمل بين طياته ذكريات تكاد تخنقه. فكان إذا دخل أي غرفة تملَّكه الحنين، وفكر فيما كان يحدث عادة في هذا المكان من المنزل.

في اليوم الأول، عندما دخل غرفة والده بحثًا عن سترة واقية خفيفة، غمرته فجأة ذكرى حية ومؤلمة.

حيث تذكر ذلك اليوم الذي كان والده يجمع فيه كل متعلقات والدته، وعيناه ممتلئتان بالدموع، ووجهه ممتقع من شدة الحزن، وهو يجمع كل ملابسها من الخزانة. كان بيتر لا يزال صبيًّا صغيرًا في سن السابعة، لذا لم يتمكن إلا من استيعاب فكرة أن هذا الرجل أصبح الآن كل عائلته، ومن ثم شعر بأنه مضطر لقبول أي تصرفات يقوم بها. لم يكن قادرًا على تقديم المساعدة، بدا أن ذراعيه متجمدتان بسبب ثقل مشاعره، بيد أنه كان يتتبع

والده من غرفة إلى أخرى، ويراقب بصمت كومة متعلقات والدته الآخذة في الازدياد بشكل مستمر.

وفي مساء ذلك اليوم، نزل بيتر بهدوء إلى الطابق السفلي، حيث وضع والده مجموعة المتعلقات. وقام بإخراج العديد من العناصر بعناية وأخفاها؛ زوج من الجوارب الطويلة المخططة بألوان عصا الحلوى المفضلة لدى والدته، وسوار مزين بطائر العنقاء، وبعض أكياس الشاي بنكهة النعناع، ورسمة رسمها لذكرى ميلادها.

دائمًا شعر بالامتنان لاحتفاظه بهذه الممتلكات، فقد أعطى فولا السوار، ووضع باقي العناصر في حقيبته القماشية. وقد قرر أن تنقل تلك العناصر عما قريب في اتجاه مجرى النهر بصحبة بعض أعضاء محاربي تلوث المياه.

جلس بيتر على الكرسي ذي الذراعين الموجود في الزاوية، متخليًا عن البحث عن السترة الواقية، وأخذ يتفحص الغرفة مفكرًا في أي من ممتلكات والده يمكنه الاحتفاظ بها. ربما الساعة التي كان يرتديها في المناسبات الخاصة، أو حزام الأدوات الذي كان يلفه حول خصره، أو علبة البسكويت الفارغة التي استخدمها فيما بعد لحفظ بعض الألعاب الورقية المفضلة لديه، مع أن بيتر لم يستطع تذكر سبب أهميتها بالتحديد بالنسبة له.

وهنا عاد يفكر بشدة مرة أخرى في إشعال النيران في جميع ممتلكات والده باستثناء هذه الأغراض القليلة المهمة. بيد أن هذه الفكرة أزعجته كثيرًا، لذا سارع بالعودة إلى غرفة المعيشة، حيث تذكر أنه لا يزال بحاجة إلى سترة واقية.

بعد ظهر كل يوم، كان بيتر يخوض مثل هذه المعركة الصعبة مع مشاعره المتأججة لما يقرب من ساعة، حتى يشعر بتسارع أنفاسه وعدم قدرته على التنفس بشكل جيد، فيندفع نحو الخارج بحثًا عن الراحة في الهواء الطلق.

وعلى الرغم من وجود الكثير من العمل الذي ينبغي له إنجازه في الداخل، كان يفضل البقاء في فناء المنزل؛ حيث كان وجوده في الخارج يمنحه مزيدًا من الشعور بالتحرر والتفاؤل. ويجعله يركز على آفاق المستقبل بدلًا من الغوص في أعماق الماضي الأليم.

كان أكثر ما استمتع به بيتر هو تهذيب حديقة الخضراوات الخاصة بوالدته، فقد تُركت على حالها مدة ست سنوات منذ وفاتها. وفي ظهيرة اليوم الأول من العمل في الحديقة، كان عليه إزالة الحشائش التي نمت بشكل مفرط حتى أصبحت سميكة، وكثيفة، ويصعب التحكم فيها، واستخدم المجرفة بالفعل للقيام بذلك، لكنها كُسرت نتيجة لقوة هذه الحشائش، لذا اضطر بيتر إلى استخدام الفأس.

وقد خطط لزراعة طعامه في الحديقة تمامًا كما كانت تفعل فولا. كما فكر في زراعة بعض أشجار الفاكهة، مثل الخوخ والتفاح على طول حدود الحديقة، مثلما فعلت فولا أيضًا. اعتقد أن والدته كانت ستدعم هذه الفكرة، لأنها كانت تفتخر دائمًا بمحاصيلها الصغيرة. علاوة على ذلك، قرر ترميم حديقة الزهور الخاصة بها أيضًا.

وعلى الرغم من أن العمل في الحديقة كان شاقًّا للغاية، فقد ساعده على تصفية ذهنه ومعالجة مخاوفه من خلال التركيز أكثر على اهتماماته وتطلعاته.

يتطلب ترميم الحديقة وإعادة زرع النباتات بها العديد من الأموال. فقد كان لدى بيتر بعض المال الذي اعتقد أنه سيكون كافيًا لشراء البذور على الأقل، إذا تمكن من العثور على متجر لبيعها. كما توقع الحاجة إلى شراء بعض الأدوات والأسمدة وغير هذا من المستلزمات الضرورية للبستنة. وأدرك كذلك حاجته إلى شراء بعض الأوعية الخاصة لحفظ الطعام خلال فصل الشتاء. فضلًا عن ضرورة شراء مبرد لاستخدامه عند عودة الكهرباء. حتى ذلك الحين، كان عليه بناء موقد للطهي. وكان يحضر مياهًا للشرب كل يوم من الشلالات، لذا كان عليه البحث عن مصدر قريب، وعلى الأقل حتى يجري العمل على تنقية المياه وتخليصها من الملوثات. بالإضافة إلى العديد من العناصر الأخرى التي كان يجب عليه توفيرها.

وفي كلتا الأمسيتين، وجد بيتر نفسه جالسًا على درجات الشرفة، يشعر بالهزيمة، ورأسه بين يديه وعلى وشك البكاء. وما زاد الطين بلة أن زراعة الفاكهة والخضراوات في الحديقة تتطلب وقتًا طويلًا، وكان بحاجة ماسة الآن إلى شيء يأكله. وكان كل ما تبقى له هو كوبًا من دقيق الذرة وبضع ثمرات من التفاح المجفف.

وهكذا كان يذهب إلى سريره كل يوم برأس مليء بالمشكلات، وبطن خاوٍ من قلة الطعام.

لكن من الغريب أنه كان يستيقظ كل صباح، وهو ممتلئ بالحماسة الشديدة على نحو غير متوقع.

كان بيتر يذكّر نفسه كل يوم بأن وجود باكس معه في الوقت الحالي مقصور فقط على ذلك الوقت اللطيف الذي يقضيانه معًا، محذرًا نفسه من أي آمال أو أفكار غير واقعية بشأن عودته للعيش معه بشكل دائم. وأقر بأنه من الأفضل له العيش في البرية وسط الطبيعة؛ إذ إن هذا هو مكانه الطبيعي. ومع ذلك، كان يدرك تمام الإدراك أن الوقت الذي يقضيه بصحبة باكس عند النهر كان أفضل وقت في يومه، فقد وفر له الرفقة والعزاء في ظل هذه الظروف الصعبة. وقد عقد العزم على عدم وضع نفسه في موقف قد يضطر خلاله إلى خيانة باكس، والتخلي عنه مرة أخرى، لذا آثر أن يظل الوضع هكذا؛ مجرد لقاءات عرضية دون العودة إلى العيش معًا بشكل دائم مجددًا.

37

في صباح اليوم التالي، هبت رياح باردة قبل الفجر؛ كانت قوية بما يكفي لتجريد أشجار البرعم الأحمر من أزهارها، وإحداث اضطراب في النهر، وتحريك أغصان شجرة الشوكران القوية. ولحسن الحظ لم توقظ الصغيرة من سباتها، بل جلبت مفاجأة سارة لـ باكس.

أخرج باكس أنفه من مخبئهما بحذر محاولًا التأكد مما إذا كان هناك أحد قد أتى لزيارتهما بالفعل. وقد تأكد أنه كان هناك زائر آتٍ إليهما؛ زائر غير متوقع، لكنه كان ينتظره بفارغ الصبر. ارتجف باكس من شدة الفرح، وازدادت حماسته حتى إن ذيله أخذ يهتز أسرع مما كان توقًا لمقابلة زائره. لكنه لم يستطع تمالك نفسه أكثر من ذلك، فخرج من مخبئه مندفعًا إلى أسفل التل لمقابلة شقيق بريسل وتحيته بحرارة.

حيا رانت صديقه باكس بحرارة مماثلة، وانخرطا معًا في مصارعة ودية ومرحة بالضبط كما فعلا عند لقائهما معًا للمرة الأولى.

ثم استلقيا متجاورين تحت أشعة الشمس، وسعى باكس متلهفًا لمعرفة أخبار عائلته، فسأله قائلًا ماذا عن عائلتي؟ كيف حالها. وهكذا أخذا يتبادلان الأخبار فيما بينهما بطريقتهما الخاصة.

علم باكس أن زوجته بريسل بخير، وأن صغيريه بصحة جيدة أيضًا. وقد شعر بالامتنان لسماع ذلك. كما علم أنهم يريدون منه العودة إليهم.

قال له رانت: لم تعد هناك حاجة للبحث عن جحر جديد في مكان آخر، فقد غادر البشر البحيرة، ومن ثم زال الخطر.

كان باكس على علم بذلك، لكنه تفاجأ من عدم خوف بريسل من عودة البشر مرة أخرى. وأخبره رانت بالمزيد من الأخبار التي أدهشته أكثر، حيث قال له إن البشر قبل رحيلهم ألقوا كميات كبيرة من الأسماك في البحيرة حتى إن الصغيرين كانا بإمكانهما اصطيادها بسهولة. وأضاف أخيرًا لقد أصبح الوضع آمنًا في المزرعة المهجورة، والطعام متوافر بكثرة. ولم يعكر صفو تلك الأجواء الجميلة سوى حزن بريسل على رحيل ابنتها. حتى إنها حالت دون ترك الصغيرين الآخرين يخرجان بمفرديهما للصيد. إنها بحاجة إليك بشدة في الوقت الحالي.

لاحظ باكس أن رانت كان حزينًا للغاية أيضًا لاعتقاده أن ابنة أخته قد ماتت، لكن باكس طمأنه قائلًا إنها لم تمت. إنها معي هنا.

هب رانت واقفًا وهو مندهش للغاية؛ حيث نجح في تتبع أثر الصغيرة حتى البركة الهادئة، لكنه لم يتمكن بعد تلك النقطة من رؤية أي أثر لها، فلم يرَ سوى آثار باكس فقط التي امتدت حتى النهر، واختفت هناك أيضًا. لكنه تمكن من شم رائحة باكس بعد ذلك في الوادي الفسيح، وتعقبها حتى وصل إلى حيث هو الآن. وهنا قال لباكس بلهفة أرني إياها، أين هي؟

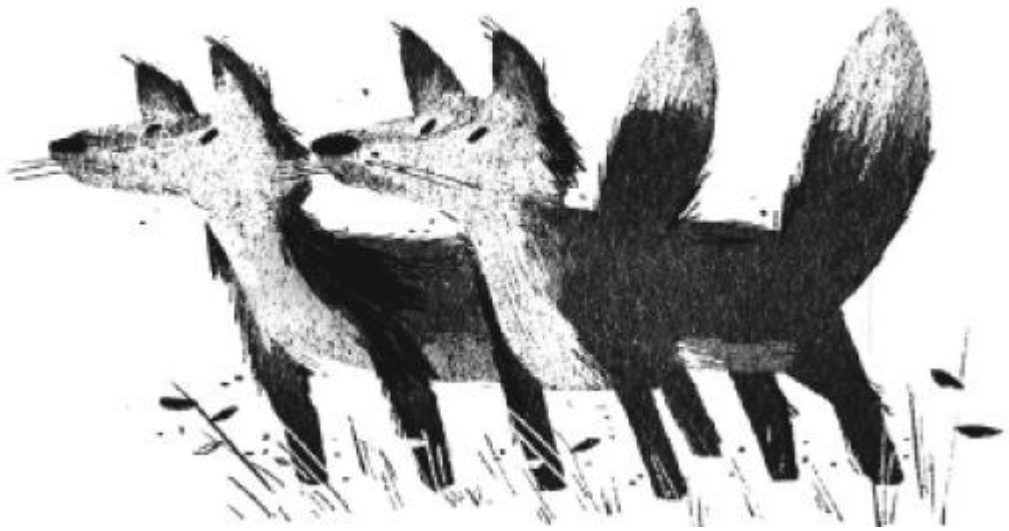

قاده باكس إلى أعلى التل، ثم إلى مخبئهما تحت أغصان شجرة الشوكران. صاح رانت بصوت عالٍ معبرًا عن دهشته لدى رؤيته ابنة أخته سالمة ما أيقظها على الفور. كافحت للوقوف على أرجلها لتحية خالها، لكنها تعثرت. فانحنى ليغمر وجهها بالقبلات، وعانقته بقوة وهي جالسة في مكانها.

تجعد جبين رانت، وبدا عليه القلق، حيث لاحظ أن بها خطبًا ما، فتشممها بعناية، وسألها: هل أنت على ما يرام؟

أكد له باكس شعوره قائلًا إنها ليست على ما يرام على الإطلاق.

تابع رانت فحصه القلق لها، وأضاف: كما أن حجمها ما زال صغيرًا. لقد نما أخواها وأصبحا أكبر حجمًا.

أطرقت الصغيرة، أذنيها عندما سمعت أخبار أخويها.

تابع رانت: لقد أصبح أخوها النحيل أطول قامة وأكثر سرعة. أما الآخر فلا يزال ممتلئ الجسم قوي البنية، بل إنه قد أصبح ضعف حجمها الآن. وهما الاثنان يتمتعان بصحة جيدة وبنية قوية. أخبرهما رانت بلعبة كان الصغيران يستمتعان بممارستها معه، حيث يظهر الأخ

ممتلئ الجسم فجأة من تحت بطنه، بينما يقفز الأخ الأنحف على ظهره، وأضاف أنهما يلعبان ويقفزان ويتعثران كثيرًا كأنهما يختبران صبر أمهما.

تابعت الصغيرة حديث رانت عن أخويها بحماس وانبهار كبيرين. كما تابع باكس هو الآخر أخبار ولديه وهو يشعر بسعادة غامرة ممتزجة ببعض القلق على ابنته.

نظر إلى ابنته بقلق بالغ؛ فقد كانت ساعات استيقاظها تتناقص تدريجيًّا كل يوم. كما أنها أصبحت أكثر ضعفًا ومرضًا، وأصبح تنفسها ضحلًا بشكل متزايد؛ حيث كان صدرها يتحرك قليلًا فقط مع كل شهيق وزفير. كما كانت ساقها اليسرى ترتجف بشدة.

استلقى رانت بجانبها، ولف ذيله حولها، فبدأت على الفور في التنهد.

أسرع باكس إلى الخارج لتأمين الطعام لابنته. وقد كان مصممًا على توفير الطعام وتناولها إياه. أخذ يبحث بضع دقائق عن أي طعام، لكنه أصيب بالإحباط؛ إذ لم يكن هناك أي شيء سوى دود الأرض.

عندما أحضر لها باكس بعض الدود، استدارت، ولم تبدِ أي اهتمام.

فخرج باكس مجددًا بحثًا عن أي طعام آخر، وعاد معه بعض حبات الجوز المتعفن.

لكن الصغيرة اقتربت أكثر من خالها رافضة تناولها.

نظر باكس إلى رانت، وقال له إنها تريد البيض، ولا يوجد بيض هنا، ولا أي نوع من الفرائس على الإطلاق.

قال له رانت: يوجد الكثير من البيض في الوادي الفسيح، وفي المزارع المهجورة كذلك. سنعود معًا إلى وطننا الآن، إن بريسل تنتظرنا هناك.

سأله باكس: هل رأيت أي حرائق مشتعلة أثناء رحلتك إلى هنا؟

أجابه رانت: رأيت أراضي متفحمة، لكنني لم أر أي نيران مشتعلة.

لاحظ باكس ابنته وهي تحاول الوقوف. كانت تتأرجح بشكل غير مستقر على حافة ملجئهما الصغير. وعلى الرغم من تصميمها على المحاولة، أدرك أنها لن تكون قادرة على القيام بالرحلة.

لعق أذنيها بلطف وحنان ثم أعادها إلى فراشها المكون من أوراق الصنوبر الناعمة. وقال لرانت: عد أنت، وسنتبعك عندما تسترد صحتها.

سار مع رانت إلى حافة الملجأ، وأمر ابنته بالبقاء مكانها، قائلًا ابقِ أنت هنا، فسأذهب مع رانت إلى الوادي الفسيح، وسأحضر لك البيض. لا تخرجي من هنا أبدًا.

اتسعت عيناها لدى سماعها نبرته الصارمة، ثم خفضت رأسها. شعر باكس ببعض الارتياح، فقد حل الصباح، وكان هو الوقت الذي تشعر فيه بالنعاس عادة، لذا من المرجح أن تظل نائمة حتى عودته. لكنه لم يكن يفضل البقاء بعيدًا عنها فترة طويلة على الرغم من ذلك.

وما إن خرج بصحبة رانت حتى حثه على الإسراع حتى يعود إلى ابنته في أقرب وقت.

لكن رانت شرع في السير إلى ضفة النهر، وتوقف فجأة بالقرب من صخرة كبيرة.

تبعه باكس، ووقف بجانبه، كان هذا هو المكان الذي مات فيه جراي. ظل الثعلبان ساكنين كأن هذا الثعلب العجوز ما زال يضفي على الأجواء من حوله الهدوء والسلام اللذين كان يتمتع بهما.

وهنا فكر باكس في صديقه بيتر الذي سيأتي قريبًا، يبدو أنه ليس مقدرًا لهما أن يتقابلا اليوم. وبينما كانا يقفان هو ورانت معًا، شارك معه بعض الذكريات التي حدثت في هذا المكان: شعور رانت بالإثارة والانتصار عندما نجح في عبور المياه بعد أن تمكن من تحديد مكان باكس وبريسل، وتوقف اندفاعه المبتهج نحوهما فجأة بسبب انفجار أدى إلى إصابته

بجروح خطيرة، حيث انفصلت ساقه عن فخذه. كما ذكَّره بتلك الأيام التي قضاها مستلقيًا على وشك الموت وسط القصب الموحل، حيث استعاد وعيه في النهاية، ليكتشف خسارته المدمرة.

أثارت موجة مفاجئة من الرياح الباردة، اضطراب سطح المياه، وهنا حث رانت صديقه باكس قائلًا غادر هذا المكان في أسرع وقت، وعد إلى المنزل.

38

استيقظ بيتر في اليوم الثالث على صوت ريح شديدة تهب بحدة عبر الأشجار في الخارج. كان يشعر بالبرودة تتسرب عبر الجدران، لتذكره بالعودة الوشيكة لفصل الشتاء. وبينما كان يلف نفسه في بطانيته، أدرك أنه بحاجة إلى التحقق من توافر الحطب للتأكد من استعداده للأيام الباردة المقبلة.

وفي ذلك الوقت تذكر أمرًا مهمًّا، وهو أنه يعرف المكان الذي وضع فيه مفتاح الباب الخلفي للجيران.

كانت الجارة؛ وهي امرأة مسنة تعيش بمفردها، قد عهدت إلى بيتر بمعرفة المكان الذي تحتفظ فيه بالمفتاح الاحتياطي، لأنه كان يساعدها بجلب الحطب إليها. هذا بالإضافة إلى معرفته أن لديها مخزنًا أيضًا مخصصًا لتخزين الطعام فقط. فكانت كثيرًا ما تقول له: «لقد عاصرت العديد من الأعاصير والأوبئة والحروب، وأدركت أن الشخص العاقل لا بد أن يستعد لمثل هذه الظروف جيدًا».

كانت دائمًا ما تحاول إطعامه بعد انتهائه من مهمة تكديس الحطب لها، وقالت إنها تحن إلى إطعام ابنها الذي كبر في السن ولم يعد بحاجة إلى رعايتها. ومع ذلك، كان يرفض عرضها

باستمرار؛ لأنه في كل مرة يقبل فيها، كانت لا تنفك تثرثر عن حزنها لأنها لم تعد ترى ابنها الذي ابتعد عنها ما يجعل ابتلاع الطعام صعبًا عليه. كان حديثها يذكره بما مر به من مشكلات، وافتقاد عاطفي على الرغم من قربه من أفراد أسرته. وبينما كان يستمع الى شكواها، كان يقول في قرارة نفسه أحيانًا يكون القرب أيضًا مؤلمًا للغاية.

ارتدى بيتر ملابسه بسرعة، وأخذ إبريق الماء، وانطلق مسرعًا في الطريق الفارغ، وفكر حينها في مقدار الوقت الذي سيستغرقه للعودة مرة أخرى إلى الحذر من السيارات ومراقبتها عند عبور الطريق لدى عودة السكان إلى المدينة. اعتاد أن يطرق الباب الخلفي، ثم ينتظر دقيقة قبل أن يسمح لنفسه في النهاية بالدخول.

بدا من الواضح أن المرأة العجوز قد غادرت على عجل؛ حيث كانت هناك بلوزة موضوعة على ذراع الأريكة، ولا تزال إبرة الخياطة تبرز منها، ما يعني أنها غادرت المكان في منتصف قيامها بإصلاح البلوزة. كما كانت مجلة الكلمات المتقاطعة مفتوحة على طاولة القهوة، والأطباق المتسخة متراكمة في الحوض، وقد جفت عليها بقايا الطعام. وكان المكان كله مغطى بطبقة من الغبار.

فتح بابًا بجانب المطبخ، ورأى المكان في حالة من الفوضى، حيث كانت تفوح منه رائحة الفئران الكريهة، بينما تناثر الشوفان والدقيق على الأرض. وعلى الرغم من ذلك، كانت الرفوف لا تزال سليمة ومليئة بالعلب والجرار المرتبة بعناية. كانت هناك أنواع مختلفة من الأطعمة المعلبة المحفوظة مثل المربى وأنواع مختلفة من الحساء، والحليب المجفف، والفواكه والخضراوات، بالإضافة إلى ثلاث جرار من زبد الفول السوداني.

شعر بالارتياح عندما رأى أن لديه الكثير من الطعام في مخزن المؤن بما يكفي لإعالة نفسه حتى يتمكن من تدبر أمره. وعندما فكر في أن هذا قد يعد سرقة، برر ذلك بتذكير نفسه بأن المرأة العجوز كانت تعرض عليه دائمًا تناول الطعام. وعلاوة على ذلك فقد تعهد برد الجميل لها بمجرد عودتها، ربما من خلال تقديم دعمه ورفقته، مثل الاستماع بصبر إلى شكواها بشأن فقدان ابنها، إذ دائمًا ما كانت بحاجة إلى شخص ما للتحدث معه.

خطط الليلة للعودة بعربة يدوية لجمع المزيد من الإمدادات. لكنه تذكر في تلك اللحظة أن هناك صديقًا ينتظره؛ ذاك الصديق الذي يحب تناول زبد الفول السوداني.

وضع بيتر عبوة من زبد الفول السوداني في جيبه وتوجه للخارج.

وصل إلى النهر بينما كانت الشمس في كبد السماء ترسل أشعتها الحارقة بعض الشيء، وقد ارتفعت مياه النهر، وتحولت إلى أمواج مضطربة. وهنا نادى بصوت عالٍ: «باكس! أنا آسف على تأخري».

مرة عشر دقائق، ولم يجب باكس. ففتح بيتر عبوة زبد الفول السوداني، وفكر في المدى الذي يمكن أن تصل إليه رائحته. ولوح بها على أمل أن تجذب الرائحة الجذابة انتباه باكس.

بعد الانتظار مدة عشر دقائق أخرى دون أي علامة على وجود باكس، صعد بيتر التل ليجمع بعض الماء. وعند عودته، استقر على حافة صخرية في منتصف الطريق أسفل المرج، وواصل الانتظار ممسكًا بعبوة زبد الفول السوداني في يده.

وظل بيتر متيقظًا يراقب النباتات المتناثرة بالقرب من شجرة الشوكران الكبيرة، حيث ظهر باكس خلال اليومين الماضيين. ومن ثم تمايل القصب على طول ضفة النهر بفعل الرياح، ما أدى لصدور صوت حفيف هادئ. وعلى الرغم من تعبه، كافح بيتر لإبقاء عينيه مفتوحتين، وكاد يفوته ملاحظة شيء مهم.

كانت هناك حركة وسط هذه النباتات لفتت انتباه بيتر، حيث برز شيء مدبب بني اللون فترة وجيزة يشبه الوجه على الرغم من عدم تأكده من ذلك، ثم اختفى مرة أخرى. راقب بيتر الأمر بعناية، وبعد لحظة، شهد الحركة نفسها مرة أخرى.

لاحظ بيتر وجود وجه مغطى بفرو ذي لون بني مائل إلى الحمرة، لكنه كان صغيرًا ما يعني أنه ليس وجه باكس. وبينما بدأ هذا المخلوق في التحرك، لمح بيتر شيئًا من فرو لامع عبر النباتات الكثيفة. حاول جاهدًا التركيز للحصول على نظرة أفضل، وتساءل عما إذا كان من الممكن أن يكون جروًا. وقد أثار حيرته وجود جرو في مثل هذه المنطقة النائية، إذ لا توجد أي مستوطنات بشرية قريبة.

تحرك هذا المخلوق نحو الماء، فأصبح مرئيًا بشكل واضح بالنسبة لبيتر، وتبين أنه ثعلب صغير يبلغ من العمر شهرين تقريبًا، لكنه يبدو نحيفًا للغاية.

جلس بيتر مسرعًا، وأخذ يراقب الصغيرة وهي تتجه بخطوات غير مستقرة نحو ضفة النهر. أدرك بيتر الأمر بعد بعض الوقت، كانت الصغيرة على وشك الشرب من المياه الملوثة.

قفز بيتر بسرعة من الحافة، وبدأ بالركض، وتردد صدى تحذير جايد في ذهنه مثل إنذار قوي، وهي تقول إن صغار الحيوانات هي الأكثر عرضة للخطر نظرًا لكون أنظمتها العصبية لا تزال في مرحلة النمو.

صاح بصوت عالٍ قائلًا: «ابتعدي! اذهبي من هنا!».

فوجئت الصغيرة لدى سماع صوته، وتجمدت في مكانها لحظة، لكنها استجمعت شجاعتها، وتقدمت بحذر نحو المنطقة الضحلة من النهر حيث توجد الصخور.

نزل بيتر إلى ضفة النهر، وتمكن من رؤية الثعلب الصغير بشكل أكثر وضوحًا الآن. كشف فروها النحاسي اللامع، وملامحها الرقيقة الدقيقة أنها أنثى، على الأرجح. ولم يستطع بيتر إلا أن يتساءل عن والدتها، ولماذا تركتها بمفردها. صرخ بصوت عالٍ مليء بالقلق «ابتعدي! اذهبي من هنا! اذهبي».

تعثرت الصغيرة قليلًا، لكنها لم تستدر لتعود أدراجها، وإنما تقدمت وأنزلت رأسها استعدادًا للشرب من النهر.

تصرف بيتر بشكل غريزي، فلم يكن لديه وقت للتفكير. فألقى بالعبوة التي كان يحملها بشكل متهور، ولكن في تلك اللحظة بالذات، أدرك أن رميته كانت قوية للغاية وكان هدفه دقيقًا للغاية. أراد يائسًا حث الصغيرة على الرجوع قائلًا اهربي من هنا! لكنها لم تستجب، وتجمدت في مكانها. واصطدمت العبوة بالأرض حيث كانت تقف الصغيرة ما أدى إلى تحطمها.

في تلك اللحظة اندفع ثعلب من بين النباتات الكثيفة.

أسرع باكس إلى المياه الضحلة، وأمسك بالصغيرة على الفور. وهنا أدرك بيتر أنها ابنته.

صاح بيتر ونزل إلى النهر مسرعًا ما أدى إلى تناثر المياه من حوله، وقال لصديقه باكس: «أنا آسف حقًّا! لم أكن أقصد إيذاءها». لكن باكس أخذ ابنته، وانطلقا حتى اختفيا عن الأنظار.

39

حملها باكس تحت أغصان الشوكران، وأخذ يفحصها بعناية. وعلى الرغم من عدم عثوره على أي إصابات واضحة، كانت نبضات قلبه تتسارع من شدة القلق. وبخها قائلًا لقد غادرت هذا المكان الآمن على الرغم من تحذيراتي لك!

لم ترتم الصغيرة على الأرض وتخفض جسدها خضوعًا، وإنما هزت ذيلها تعبيرًا عن شعورها بالندم وطلبًا للسماح، وقالت له لقد كنت عطشانة للغاية.

لعق باكس خديها تعبيرًا عن مسامحته لها.

ثم قالت له لقد قلت إن صديقك هذا ليس مصدر خطر أو تهديد. لكنه هددني بالفعل.

قال لها باكس: لا، إنه لم يكن مصدر خطر أو تهديد على الإطلاق. لكنه مع ذلك كان في حيرة من أمره؛ لقد ألقى بيتر شيئًا ثقيلًا تحطم على صخرة بجوار ابنته. ترى لمَ فعل ذلك؟

تذكر أنه في كثير من الأحيان، كان بيتر يرمي كرة جلدية بيضاء على صبي آخر كان يمسكها بقفاز سميك يرتديه في إحدى يديه. وكانا يلعبان هذه اللعبة مرارًا وتكرارًا، حيث

كان بيتر يسدد رميات قوية مماثلة لتلك التي سددها صوب ابنته عند النهر، لكن كلا الصبيين كانا يضحكان ويبدوان مستمتعين للغاية أثناء اللعب.

لكن باكس أدرك أن تلك المرات كانت مختلفة تمامًا عما حدث هذه المرة، لكنه ظل مع ذلك في حيرة من أمره مما حدث. ثم قال: أنا متأكد أن صديقي لم يقصد أي إيذاء، بدا أنه يشعر بالحزن والقلق من شيء ما.

كانت الصغيرة مهتمة بكيفية تمكن والدها من تمييز نية الصبي على الرغم من هبوب الرياح بعيدًا عنه بما يعني عدم تمكنه من شم أي رائحة تنم عن نيته الحقيقية.

فسر لها باكس ذلك قائلًا: لقد ناداني بنبرته الحزينة المليئة بالأسى.

تساءلت الصغيرة: ماذا تقصد بنبرته الحزينة هذه؟

تذكر باكس المرات العديدة التي أدرك فيها نبرة الحزن هذه في صوت صديقه.

لقد سمعها في صوته في مرات كثيرة، خاصة عند جلوسه بمفرده في غرفته. وقد بدت واضحة جلية في كلماته خلال الأيام الأخيرة التي رأى فيها باكس في العام الماضي، خاصة عندما كان يجمع أمتعته في صندوق، وعندما بكى بحرقة بينما كانت السيارة تنطلق بعيدًا، وكذلك في اليوم الذي صد فيه هجوم الذئبين البريين عن باكس وأصدقائه، وأمره بالمغادرة بعيدًا.

لكن باكس شارك ذكرى مختلفة مع صغيرته، حدثت خلال أيامه الأولى مع بيتر.

قال لها: ذات يوم تركني بيتر جائعًا في قفصي، ولم يطعمني في تلك الليلة؛ حيث ترك المنزل إثر مشاجرة دارت بينه وبين أبيه، حتى إنه لم يعد إلى المنزل عند غروب الشمس.

انتابني قلق شديد حتى إنني أخذت أسير ذهابًا وإيابًا في قفصي من شدة القلق.

أتذكر أنه عاد في ذلك اليوم متأخرًا، إذ كان القمر قد توسط السماء وأرسل ضياءه معلنًا انتصاف الليل. أحضر لي طعامًا، وجلس بجانبي وأنا أتناوله يواسيني بنبرته الحزينة المليئة بالأسى هذه. واستلقى بجواري على فراشي المليء بالقش. حتى بعد أن غط في النوم ليلًا ظلت رائحة الحزن والأسى والرغبة في الاحتواء تفوح منه طوال الليل.

لكن الصغيرة ظلت غير مدركة لما يقصده أبوها.

قال باكس موضحًا إن هذه النبرة أشبه بصرخة الحزن التي تطلقها الثعالب عند التعرض لحدث مأساوي. فقد شارك باكس هذه الصرخة مع مجموعة الثعالب الأخرى عند موت جراي، وشاركها مع بريسل حين تعرض أخوها رانت لإصابات خطيرة. لكنه أدرك أن صغيرته لم تسمع هذه الصرخة من قبل. وقال لها: ستعرفينها يومًا ما، لكن البشر هم فقط من يتحدثون بنبرة تنم عن الحزن، ويدركون مدى عمق هذه المشاعر وتعقيدها.

لكن قبل أن يتمكن باكس من تقديم مزيد من التفاصيل لها، قاطعته ضجة أحدثتها مجموعة من الغربان التي هبطت على الفروع فوقهما.

خرج باكس بهدوء، ووقف يستمع لما تقول ليعرف ما يحدث.

علم باكس أن تلك المجموعة من البشر التي كانت مجتمعة عند البحيرة، قد عادت مرة أخرى، وأنهم يتقدمون على طول ضفة النهر.

أراد باكس أن يعرف مدى سرعة تقدمهم، وإلى أين وصلوا. ولكن قبل أن يتمكن من معرفة المزيد من المعلومات، طارت الغربان فجأة، وتحركت الأغصان محدثة صوت طقطقة لدى طيرانها من عليها.

عاد باكس إلى الداخل، وقال لصغيرته يجب أن نغادر الآن، هل يمكنك السير؟

نهضت الصغيرة بالفعل، وتبعت باكس إلى الخارج. كانت تمشي في البداية بخطوات واثقة، لكنها ما إن اتخذت بضع خطوات أخرى حتى فقدت توازنها.

نظرت إلى ساقها الخلفية، وبدا عليها الانزعاج لعدم ثباتها ومساعدتها على السير بشكل سليم. ثم هزت فروها متخلصة من بعض أوراق الأشجار العالقة به. ورفعت ذقنها لأعلى، واستأنفت السير.

لكنها تعثرت مرة أخرى، ولم تقو على استكمال السير.

اقترب باكس منها وتفحصها بعناية.

ولاحظ عدم وجود أي بثور ناجمة عن لدغات الحشرات على جلدها، كما حدث عندما واجهت بريسل لدغات من خلية نحل. كما أنها لم تكن تعاني جروحًا مفتوحة تخرج صديدًا، ولم تكن تتألم مثلما حدث مع بريسل عندما احترق ذيلها. ولم تكن تعاني آلامًا في بطنها مثلما حدث مع رانت بعد أن تناول بطاطس خضراء في المزارع المهجورة. ولم تكن مصابة بإصابات خطيرة للدرجة التي تجعلها تغط في نوم عميق لا تستطيع منه أن تفيق بالضبط كما حدث مع رانت عندما فقد ساقه.

لكن بريسل ورانت تمكنا من التعافي تدريجيًّا يومًا بعد يوم من كل هذه الإصابات.

ساءت حالة صغيرته، وأصبحت أضعف بالضبط كما حدث له في تلك الأيام السابقة لعثور بيتر عليه أول مرة عندما كان لا يزال صغيرًا، حيث كانت صحته تسوء يومًا بعد يوم. لقد كان سيموت حتمًا لو لم ينقذه بيتر حينها.

ألقى نظرة خاطفة على صغيرته، وأدرك أخيرًا الإجراء الذي يجب اتخاذه. لقد أمسكها من مؤخرة رقبتها، ولاحظ مدى خفة وزنها، ومدى ارتخاء جلدها.

فسألته الصغيرة: هل سنذهب إلى منزلنا حيث أمي وأخواي؟

فوعدها باكس قائلًا سأصطحبك إلى مكان آمن، لا تقلقي.

40

«**أحمق**، أحمق، أحمق»، تمتم بيتر بينه وبين نفسه وهو يتجول في الفناء الخلفي ليجمع الفروع المتساقطة للاستفادة من أخشابها في إشعال النيران. لقد شعر بأنه ربما يحمل لعنة تلازمه دائمًا؛ حيث يرى أنه عادة ما يتسبب في إيذاء أي شخص يحبه. ويبدو أنه لم يستوعب الدرس ويتعلم من أخطائه السابقة.

فتح بيتر قفص باكس القديم، وجمع حزمة من القش المتحلل. فكشف عن الأنفاق الخفية للفئران، وانطلقت الخنافس تجري في كل مكان. حمل القش إلى الخارج وألقاه على الخشب الذي رتبه، وهو يصرخ بصوت عالٍ «أحمق، أحمق!» ثم عاد ليجمع المزيد من القش.

شعر بيتر بإحساس عميق بالذنب والمسئولية عن تسببه في الأذى للأشخاص الذين يحبهم، قبل أن يرحلوا عنه إلى الأبد. لقد تذكر بوضوح خيبة أمل والدته فيه خاصة في اليوم الأخير من حياتها، وهي الذكرى التي أثقلت كاهله كثيرًا وأرقته في مضجعه. وعندما أخبر جايد بما حدث، أكدت له أنه ينبغي له ألا يشعر بالذنب بسبب ذلك الحادث الذي وقع وهو لا يزال في السابعة من عمره فقط، كما رفضت فكرة تعرض الأم لحادث سيارة لأن طفلها

كسر بالخطأ كرة زخرفية موضوعة في الحديقة. لكنه لم يستطع التخلص من الشعور بالذنب، وشكك في فهم جايد للأمر، وشعر بأنه هو الوحيد الذي يعرف حقًّا نتيجة أفعاله.

كما فكر أيضًا فيما حدث لوالده، وتساءل عن سبب وجوده على بعد 160 كيلومترًا من القاعدة. وتكهن بأن والده ربما كان في طريقه إلى منزل فولا، ربما لرفضه عيش بيتر هناك على الرغم من ادعائه غير ذلك. ودائمًا ما تجنب بيتر مواجهة هذه الحقيقة، ولكن هل يمكن أن يكون هناك سبب آخر سوى ذلك؟

بالإضافة إلى فولا التي لن ينسى علامات الحزن والأسى التي بدت على وجهها عندما أخبرها بأنه لا يحتاج إلى رعايتها، وأنه لا يعتبرها أمه.

والآن يوجه ضربة قاسية لباكس مرة أخرى، مع أنه كان لا بد أن يكتفي بخيانته له العام الماضي. لكنه لم يرتجع، وأقدم على إيذائه مجددًا. تمنى لو أن باكس استطاع تمييز نبرة الحزن والندم في صوته عندما صرخ قائلًا: آسف! لم أكن أقصد. لكن يبدو أنه أمل بعيد المنال.

وعاد يردد من جديد: «أحمق، أحمق، أحمق».

لكن بيتر قرر أنه لن يكرر أخطاءه السابقة. وأنه سيتخذ اليوم خطوة شجاعة لترك حياته القديمة خلفه والبدء من جديد.

وبعد أن أعد الخشب ووضع فوقه القش، انطلق مباشرة إلى الداخل نحو غرفته. أخرج الملابس من خزانته وألقاها على الأرض، وأزال الملصقات من الجدران، وأخرج الصناديق من تحت السرير. وأزال جميع العناصر الخاصة به الموضوعة على الرف في الغرفة، مثل الصور، وألعاب الخدع السحرية، والكتب، والألغاز، وأحجار الجيود، ورءوس السهام، وصناديق الثقاب المليئة ببقايا الهياكل العظمية للحيوانات الصغيرة.

جمع بيتر جميع العناصر التي تمثل ماضيه وهو طفل ساذج أحمق وحملها إلى الخارج، وألقاها في دائرة النار التي كان على وشك إشعالها. كان يزيد من سرعته في كل مرة يدخل فيها إلى غرفته لجمع مزيد من العناصر، ويخرج لإلقائها في حلقة النار، حتى جرد غرفته تمامًا، ولم يتبقَّ بها سوى ألواح الأرضية العارية.

وجلب من السقيفة العلبة التي تحتوي على سائل الإشعال، ثم اندفع إلى الخارج، وسكبه على كومة الأمتعة كلها. وبعد ذلك، أسرع إلى المطبخ لإحضار علبة أعواد الثقاب. وعلى الرغم من انقطاع أنفاسه، فإنه لم يسمح لنفسه بالتباطؤ، خوفًا من أن يفقد عزمه. وبالفعل جلب علبة أعواد الثقاب، وعاد بسرعة إلى الخارج، وأشعل واحدة وألقاها على كومة الأشياء التي أعدها.

اشتعلت النار فجأة وبقوة، حتى إنه سمع أجيج النار المستعرة، فأصيب بالذهول، وشعر بضيق في التنفس.

أطلق بيتر سراح جميع المشاعر والضغوط التي ظلت حبيسة صدره طيلة عام كامل، وهو يشاهد النيران تلتهم حياته القديمة. ثم بدأ الصراخ والنحيب والعويل مع اشتداد النيران. حتى إنه خلع قميصه ليشعر بالحرارة الشديدة على جلده. وانحنى بالقرب من النار حتى تمكن من استشعار رائحة أطراف شعره التي بدأت الاحتراق. وفي هذه اللحظة من الحزن الشديد، بكى على كل ما فقده، بما في ذلك والده الذي ثقل غيابه عليه، وكان من المفترض أن يكون حاضرًا هنا في هذا المنزل خلفه. اقترب من النار بشدة حتى بخر لهيبها الدموع التي على خديه، وتركهما مغطيين بطبقة رقيقة من آثار الدموع المتبخرة. كما امتلأت عيناه وحلقه بالرماد والدخان.

بعد أن استنفد كل طاقته، صعد إلى الشرفة وسقط على الدرج، وهو يشعر بالإرهاق الشديد. كانت حقيبة ظهره تتدلى من السور بجانبه.

فكر في أنه لا بد أن يتخلص منها هي الأخرى.

لقد اشترتها له أمه عندما التحق بالمدرسة في صفه الأول. وفكر في أنه يجب عليه إحراقها أيضًا؛ إذ ترتبط لديه بذكريات أخرى لا يود تذكرها. فقد زحف باكس إلى داخلها في اليوم الأول الذي أحضره فيه إلى المنزل.

لكنها كانت حقيبة ذات جودة ممتازة، ولون أزرق داكن، ومصنوعة من قماش متين، بالإضافة إلى حجمها الكبير. ومع أنها في البداية كانت ضخمة بالنسبة لحجمه، فمع تقدمه في العمر، أصبحت أكثر ملاءمة وراحة بالنسبة له، وتكيفت مع جسده بدقة شديدة لدرجة أنها بدت كأنها جزء متأصل من بنيته الجسدية، بالضبط مثل العضلات المفتولة. كما أنه بحاجة إلى حقيبة ظهر يمكنه استخدامها في المستقبل، والأهم من ذلك أنها تحوي رماد والده.

تناول بيتر حقيبة الظهر من السور، واحتضنها بقوة. وقرر الانتظار حتى تنطفئ النار، قبل أن يأخذ رماد والده إلى المقابر لينثره بجوار قبر والدته. لقد كان هذا اليوم يتطلب منه التحلي بالشجاعة الشديدة على أي حال.

ترك الحقيبة على السور، ثم وجه انتباهه إلى النار مجددًا. وعندها أدرك ما فعله.

أدرك أنه قد أنشأ عشًّا يجمع كل عناصر حياته القديمة، وأشعل النار فيه. وإن فعلته هذه أشبه بقصة العنقاء التي تنبثق حياتها الجديدة من رماد حياتها القديمة. ومع أن الروائح التي انتشرت في الهواء كانت مختلفة، حيث حملت مزيجًا من روائح الصوف، والورق، والبلاستيك المنصهر، والمطاط المنبعث من حذائه الرياضي، فإن جوهر القصة ظل كما هو دون تغيير: حياة جديدة تنبثق من بين رماد الماضي.

هدأت النيران تدريجيًّا، لكنها ظلت تلتهم ما في داخلها بوتيرة بطيئة ومتمهلة. أغمض بيتر عينيه، واستغرق في التأمل وهو يستمع إلى صوت اشتعالها. وقد أدهشته كيفية استمرار القصص وتكرارها عبر الزمان في ظروف مختلفة. لقد كانت والدته تحب قصة العنقاء، وتحرص على مشاركتها معه. ولا يزال بإمكانه تذكر صوتها المليء بالحماس وهي تروي

القصة، خاصة عندما تصل إلى الجزء المتعلق بقدرة العنقاء على إيجاد حياة جديدة من بقايا حياتها القديمة.

وفي اليوم الذي غادر فيه منزل فولا للبحث عن باكس، حكى لها القصة ذاتها، وأقنعها بحرق ساقها الخشبية القديمة، التي كانت تستخدمها كنوع من أنواع العقاب الشخصي على الخطأ الذي ارتكبته خلال الحرب من وجهة نظرها. فقد كان يعتقد أن ذلك العقاب الذي فرضته على نفسها لم يعد ذا جدوى. وعندما عاد بعد بضعة أسابيع ورآها ترتدي الساق الاصطناعية بدلًا من ذلك، لاحظ التأثير الإيجابي لهذا الأمر عليها. فمن خلال قبول ارتداء هذا الطرف الاصطناعي، تخلصت فولا بشكل رمزي من ذنبها السابق، واعترفت بأنها كفرت عما ارتكبته من خطأ خلال الحرب.

شاركت فولا القصة لاحقًا مع صديقها سائق الحافلة الذي كانت لديه هو الآخر صراعات وتحديات شخصية. ثم فكر بيتر عندئذ فيمن قد ينقل إليه هذا الرجل هذه القصة، ومن قد يستمع إليها فيما بعد في المستقبل. كما فكر أيضًا فيمن قد استمع إليها وتأثر بها في الماضي حتى قبل أن تسمعها أمه وترويها له.

فتح عينيه، وأخذ يراقب النار وهي تتحول تدريجيًّا إلى رماد، ولم يشح بنظره حتى تبدد الدخان، ولم يبقَ سوى الجمر. عندها فقط أزاح بصره عنها.

وهنا رأى شيئًا عجيبًا، ظنه في البداية مجرد صورة وهمية ناتجة عن تأثر الضوء بدرجات الحرارة العالية الناتجة عن اشتعال النيران. فقد رأى باكس يجلس بجوار السقيفة، ويتدلى من فمه شيء صغير مكسو بالفرو.

فرك بيتر عينيه المجهدتين، لكن ما رآه لم يكن سرابًا، إنه باكس بالفعل يحمل صغيرته بين فكيه، وتبدو ميتة.

لا بد أن الجرة قد أصابت الصغيرة، وأودت بحياتها، لقد قتلها. ولا بد أن باكس قد أتى إليه ليقول له انظر عاقبة فعلتك، لقد قتلت ابنتي.

ما كان منه إلا أن دفن وجهه على الفور بين يديه محاولًا الهروب من فعلته بكل جبن، لكنه تذكر أن اليوم هو االيوم الذي قرر فيه التحلي بالشجاعة. رفع يديه عن وجهه، وقرر مواجهة عواقب أفعاله.

تحركت الصغيرة، قليلًا بين فكي والدها.

جلس بيتر مكانه على الفور.

دار باكس حول المنطقة التي اندلعت فيها النيران محاولًا تفاديها، وتوجه نحو سلم الشرفة محافظًا طوال ذلك على التواصل البصري مع بيتر.

أسرع بيتر يقول: «لم أكن أقصد إيذاءها...»، ثم توقف عن الحديث مدركًا أنه لن يستطيع شرح الأمر له بشكل كافٍ، وسأله بدلًا من ذلك قائلًا: «ماذا تريد يا باكس؟».

وضع باكس الصغيرة عند رجليه، حيث بدا حجمها صغيرًا للغاية. لكنها ما لبثت أن انسحبت سريعًا إلى ما بين قائمتي والدها الأماميتين، وهي ترتجف بشكل واضح.

مد بيتر يده بشكل تلقائي نحو الصغيرة لتهدئتها، لكنه تردد في البداية، ونظر إلى باكس ليرى ما إذا كان ذلك مقبولًا أم لا. ولما لم يجد أي معارضة من ناحيته، حرك إصبعه بلطف على جبهة الصغيرة، فشعر بهشاشة جمجمتها تحت فروها الحريري. ثم نظر إلى باكس متسائلًا: «ماذا هناك يا باكس؟ هل تريد بعض الطعام لها؟ لديَّ بعض الطعام هنا».

تجاوز باكس ابنته، وتوجه نحو بيتر مقتربًا منه واضعًا رأسه في الجزء الواقع بين ذقن بيتر وعظمة الترقوة، بالضبط كما اعتاد دومًا النوم بين أحضان صديقه. وشعر بيتر بدفء أنفاس باكس اللطيفة على أذنه. وفي هذا الوضع الأليف، حيث كانت حنجرتاهما ونبضاتهما

متقاربة، شعر بيتر بلفتة ثقة وتسامح من صديقه القديم مرة أخرى. فاغرورقت عيناه بالدموع إثر ذلك.

أطلقت الصغيرة صوتًا ضعيفًا، ثم حاولت النهوض اعتمادًا على قائمتيها الخلفيتين أولًا، فتوجه باكس نحوها، وانخرطا في فرك أنفيهما معًا بلطف، في محاولة لطمأنتها.

ثم دار نوع من التواصل غير اللفظي بين باكس وابنته، وتمكن بيتر من فهم مضمون ذلك بكل سهولة. لا بد أن أباها كان يطمئنها، ويخبرها بأنه يحبها، وأن كل شيء على ما يرام.

لكن حدث شيء ما أذهل بيتر تمامًا؛ حيث استدار باكس مبتعدًا عنها.

قفز بيتر من مكانه، وصاح: «إلى أين أنت ذاهب؟».

أسرعت الصغيرة في إثر والدها، لكنها تعثرت، وسقطت على جانبها الأيسر. ثم نهضت وعيناها تمتلئان ذعرًا. لكنها سقطت مرة أخرى بعد بضع خطوات، ثم أطلقت صرخة استغاثة تستنجد فيها بوالدها.

وما إن سمع باكس صرختها حتى توقف، ونظر إليها، لكنه لم يستدر عائدًا. وإنما نظر بدلًا من ذلك نحو بيتر.

وعندئذ أدرك بيتر مراده، فقال له بنبرة مرتعشة: «لا، أرجوك لا تفعل ذلك. عد إلى هنا!».

تقدم باكس إلى حافة الفناء، حيث بداية الغابة، ثم جلس، وأدرك بيتر ما كان ينتظره بالتحديد.

قال له: «لا أستطيع فعل ذلك، لن أستطيع».

لكن باكس ظل في مكانه جالسًا.

شعر بيتر بالخجل الشديد لاستشعاره مدى وثوق صديقه القديم به؛ لذا قرر ألا يخون ثقته به، فقال له: «حسنًا، سأعتني بها». ثم انحنى والتقط الصغيرة.

كان وزنها خفيفًا للغاية، تكاد تكون مجرد هيكل عظمي يعلوه فرو له عينان واسعتان خائفتان. أصدرت أنينًا موجعًا اعتصر قلب بيتر. وهنا نظر إلى باكس، ونادى عليه قائلًا: «باكس! انتظر رجاء. عد إلى هنا من فضلك».

لكن باكس نهض من مكانه، ثم اختفى في الغابة.

عندما رأى بيتر صديقه باكس وهو يغادر تاركًا إياه بصحبة صغيرته شعر بالوحدة والتخلي. لكنه مع ذلك انتابه شعور بالحاجة إلى الإنجاز وإكمال المسيرة، فكما سمح لباكس بالعودة إلى البرية، لأنه رأى أن هذا هو المكان الأنسب بالنسبة له، يترك باكس له ابنته الآن للسبب نفسه. وكان من الواضح أن باكس لن يترك ابنته ويغادر إلا إذا اضطرته الضرورة لذلك، وكان ذلك من أجل سلامتها بالتأكيد.

تذكر كلمات والده له عندما أخبره برغبته في العيش في منزل فولا، حين قال له: «إذا كنت تشعر بالراحة والأمان معها، فهي من عائلتك بكل تأكيد».

صاح بيتر محدثًا صديقه الذي تلاشى أثره: «أنت أب جيد يا باكس، لكنني لا أظن أن باستطاعتي أن أكون فردًا من عائلتك كما تظن».

حدق بيتر إلى تلك الصغيرة الخائفة الموجودة بين يديه. وتساءل عما إذا كان قد قام بإيذائها؟ فحصها من كثب، لكنه لم يجد أي علامات لجرح أو إصابة. وضعها بلطف على الأرض. تراجعت بحذر، لكنها تعثرت مرة أخرى، ما يشير إلى أن ساقيها اليسريين ليستا على ما يرام.

وفجأة أدرك الوضع، قائلًا: «يا إلهي! لا»، فرفعها عندئذ وضمها بالقرب من صدره، وتحديدًا تحت ذقنه. لقد تذكر ما أخبرته به جايد عن صغار الراكون، وتعرضها لمشكلات صحية منها

الارتعاش وعدم الاتزان نتيجة تعرضها للتسمم من المياه، فصاح: «إنها المياه إذن، لقد شربتِ من المياه الملوثة التي أصابتك بالتسمم».

تذكر حينها أيضًا العلاج الذي ذكرته جايد للتخلص من التسمم بالمعادن الثقيلة الموجودة في المياه، ويتضمن الحليب والفحم، وربما يضاف شيء آخر. يمكنه محاولة إعطاء هذا العلاج للصغيرة، ثم إطلاقها في البرية مع أبيها.

لكنه سرعان ما استبعد الفكرة، متذكرًا كلمات جايد بأن لا شيء من شأنه أن يزيل الضرر الناجم عن التسمم بشكل كامل. وعلاوة على ذلك، فإن تعرض الحيوان لخلل بسيط من شأنه أن يشكل خطرًا كبيرًا عليه في هذه البرية القاسية ما يجعله عرضة للافتراس من قبل الحيوانات الأخرى.

ربما كان سيفكر في تربية هذه الصغيرة في منزله لو قابلها عندما كان طفلًا، قبل أن يلتقي بباكس. لكنه لم يعد طفلًا حاليًا. أما الآن فهو يدرك بحكم خبرته أن الشيء الإنساني الوحيد الذي يمكنه القيام به هو اتباع نصيحة والده التي أمره باتباعها سابقًا مع باكس. وهنا توجه إليها بالحديث: «أنا آسف. لكنني أعدك بأنني لن أتركك تعانين بهذا الشكل، ومع ذلك لن أفعل هذا هنا؛ إذ ربما يكون أبوك قريبًا منك، أو يعود فجأة».

وضع بيتر الصغيرة بعناية فوق صندوق الرماد داخل حقيبة ظهره، لضمان عدم تعرضها للأذى أو السحق. ثم حمل حقيبة الظهر، وتوجه نحو السقيفة، وأحضر مجرفة، ومن هناك، انتقل إلى ورشة عمل أبيه في الطابق السفلي، حيث كان يحتفظ ببندقية صيد.

ودائمًا تجنب بيتر التعامل مع البندقية التي كان يحتفظ بها والده، ولم يتمكن قط من لمسها. وعلى الرغم من محاولات والده على مر السنين تعليمه كيفية استخدامها، كان يرفض ذلك باستمرار. فقد كانت مجرد رؤية هذه البندقية تشعره بالفزع، إذ تعتبر تذكيرًا صارخًا باقتراح والده إنهاء معاناة باكس باستخدامها.

لكنه الآن تغلب على تردده، ومد يده وتناول البندقية.

ثم بدأ بيتر رحلته نحو المقبرة ممسكًا بالبندقية في يد والمجرفة في اليد الأخرى.

41

بعد أن قطع مسافة قصيرة، انتابته رغبة ساحقة في العودة إلى صغيرته مرة أخرى.

توقف باكس، ثم اندفع نحو مجموعة من الشجيرات، وأخرج رأسه بحذر من بينها لمراقبة الوضع.

رأى بيتر وهو يضع صغيرته على الأرض، وأخذ وضع الاستعداد، فقد أراد في تلك اللحظة أن يركض نحوها لاستعادتها والعودة معًا من حيث أتيا.

لكن سرعان ما رفعها بيتر وضمها إليه، وتحدث معها بنبرة رقيقة مليئة بالمودة العميقة والحنان. واحتضنها بقوة أكبر، ما جعلها تتوقف عن محاولة التملص.

ومع ذلك ظل باكس مترددًا، وفي حيرة من أمره بين أن يتركها مع بيتر، أو أن يأخذها ويعودا أدراجهما معًا.

لكن في تلك اللحظة وضع بيتر الصغيرة في حقيبة ظهره.

عندئذ شعر باكس بأن قلقه قد تبدد؛ فقد كان يعلم جيدًا مدى أهمية هذه الحقيبة بالنسبة لبيتر. فدائمًا ما حملها سنوات عدة، وأبقاها دائمًا بالقرب منه ملتصقة بجسده. كما كانت مأوى لباكس نفسه فترة من الوقت في الماضي.

أصبح الآن على يقين بأن ابنته في أمان.

وبعد أن اطمأن قلبه لذلك، استدار باكس، وبدأ الركض. تسارعت وتيرته، وركض بشكل أسرع مصممًا على الاستمرار في الركض بلا هوادة، طوال النهار والليل، مدفوعًا بهدف لا يتزعزع. فقد عقد العزم على ألا تنتهي رحلته إلا عندما يصل إلى الجحر الموجود أسفل السقيفة في المزرعة المهجورة.

لم يركض بسرعة فقط، لأنه كان يشعر بالحنين والاشتياق الشديدين إلى تلك الثعالب التي تنتظره هناك.

ولا لاقتراب فصل الصيف وما يضفيه على البيئة من حولهم من جمال أخاذ ووفرة في الطعام والشراب.

وإنما أقدم على ذلك لأنه إن لم يفعل لتمزق قلبه حزنًا، وعاد وأخذ صغيرته، وربما كان في ذلك ضرر عليها.

42

وقف بيتر عند مدخل المقابر، وشعر بأنه غير قادر على الحركة كأن ساقيه مثبتتان في مكانهما.

وصل إلى المقابر عبر السير في منتصف الشارع الرئيسي الذي كان يخلو على غير العادة من أي سيارات على الإطلاق، ما زاد من شعوره بعدم الارتياح. لكن في غضون شهر تقريبًا، وبمجرد اكتمال عملية تنظيف المياه التي يقوم بها أفراد كتيبة محاربي تلوث المياه، سيبدأ الناس العودة إلى منازلهم ما يجعل الحياة أسهل إلى حد ما، لكنها مع ذلك لن تخلو من بعض التحديات. فقد أخبرته جايد بأن الأطفال في سن الثالثة عشرة لا يمكنهم العيش بمفردهم، ما جعل أمامه مشكلة أخرى يجب عليه أن يحلها، لكنه قرر تأجيل التعامل معها في الوقت الحالي.

أسند وجهه إلى البوابة الحديدية الضخمة للمقابر، ونظر باهتمام عبرها، فلاحظ أن الأعشاب التي تغطي أرضية المقابر التي دائمًا ما جرى الاعتناء بها وتشذيبها على أفضل ما يكون، قد أهملت مدة عام. فأصبح العشب الأخضر الخشن غير المستوى الذي تتخلله نباتات الهندباء وزهور الذرة، يحيط بشواهد القبور في مشهد غير لطيف على الإطلاق.

فتح البوابة وصعد الطريق المؤدي إلى قبر والدته، خيم الصمت التام على المكان حتى إنه كان يسمع صوت كل حصاة تدهس تحت رجليه.

وعندما وصل إلى شاهد قبرها، الذي كان يقع تحت ظل شجرة دردار مهيبة، وضع البندقية والمجرفة جانبًا. ثم غمره شعور بالارتياح عندما رأى شجيرة الغار الجبلية التي زرعها مع والده مزهرة يانعة، ومتناسقة مع الأعشاب المحيطة بها. فقال بصوت عالٍ: «كم أحب هذا المنظر الطبيعي، وأعتقد أنك تحبين ذلك أيضًا».

خلع بيتر الحقيبة من كتفيه، ووضعها على الأرض. ثم أخرج صندوق الرماد من داخلها، وأغلق الحقيبة مرة أخرى. فتح الصندوق، وأخرج ما به من كيس صغير، وتمتم بهدوء: «أعلم أنك تفتقد أمي أيضًا، وأعلم أنه كان من الصعب عليك الاعتراف بذلك. لذا أعتقد أن هذا هو المكان الأنسب لنثر رمادك بحيث تظل بجانبها».

رفع الكيس الثقيل عاليًا، وأفرغ محتوياته بعناية. وتدفقت حبيبات الرماد الخشنة أولًا بطريقة تشبه تساقط الثلوج، ثم تدفق الرماد الناعم. وقد امتزجت هذه الحبيبات واختلطت بسلاسة مع ما يحيط القبر من أحجار، وأعشاب طويلة، وزهور كأنها كانت تنتظر وصولها إلى هذا المكان بالتحديد منذ وقت طويل.

أمسك بيتر بالحقيبة الفارغة مرة أخرى والدموع تنهمر من عينيه مرة أخرى، بيد أنه لم يحاول مسحها. ثم وقف يخاطب والديه في آنٍ واحد منذ ست سنوات، قائلًا: «أتمنى لو أنكما لا تزالان معي. لقد كان يومًا مليئًا بالتحديات، ولم ينته بعد حتى الآن».

التقط بيتر المجرفة، وبدأ مهمته. في البداية، أزال جزءًا دائريًا من العشب بجوار شجيرة الغار الجبلية بعناية، حتى يتمكن من دفن الصغيرة وتغطيتها بالعشب الطبيعي الجميل. حفر حفرة عميقة بما يكفي لوضعها داخلها بأمان وتجنب إزعاجها من قبل الحيوانات المفترسة التي تنبش الأرض بحثًا عن طعام.

رفع بيتر البندقية، وما إن أسند الجزء الخشبي منها على خده حتى شعر بيديه ترتعشان. وأحس بساقيه ضعيفتين لا تقويان على حمله، لكنه حاول دعمهما من خلال المباعدة بينهما وتثبيتهما بقوة على الأرض. أحكم قبضته بثبات على البندقية، وسحب المزلاج لوضع الطلقة في حجرتها، ثم أغلق المزلاج بسرعة مقلدًا الإجراءات التي لاحظ والده يؤديها مرات عدة من قبل.

انحنى بيتر على ركبتيه، واستخدم يده الفارغة لفتح سحاب الحقيبة دون أن ينظر إلى الداخل. ثم نهض مرة أخرى، وشرع في رفع زر الأمان الموجود في البندقية. تردد صدى صوت النقر الناتج عن هذا الإجراء بصوت عالٍ في المقابر التي يغلفها جو من الصمت، ما خلق اضطرابًا ملحوظًا في الجو الهادئ.

رفع البندقية إلى خده مرة أخرى، وصوبها نحو الحقيبة المفتوحة، وقد ترطبت قبضة يده بالعرق ما جعلها زلقة. وقد قرر الضغط على الزناد بمجرد أن تظهر الصغيرة من الحقيبة، قبل أن تلتقي عيناه بعينيها الذهبيتين اللتين تذكرانه بعيني باكس. وترددت في ذهنه في تلك اللحظة كلمات والده التي ألقاها على مسامعه منذ سنوات عدة حاول جعل الأمر يتم بأقل قدر من الألم، فهذا هو الفعل الأفضل من الناحية الأخلاقية.

وعندما لم تظهر الصغيرة دفع بيتر الحقيبة برجله، لكن لم يتحرك داخلها أي شيء، تمنى في تلك اللحظة أن تكون الصغيرة قد وجدت طريقها إلى الهروب بطريقة ما. لكنه عندما سمع صوتًا خافتًا ذكره بصوت باكس عندما كان صغيرًا، أثار ذلك ألمًا عميقًا في أحشائه، وفجأة غمرته مشاعر جارفة، فألقى البندقية جانبًا، وذهب مسرعًا خلف الشجرة حيث بدأ يتقيأ.

بعد ذلك، جلس بيتر على العشب الطويل، ولف ذراعيه حول ركبتيه، وهو يتنفس بصعوبة. واغرورقت عيناه بالدموع نتيجة شعوره بالخزي والعار لما آلت إليه حاله، فها هو ذا مُلقى على العشب محتضنًا ركبتيه غير قادر على تلقي الدعم من والده، إذ كان كل ما تبقى منه هو ذلك الرماد الرملي المتناثر حوله على العشب الطويل. وبدا له كأن هذا الرماد ينتظره

حتى ينضج ويتخذ القرار الصحيح. وعندما مد يده ليلمس بعضًا من هذا الرماد، خطر بباله أن هذا دليل لا يمكن إنكاره على أن والده لم يعد على قيد الحياة، وأنه لن تكون هناك فرصة بعد الآن لتحسين علاقتهما.

لكنه أدرك أنه لم تعد هناك فرصة لجعل علاقتهما أسوأ أيضًا.

وبينما أخذ يحدق إلى الحقيبة، تخيل أن الصغيرة ترتعش في الداخل خوفًا مما قد يفعله بها. وفجأة أدرك شيئًا ما، وهو أنه ربما يكون إطلاق النار على تلك الصغيرة هو القرار الصحيح بالنسبة لوالده، لكنه ليس كذلك بالنسبة له. فلم يعد يرى أنه عمل شجاع، وإنما خسيس جبان. ولم يعد يهمه ما إذا كان تصرفه هذا يبدو محبطًا بالنسبة لوالده أو لأي شخص آخر؛ فهذه حياته، وهو صاحب القرار في عيشها بالطريقة التي يرتئيها.

زحف بيتر نحو الحقيبة، ثم نظر إلى داخلها، فرأى الصغيرة تنظر إليه وقد بدا عليها الخوف الشديد. أدرك بيتر مدى كبر حجمه بالنسبة لها. لكنه حاول تهدئتها، فتحدث إليها بنبرة هادئة قائلًا: «تعالي إليَّ، اخرجي. لا تقلقي، فلن أؤذيك. أنا فقط أريد أن أراك لأقرر ماذا سأفعل معك».

أحكم قبضته حول صدرها، فشعر بنبضات قلبها تتسارع، حاول إخراجها من الحقيبة، فسمع صوت مخالبها وهي تحاول الإمساك بقماش الحقيبة بقوة.

حاول إخراجها مرة أخرى من الحقيبة، لكنها تمسكت بها بقوة أكبر. على الرغم من مرضها، أظهرت طبيعة قوية وعنيدة، وتشبثت بقماش الحقيبة بقوة كبيرة، فاضطر بيتر إلى فصل مخالبها عن الحقيبة واحدًا تلو آخر. كانت تتلوى وتصدر بعض الأصوات الخافتة احتجاجًا على ذلك، لكنه تمكن في النهاية من إخراجها.

وبمجرد أن أخرجها لاحظ ظرف بني مجعد عالق بأحد مخالبها.

سرت قشعريرة باردة في جسده لدى رؤيته طابع البريد العسكري الملصق على الظرف، فقد نسي وجوده تمامًا خلال الشهرين الماضيين.

وهنا قرر أنه سيدفن هذا الظرف هنا في الحفرة التي حفرها من فوره دون أن يقرأ ما فيه.

أفلت الظرف من مخلبها، وكان على وشك إلقائه في الحفرة التي أعدها للصغيرة، لكنه تراجع ظنًّا منه أنه ربما لا يحمل أخبارًا سيئة كما يخشى. علاوة على أنه قرر التحلي بالشجاعة هذا اليوم، ومن ثم من الشجاعة أن يُقدم على قراءة ما ورد فيه.

جلس بيتر، وضم الصغيرة بين ساقيه، ثم فتح الظرف البني. وبينما كان يفعل، سقط مظروفان أبيضان. بدا أن أحدهما يحتوي على رسالة رسمية من الجيش، بينما بدا أن الآخر يحتوي على رسالة عادية.

كانت رسالة الجيش قد فُتحت بالفعل، بالتأكيد من قبل جده. الذي قال له لقد مات أبوك بسبب أفعاله الحمقاء. لكن بيتر مع ذلك أخرج التقرير الرسمي من المظروف.

لم يكن الأمر أفضل مما كان يخشى، بل أسوأ.

كان بيتر وجده على علم بأن والده قُتل بقذائف هاون من العدو. وقد أفادت الأخبار الواردة بأن والده لم يكن مخولًا له الخروج من الموقع في ذلك الوقت. وعلى الرغم من كون خروجه من الموقع دون إذن أمرًا سيئًا، لم يكن الأسوأ. فقد ذكر التقرير أنهم وجدوا مؤن في السيارة الجيب التي كان والده يستقلها، ما يشير إلى سرقته ممتلكات حكومية، بالإضافة إلى بعض الأموال، بما يعني أنه ربما كان يخطط للفرار من الخدمة العسكرية. ووفقًا للقواعد العسكرية تطلبت هذه التصرفات تغيير حالة والد بيتر إلى جندي غير شريف نظرًا لما بدر منه من أخطاء فادحة.

مزق بيتر الرسالة، وألقى بها في القبر الذي كان قد أعده للصغيرة.

ثم التقط المظروف الثاني. ويبدو أنه يحتوي على بطاقة. فقد أُرسلت العديد من بطاقات التعزية إلى جده، وقرأها بيتر بالفعل. وكانت تحتوي على عبارات من قبيل «كان ابنك صالحًا»، «لقد نلت شرف الخدمة مع ابنك». وتساءل بيتر عندئذ عما إذا كان الأفراد الذين أرسلوا تلك البطاقات سيحافظون على الشعور نفسه تجاه والده لو أنهم عرفوا محتويات التقرير المتعلق بتصرفاته المشينة.

كُتب على الظرف خاص بابنه فقط، لكن جده كان قد اطلع عليه أيضًا.

وإذا كان بيتر قد اتخذ قراره بأن يكون شجاعًا اليوم، فمن الضروري بد أن يستمر في التحلي بالشجاعة دون تراجع.

أخرج بيتر البطاقة، ولاحظ أنها فارغة. لكنه وجد بداخلها ورقة مدسوسة من ورق دفتر الملاحظات المسطر. فتحها بيتر وبدأ القراءة.

لقد رأيتك مرة واحدة عندما أتيت إلى القاعدة العسكرية لرؤية والدك، وكنت تسير على عكازين.

بعد مجيئك، بدأ في إبداء رغبته في التحدث معي. وكنت راغبًا في ذلك؛ إذ كنت على وشك أن أصبح أبًا لتوأمين، وكنت أرغب في التحدث عن ذلك بشكل مطول لما كنت أشعر به من فرح وفخر.

أنا آسف لأنني لا أتذكر اسمك، لكن يجدر بي أن أتذكره؛ فأنت من كان يتحدث عنه ليلًا ونهارًا. فقد حدثني عن قدرتك على الصمود وتحملك للسير مسافات طويلة على عكازين، وكان فخورًا جدًّا بقوتك. كما ذكر إعجابه الشديد بذكائك ولطفك، مشيرًا إلى أنك ورثت هذه الصفات من والدتك. كما قال إن لديك مهارة كبيرة في التعامل مع الحيوانات، واصفًا

إياها بأنها سحرية، وكان يعتقد أنه لا يجوز التقليل من شأن هذه المهارة أو التغاضي عنها، مدركًا أهمية هذه الرابطة بالنسبة لك. كما حكى لي موقفًا متعلقًا بثعلب صغير مريض كان لك الفضل في رعايته، بيد أنني لا أتذكر كل تفاصيل هذه القصة في الوقت الحالي.

على أي حال، أعتقد أنه كان يريد مني أن أخبرك بشيء مهم: إنه لم يحاول الهروب من الخدمة. صحيح أنه قد خرج دون إذن مسبق، لكنه لم يكن ينوي الهرب على الإطلاق. لقد كان لديه دافع قوي للقيام بما قام به، وهذا الدافع هو أنا.

ما حدث كالآتي: لم يحدث أي تواصل بيني وبين زوجتي منذ أكثر من أسبوع. وكان من المفترض أن تلد طفلينا قريبًا، لذا انتابني قلق شديد بشأن صحتها، وكنت في أمس الحاجة للاطمئنان عليها. ولم يكن بمقدوري العودة إلى المنزل؛ إذ لم يُسمح لأي فرد بالمغادرة. لذا فكرت في الهرب، وعلى الرغم من عدم وجود خطر مباشر، مثل التعرض للقتل، فإنني لم أستطع المخاطرة بتعريض وظيفتي ودخلي للخطر مع اقتراب وصول طفلين. لكن القلق كاد يفتك بي؛ لذا قررت المغادرة غير مهتم بما قد يحدث نتيجة ذلك.

أخبرني والدك بأنه يتفهم جيدًا شعور القلق بشأن فقدان الزوجة.

لذلك، تطوع للذهاب بدلًا مني. وقدر أن الأمر سيستغرق أربع ساعات ذهابًا وأربع ساعات أخرى إيابًا، وأكد لي أن غيابه لن يثير أي شك. وكان ينوي الاطمئنان على صحتها، وتزويدها ببعض المال والطعام كنت قد ادخرتهما، ويعود قبل الفجر.

لكنه لم يعد كما كان مخططًا له.

ولا بد أن تعلم أن أباك لم يترك المعسكر دون تصريح كما نمى إلى علمك. وإنما تطوع للذهاب في مهمة من أجل صديق. وهكذا أصبح هناك طفلان يملكان أبًا، فقط لأن أباك ضحى بنفسه في سبيل ذلك، فُحرمت أنت منه. وحافظ والدهما على دخله الثابت كما تمنى وكل ذلك بفضل والدك أنت.

لم أخبر أي أحد بما حدث تلك الليلة على الإطلاق، لكنني سأظل أشعر بالخزي والعار لجبني ما حييت، بيد أنني أثق بك في الحفاظ على سري. فما زال طفلاي بحاجة إلى راتبي.

لكن القرار في النهاية يرجع إليك.

لكنني شعرت بأنك لا بد أن تعرف الحقيقة.

أعتذر لك حقًّا عما حدث بسببي.

جندي توماس روبرتس

ظل بيتر ساكنًا، والرسالة موضوعة على فخذه، لكنه لم يكن ينظر إليها في تلك اللحظة حقًّا. وقد نمى إلى سمعه في تلك الأثناء طنين النحل حول زهور الذرة، وصيحة صقر مرتفعة، لكنه لم يكن منتبهًا لما يجري في محيطه. فلم يكن عقله حاضرًا في اللحظة الحالية. بل انتقل بذهنه إلى مكان مختلف تمامًا، حيث تصور نفسه يذهب إلى المصنع القديم، حيث يستقل سيارة جيب سرًّا دون إذن، مستخدمًا أساليب غير تقليدية لتشغيلها، والتأكد من إطفاء أنوارها، وإسكات المحرك لتقليل الضوضاء المنبعثة منها، وتجنب اكتشافه. وعلى الرغم من المخاطر التي تنطوي عليها هذه المهمة، فإنه يقوم بها من منطلق الشعور بالرحمة واللطف، وتجسيد الخصائص المرتبطة بالرجولة وتحمل المسئولية من أجل الآخرين.

لقد قال له والده في آخر لقاء لهما معًا إنه سيتغير، وما ذاك الخطاب الموجود على فخذه إلا دليل واضح على ذلك.

نظر نحو شاهد قبر والدته متمنيًا لو شارك تلك الأخبار معها. وتذكر كلماتها الأخيرة له بخصوص والده، حيث قالت له: لا تكن مثله أبدًا. لكنه عندما تأمل محتوى الرسالة، تيقن أنها إذا تسنى لها قراءتها، لكانت قالت له كن مثل أبيك. كن مثل أبيك دائمًا.

لقد تغير والده حقًّا، وأصبح الشخص الذي تمنت والدته دائمًا أن يكون عليه. وأدرك فجأة شيئًا آخر، وهو أن قبول والده ذهابه للعيش مع فولا كان يحمل بين طياته جوهر تأثير والدته عليه.

ثم قال بصوت عالٍ أمام قبر أمه معترفًا بما فعله: «لقد أفسدت الأمر مع فولا. وعاملتها بشكل سيئ. وأعتقد أن هذا هو السبب وراء شعوري بأنني خذلتك. لكنني قررت أن أغير ما حدث. إنها لن تحل محلك أبدًا، لكنها ستحتل مكانة أخرى مميزة، وأعتقد أنك ستكونين سعيدة لوجودي معها».

بعد قراءة الرسالة مرة أخرى، ومع علمه هذه المرة بمحتواها، شعر بالرغبة في الصراخ في وجه والده ليقول له لا تفعل ذلك! إنها زوجته هو، وليست زوجتك، اتركه يذهب بمفرده! وتصاعد الغضب داخله تجاه ذلك الرجل الذي تسبب بشكل غير مباشر في وفاة والده. لكنه عندما تأمل هذه المشاعر جيدًا، أدرك أنها كانت مجرد مشاعر استياء لطفل يبحث عن شخص يلومه. فقد أدرك هذه الحقيقة جيدًا.

قرأ الرسالة للمرة الثالثة، لكنه شعر بالفخر يغمره مع كل جملة يقرؤها، كان شعورًا عميقًا وغير مألوف بالنسبة له، حتى إنه شعر بأن قلبه يتسع لاستيعاب هذه المشاعر.

لكن الجملة التي أدهشته بشدة كانت مشاعر والده التي عبر عنها حين قال إن لديه مهارة كبيرة في التعامل مع الحيوانات، بل يمكن وصفها بأنها قدرة سحرية تقريبًا في التواصل معهم، ولا يجوز أبدًا التقليل من شأن هذه المهارة أو التغاضي عنها لما لهذه الرابطة من أهمية بالنسبة له.

عندما أعاد بيتر قراءة تلك الجملة تحديدًا، اندهش عندما أدرك أن أصابعه كانت تداعب دون وعي رقبة الصغيرة التي غطت في النوم العميق على فخذه. وسرعان ما سحب يده.

استيقظت الصغيرة، وأصدرت أنينًا خافتًا متسائلًا، لكن يبدو أن نبرة الخوف قد تبددت من صوتها. بيد أنه كان لا يزال يحمل شعورًا بالشوق والوحدة.

رفعها بيتر بلطف، فكان وجهها مقابلًا لوجهه، ولم تبدِ أي مقاومة هذه المرة. ثم نظرت إلى عينيه نظرات عميقة كأنها تحاول الغوص داخل روحه بحثًا عن شيء مهم.

لكن بيتر كان هو من توصل إلى استنتاج مهم.

جذبها أكثر بالقرب من رقبته، وتمتم قائلًا: «لا أعرف ما الذي سأفعله معك حتى الآن»، ثم انحنى، ووضع البندقية بجانبه، بعد أن أعاد زر الأمان إلى مكانه قائلًا: «لكنني لن أتخذ هذا الخيار بكل تأكيد».

نهض بيتر من مكانه، وأعاد الصغيرة إلى الحقيبة مرة أخرى. ثم أمسك بالمجرفة، وواصل الحفر، وبدأ في توسيع الحفرة الصغيرة التي كان قد حفرها بالفعل. وحفر خندقًا بطريقة منهجية ومنظمة بحيث يسير في خط مستقيم بطول كافٍ مع الحرص على عدم إتلاف العشب المحيط أثناء الحفر.

ثم وضع البندقية في الخندق وغطاها بالتراب الناعم والعشب الطبيعي المشذب. بدا أن هذا الإجراء هو الخيار المناسب الذي يجب عليه اتخاذه في الوقت الحالي.

43

ظل باكس يركض.

لقد ركض دون توقف لمدة يومين، مدفوعًا بشوق شديد للم شمله مع عائلته. لكنه ما إن ألقى أول نظرة على جحره منذ مغادرته إياه حتى توقف فجأة.

رأى عبر المنطقة العشبية المفتوحة الواقعة أمام السقيفة ثعلبين صغيرين ذوي فرو لامع وهما يمرحان ويلعبان بثبات، وقد اشتد عودهما. استرخت بريسل على إحدى درجات السلم المؤدية إلى السقيفة التي تعلوهما بقليل ما يضمن لها مراقبة جيدة لصغيريها بينما ألقى ضوء الشمس وهجًا نحاسيًّا على كتفيها.

تسلق باكس صخرة واقعة بجوار المسار المؤدي إلى السقيفة، واستقر عليها. ثم جلس في عكس اتجاه الرياح لذا لم يستطع صغيراه شم رائحته. شعر بالدهشة لدى رؤيتهما وقد أصبحا أكثر نضجًا وقوة، وأراد فقط أن يقضي لحظة لمراقبتهما وهما يمرحان هكذا.

لقد أصبحا على القدر نفسه من القوة والمهارة الآن. على الرغم من أن الابن الأقوى ذا البنية الضخمة ظل أكبر حجمًا وأكثر قدرة على التغلب بسهولة على أخيه الأصغر، فقد شهد الابن

الآخر أيضًا زيادة في الطول وخفة في الحركة، فأصبح بإمكانه الآن التحرر بسرعة من قبضة أخيه وشن هجوم سريع عليه قبل أن يتمكن الأكبر من الرد.

بدوا مختلفين تمامًا عن ابنته التي تركها وراءه. فقد كانا يتحركان برشاقة وخفة، وقد خلت أفعالهما من أي حماقة سابقة. وبدا أن لديهما طاقة لا حدود لها، وانخرطا في أنشطة مرحة بحيوية وثقة، حيث أخذا يقفزان ويتدحرجان، ويعض كل منهما الآخر بشكل مرح. ثم ينفصلان، حيث يستكشف كل منهما بمفرده بعض العجائب الآسرة التي تجذبه إليها مثل أغصان التوت المتمايلة، وأصوات بعض الحشرات، حتى ذيلاهما لم يسلما من استكشافاتهما ومرحهما.

نهض باكس من مكانه مليئًا بإحساس عميق بالفخر والحب.

وفي الوقت نفسه، استدارت بريسل فجأة نحوه. وما إن رأته حتى ارتفعت أذناها في دهشة، وحركت ذيلها. ثم قفزت السلم برشاقة متجاوزة صغيريها دون أن تسبب إزعاجًا لأي منهما.

قفز باكس من الصخرة أيضًا، وبدأ على الفور الركض نحو زوجته. عندما وصل إليها، استقبلها بحرارة بلمسات حنون، وصيحات مبتهجة. وما إن لاحظهما الصغيران حتى اندفعا نحوهما بحماس شديد، وأخذا يربتانهما ببراثنهما بلمسات حنون متشوقة، وأمطرا والدهما بوابل من القبلات على طريقتهما.

تراجعت بريسل إلى الخلف مفسحة المجال لهما للترحيب به بعد هذا الغياب.

عندما اقترب باكس من ابنيه تفاجأ مرة أخرى بمدى نموهما، وكبر حجمهما، وقوتهما المثيرة. اصطدما به، وقفزا على ظهره، وشعر بعضلاتهما تضغط على عضلاته. وانخرط ثلاثتهم في نشاط مرح من خلال الانقضاض على نبات الصنوبر والتعامل معه كأنه فريسة،

ثم أخذوا يمررونه ذهابًا وإيابًا فيما بينهم. ثم تناوب الصغيران بعد ذلك إظهار المهارات التي اكتسباها حديثًا قبل التوجه سريعًا نحو باكس لإظهار مزيد من الحب والمودة له.

ثم سقطا على الأرض، أحدهما فوق الآخر، في حالة من الإرهاق الشديد، وهما يتنفسان بصعوبة أثناء استلقائهما بجوار باكس تحت أشعة الشمس الدافئة.

عندئذ اقتربت بريسل من زوجها.

وبدأت الاعتناء به من خلال لعق أذنيه وشواربه، وضلعه المكسور وسيقانه التي تحملت رحلة العودة الطويلة إلى عائلتها. ثم فركت خدها في لفتة حنون بخده، فامتزجت رائحتهما في لحظة اتصال لطيفة.

وأثناء اعتنائها به، شمت رائحة ابنتها على فروه.

وقد أخبرها رانت من قبل بأن ابنتها برفقته، لكنها مريضة مرضًا شديدًا. فسألته بلهفة: هل ماتت ابنتنا؟

أجابها باكس مطمئنًا إياها لا إنها بخير. وأخبرها بكل ما حدث لها.

شعرت بريسل بالأسف والإحباط لدى علمها بترك باكس ابنتهما لدى ذلك الصبي المدعو بيتر. لكنها هدأت قليلًا بعد أن أخبرها باكس بأن ابنتهما ما كانت لتنجو خلال رحلة العودة إلى المنزل. كما كانت تعلم جيدًا أن بعض البشر مسالمون، فليسوا جميعًا يشكلون مصدر تهديد. وتذكرت هؤلاء الذين كانوا يعملون على تنقية المياه عند البحيرة، لقد كانوا مسالمين، وقد شاركوهم بعض الطعام والمواد الأخرى بسخاء. وهنا سألته لمزيد من التأكيد: هل تثق بهذا الصبي؟

أجابها: بالطبع أثق بصديقي.

فسألته مجددًا: هل سيعتني بها حقًّا؟

أجابها: نعم. بكل تأكيد. بدا باكس متأكدًا من ذلك.

وعندئذ شعرت بريسل ببعض الراحة.

لكن عائلتهما على أي حال قد فقدت أحد أفرادها.

أعرب باكس وبريسل عن حزنهما، فانخرطا في إصدار صرخة حزينة تعبر عن مدى حزنهما وتأثرهما بغياب ابنتهما. وعلى الرغم من أن ابنيهما لم يسمعا هذه الصرخة من قبل، فقد فهما مغزاها؛ إذ يبدو أن مدلولها متأصل فيهما منذ الولادة، كأنها غريزة طبيعية تنتقل عبر الأجيال.

ظهر رانت بعد قليل، وانضم إليهم على الفور. وقفت الثعالب الخمسة جنبًا إلى جنب، وأطلقت صرخات حزينة معبرة عن تأثرها الشديد بغياب أحد أفراد عائلتها. ولم تنقل هذه الصرخات حزنها الشخصي فقط، وإنما تجربة الحزن العالمية التي تشعر بها جميع المخلوقات على وجه الأرض. ولم تخلُ وقفتها الحزينة هذه من ترديد بعض أهازيج الفرح والتفاؤل معترفة بأنه في مواجهة المأساة أيضًا. لا تزال هناك سعادة وجمال في الحياة.

44

وضع بيتر حقيبته القماشية على الأرض، ثم نظر إلى الكوخ الصغير.

رأى بيتر عشًّا مثبتًا إلى إحدى العوارض الخشبية بما يشير إلى أن الطائر وجد في هذا المكان ضالته، وقرر العيش فيه. ولاحظ نمو زهور جديدة عند أطراف شجرة الغار الجبلية التي زرعها عند عتبة الباب الخرسانية. بيد أن إطار الباب المصنوع من الخشب المقطوع حديثًا الذي كان لا يزال نابضًا بالحياة عند رحيله، بدأ بالفعل في التدهور خلال مدة غيابه التي استمرت ستة أسابيع.

انتابته رغبة ملحة في فتح الباب والدخول إلى الكوخ، لكنه قاومها. فلم يعد هذا الكوخ يخصه.

مرر يده على بعض جذوع الأشجار المستخدمة في بناء جدران الكوخ، ورأى أن جميعها كانت مستقيمة وسليمة تمامًا، ولم يتقلص حجم أي منها. لكنه لاحظ وجود كتلة بارزة من الطلاء تحت حافة النافذة.

أخرج بيتر سكينًا من جيبه الخلفي، وأمسكها في يده، وأخذ ينظر إليها، وقد افتر ثغره على الفور عن ابتسامة بسيطة. فقد تذكر كيف أُعجب صامويل بشدة بالسكين المماثلة التي أعطاه بيتر إياها وهي مطابقة تمامًا للسكين التي يمسك بها الآن. فكلتاهما مصقولة وحادة تمامًا كأنهما جديدتان تقريبًا. وبالمثل أحبت جايد هدية زفافها التي أهداها إياها، حيث قدم لها زوجًا من الجوارب الصوفية الطويلة المخططة بألوان عصا الحلوى. وهي أحد مقتنيات والدته الثمينة. لكنه أدرك أن القيمة الحقيقية للهدايا التي شاركهما إياها لا تكمن في الهدايا نفسها، وإنما في المشاعر الطيبة التي أثارتها داخله، وهي فرحة مشاركتها مع الأشخاص الذين سيقدرونها. فمع أنها لا تعني أن والديه ما زالا على قيد الحياة، فإنها تعني أن مقتنياتهما لا تزال ذات أهمية، وذلك في سبيل تخليد ذكراهما.

فتح نصل السكين، واستخدمه لإزالة الطلاء الزائد.

ثم واصل العمل، وشرع في إزالة جزء من الجص المستخدم في ملء الفجوات بين جذوع الأشجار المستخدمة في عمل جدران الكوخ حتى أحدث فتحة صغيرة. نظر من خلالها إلى الداخل، فرأى ضوء الشمس منعكسًا على جزء من الأرضية ما زادها لمعانًا. وشعر حينها بأن الكوخ يتنفس الصعداء مرحبًا به.

لكنه ذكر نفسه سريعًا بأنه لم يعد كوخه الآن.

وعندما بدأ السير على طول الطريق، ازداد شعوره بالخوف وعدم اليقين مما قد يحدث. ولم يستطع إلا أن يفكر في كيفية استقبال فولا له بعد الطريقة التي تركها بها آخر مرة، وبعد تلك الكلمات الموجعة التي قالها لها، وكانت كذبًا بينًا يخلو تمامًا من الحقيقة. وبعد تلك اللحظة عندما كانا في الشاحنة، وعبرت له عن شعورها تجاهه، وأنها تعتبره فردًا من عائلتها، وبدلًا من أن يعبر لها عن حقيقة مشاعره، وأنه هو أيضًا يراها جزءًا من عائلته، امتنع عن التعبير عن حقيقة مشاعره، وكتم الكلمات داخله.

وما إن وصل بيتر إلى عتبة منزل فولا حتى فكر في الالتفاف والعودة من حيث أتى، لكنه أدرك حينها أن الأوان قد فات.

رآها بيتر وهي تقف بالقرب من الموقد، تُحرك شيئًا ما في وعاء. وعندما شعرت بوجوده، استدارت نحو الباب الشبكي. ولاحظها بيتر وهي ترفع مئزرها إلى وجهها، وتساءل عما إذا كانت تمسح بعض الدقيق أم أنها تبكي. في تلك اللحظة، شعر برغبة عارمة في البكاء.

رفعت يدها، ولوحت له بالدخول.

خلع بيتر حقيبة ظهره، وأسندها إلى إطار الباب، ثم فتحه ودلف إلى الداخل.

اتخذت فولا خطوة نحوه تحمل إحساسًا بالدهشة وعدم التصديق، كأنها تنقل تساؤلًا غير معلن: «هل أنت هنا، هل أتيت حقًّا؟».

اتخذ بيتر خطوة نحوها تحمل القدر نفسه من الدهشة، لكنه سعى إلى طمأنتها قائلًا: «نعم، أنا هنا».

وصلت رائحة الخوخ الممزوجة بالقرفة والزبد إلى أنف بيتر، ما أثار إحساسًا بالجوع داخله.

قالت فولا متوقعة شعوره بالجوع: «هل أضع مقعدًا إضافيًّا حول مائدة الطعام؟».

أجابها: «نعم، لو سمحت».

فقالت له: «لكن يجدر بي أن ألفت نظرك إلى أن جدك قد يأتي».

نظر بيتر إلى وجهها محاولًا إيجاد أي تفسير لما قالته في الحال.

عندئذ أضافت فولا: «إنه يأتي إلى هنا بعد ظهر كل يوم أحد بانتظام دون تأخير، مدعيًا أنه يأتي لمساعدتي، لكنني جعلته يعتقد أنني صدقته. فهو في الحقيقة كان يعيد بناء سقف

الحظيرة، وينهي عمله بشكل ملائم قبل وقت تناول العشاء مباشرة».

سألها بيتر مجددًا: «هل هذا يعني أنه يتناول معك وجبة كل أسبوع؟».

أجابته: «نعم. لكن هذا ليس الغرض الأساسي من زيارته الأسبوعية، وإنما يحضر معه صحف الأسبوع، ويضع دائرة حول جميع المقالات التي تتحدث عن كتيبة محاربي تلوث المياه، ويقرؤها عليَّ بصوت عالٍ وأنا أطهو الطعام. ثم يتساءل عما تفعله في الوقت الحالي. سيشعر بسعادة غامرة عندما يجد زائرًا غير متوقع هنا».

قال عندئذ: «حسنًا، سيجد اثنين من الضيوف غير المتوقعين. فقد أحضرت ضيفًا جديدًا معي».

نظرت فولا خلفه إلى خارج الباب الشبكي.

فقال لها بيتر: «لا. إنه ليس ضيفًا معتادًا»، ثم فتح الباب، ورفع الحقيبة من الأرض، ودخل بها، ثم فتحها. شهقت فولا من فرط الدهشة لدى رؤيتها ذلك الوجه الفضولي الصغير الذي يطل من داخل الحقيبة.

أطلق بيتر سراح الصغيرة ذات الفرو النحاسي اللامع التي كانت تتلوى بين يديه. لعقت الصغيرة وجهه على ما يبدو لطمأنته بأنها لن تسبب له أي مشكلة، ثم دفعته برجليها محاولة النزول إلى الأرض.

وضع بيتر الصغيرة على الأرض بلطف، وبدأت على الفور فحص رجل فولا وطرفها الاصطناعي بدقة. حركت أذنيها في إشارة إلى رضاها عما اكتشفته، وأنها وجدت أن فولا لا تشكل أي خطورة بالنسبة لها، ثم انطلقت بسعادة لتستكشف المطبخ.

ضحك بيتر قائلًا: «لا بد أن تعرف كل ما يحدث».

شاهدا الصغيرة وهي تدور بخطوات واثقة في المطبخ. لكنها توقفت عند نقطة محددة بجوار الحوض، ثم وقفت على قائمتيها الخلفيتين وهي تستنشق الرائحة بلهفة شديدة.

ضحك بيتر مرة أخرى: «هناك بيض على المنضدة، إنها تحب البيض بشدة بالضبط مثل أبيها».

لاحظ أن ذكر باكس لم يسبب له أي ألم للمرة الأولى منذ عام. ثم قال لفولا: «عليك أن تكوني حذرة، فهي تشم رائحة البيض من مسافة بعيدة. ففي كل مرة كنت أنظر فيها إلى أعضاء كتيبة محاربي تلوث المياه، أجدهم يطعمونها بيضة».

قالت له فولا: «يبدو أنها جائعة، فلتعطها بعض البيض».

أحضر بيتر طبقًا وكسر بيضة ووضعها داخله. ثم تذكر لطف جايد مع طائر القرقف. فأعطى الطبق لفولا لتقدمه بنفسها للصغيرة، قائلًا: «عليك أن تطعميها بنفسك، فلا بد أن تتعرف عليك وتطمئن لك ما دمنا سنعيش هنا معًا».

تناولت فولا الطبق منه، وهي مشدوهة، وسألته: «وأنت أيها الصبي، هل ستعيش معنا هنا حقًّا؟».

وأخيرًا نطق بيتر بالكلمات التي دفنها دائمًا في أعماقه: «صحيح يا فولا إنك لست أمي، لكنك تحتلين مكانة خاصة لديَّ كأحد أفراد عائلتي. إنني أشعر بالراحة والأمان معك. وأنا سعيد حقًّا بوجودي هنا، وأعتقد أن والديَّ سيسعدان بذلك أيضًا، لذا إذا كان العرض الذي قدمته لي ما زال متاحًا، فإنني...».

سألته في دهشة: «عرض! أي عرض؟».

ارتجف قلب بيتر، وقال متلعثمًا: «أن أعيش معك هنا للأبد. وأن يكون هذا المكان هو منزلي ووطني الجديد. لقد قلت ذلك. أظن أنك عرضت عليَّ هذا العرض».

قالت له: «أوه، لا، لا، لا. لم يكن هذا عرضًا. كنت ببساطة أبلغك بما أنوي فعله. وقد أعددت الورق اللازم لذلك، وسجلت الأرض باسمك بالفعل، إنها لك الآن».

شعر بيتر بموجة من الارتياح تغمره. بينما تدفقت على خديه عدة قطرات من دموع، فمسحها. وقال لها معربًا عن امتنانه: «شكرًا لك».

قالت فولا بنبرة هادئة تحمل إحساسًا بالدهشة وعدم التصديق: «سوف تبقى هنا! أخيرًا!» ثم مدت يدها لتمسح قطرات الدموع التي انسابت على خديها، فابتسم كلاهما في هذه اللحظة.

في تلك اللحظة، أصدرت الصغيرة صيحة بسيطة تشير إلى أنهما قد تجاهلاها فترة طويلة بما يكفي. فوضعت فولا الطبق على الأرض، ومدت يدها لتداعب ظهر الصغيرة وهي تنظر إلى بيتر.

قال لها بيتر مطمئنًا إياها: «استمري، لا تقلقي. إنها ودود مع الآخرين. كان باكس يألفني أنا وأبي فقط، وكان حذرًا للغاية من التعامل مع غيرنا. أما هذه الصغيرة فقد كوَّنت صداقات مع العديد من الأشخاص».

بعد أن انتهت الصغيرة من تناول البيضة كلها، لعقت كاحل فولا بأدب امتنانًا على تقديمها الطعام لها، ثم غادرت.

لاحظت فولا مشيتها، وسألت بيتر: «هل تعرج؟».

أجابها بيتر: «قليلًا فقط. لقد كان الأمر أسوأ من قبل، أما الآن، فيكاد يكون غير ملحوظ، أليس كذلك».

قالت له: «نعم، ولكن هل كان ذلك نتيجة إصابة ألمَّت بها؟».

التقط بيتر أولًا تلك المستكشفة الصغيرة التي كانت على وشك الانقضاض على المكنسة، ثم أوضح لفولا الأمر قائلًا: «لقد تسممت جراء المعادن الثقيلة الموجودة في مياه النهر بعد أن شربت منه كثيرًا. وذلك قبل أن نقوم بتطهير هذه المياه. لقد ساعدتني صديقتي جايد على علاجها وتخليص جسمها من هذه السموم. لكنها في الغالب لن تتمكن من الركض بسرعة كبيرة، ولست متأكدًا مما إذا كانت حاسة السمع لديها قد تأثرت بما حدث لها أم لا. لكنها لن تتمكن من البقاء على قيد الحياة إذا عاشت في البرية، حيث سيقتلها أي حيوان كبير يهاجمها».

ضم بيتر الصغيرة إلى صدره بقوة، مفكرًا في أنه منذ شهر واحد فقط، كاد هو شخصيًّا أن يقتلها، ثم أفلتها من بين يديه، وقال لفولا: «لكنها ستكون بخير معي، ومعك، ومع جدي، وسوف يعشقها كل من بن وأخته أستريد بالطبع، و...».

أوقفته فولا بإحدى نظراتها الثاقبة من ذلك النوع الذي يشير إلى أنها على وشك طرح سؤال صعب، وتتوقع إجابة صادقة عليه، وبالفعل سألته قائلة: «ما الذي حدث أيها الفتى، ما الذي غير وجهة نظرك هكذا، ألم تقل لي من قبل إنك لا تريد أي شخص معك على الإطلاق؟».

أشار بيتر نحو الصغيرة التي كانت عالقة في سلة من الخيوط بالقرب من أريكة فولا، قائلًا: «إنها هي السبب».

جلست فولا بجانب السلة، وسمحت للصغيرة بشم إصبعها للتعرف عليها قبل أن تربت جبهتها بلطف، ثم قالت لها: «شكرًا لك على ما أحدثته في بيتر من تغيير يا...؟». ثم نظرت إلى بيتر وسألته: «هل سميتها؟».

هز بيتر رأسه بالنفي، وقال: «لا. إنها هي التي سمت نفسها. أعرِّفك على زهرة».

قالت فولا: «زهرة، حقًّا؟ يبدو أنها قد غيرت حياتك بالفعل، وجعلتها مزدهرة».

أومأ بيتر بالإيجاب قائلًا: «نعم. لقد اخترقت حياتي، الجرداء وحولتها إلى مروج يانعة دون أن ألحظ قيامها بذلك أيضًا».

الغلاف الخلفي

"تستكشف هذه القصة الخيالية المنسوجة بعناية موضوعات عدة، من بينها الرابطة بين الإنسان والحيوان ومعالجة الاضطرابات العاطفية وتداعيات الصراع وتأسيس عائلة داعمة".

- مجلة ذا هورن بوك (تقييم مميز)

"يفحص هذا الجزء بمهارة التوازن الدقيق بين الضعف والقوة المتأصلين في قلب الإنسان. إنها تتمة رائعة حقًا للجزء الأول من الرواية".

- مجلة كيركس ريفيوز (تقييم مميز)

"يستكشف هذا الكتاب بدقة وبراعة بعض المفاهيم الأساسية المتعلقة بالمنزل والأسرة والحب؛ تلك التي تضفي معنًى رائعًا وعميقًا على وجودنا وكل شيء من حولنا".

- آيه. إل. آيه بوكليست

ISBN 628-1072-15-930-7
282209292
BALZER + BRAY
An imprint of HarperCollinsPublishers

امسح الكود للنسخة الإلكترونية

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore

1. الغلاف
2. الغلاف الأمامي
3. حقوق الطبع والنشر
4. الأغلفة الداخلية
5. مؤلفات أخرى بقلم سارة بينيباكر
6. ملاحظة المؤلفة
7. إهداء
8. 1
9. 2
10. 3
11. 4
12. 5
13. 6
14. 7
15. 8
16. 9
17. 10
18. 11
19. 12
20. 13
21. 14
22. 15
23. 16
24. 17

18 .25
19 .26
20 .27
21 .28
22 .29
23 .30
24 .31
25 .32
26 .33
27 .34
28 .35
29 .36
30 .37
31 .38
32 .39
33 .40
34 .41
35 .42
36 .43
37 .44
38 .45
39 .46
40 .47
41 .48
42 .49

50. 43
51. 44
52. الغلاف الخلفي